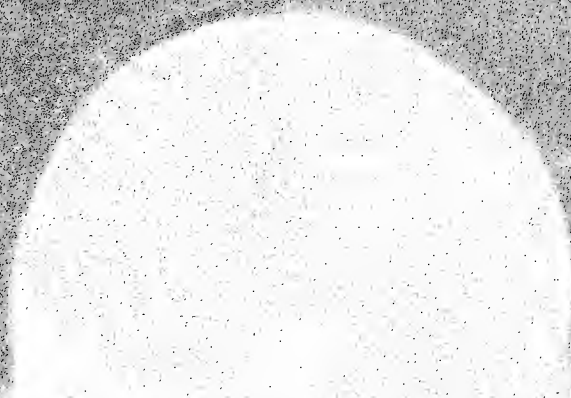


الحمد لله



الحمد لله

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي
الاسكندرية

بجار
الحب
عند
الصوفية

أحمد بهجت



مؤسسة المعارف
للطباعة والنشر بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الغلاف للفنان خلف طايح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقفة امام صورة

اذا وقفت روى امام البحر .. احسست اننى اقف امام كفاء لى ..
فالبحر - كما يقولون هرمان ملفيل - أرض غفل ازلية مجهولة الهوية ،
والانسان هو الآخر أرض مجهولة الهوية ، ولا احد يعرف - سوى الله
تعالى - هل تنتمى هذه الروح باليلاد لعذوبة الحليب ، ام انها ابنة شرعية
لوهج النار ..

وفى الانسان وداعة تتبدى فى البحر سطحا ازرقى .. غير ان وراء هذه
الوداعة قوة تدمير هائلة .. واى قطرة من المياه تسقط بانتظام على صخرة ،
تستطيع ان تثقب الصخرة بقوة لا تستطيعها رصاصة تنطلق من سلاح ..

وكثيرا ما سحق البحر بثورته آلاف السفن منذ بدء الخليقة الى اليوم ،
ومع ذلك ، فان تكرار هذه الأمور جعل الانسان يفقد احساسه برهبة البحر
وقوته ، تلك الرهبة التى تقترن باسم البحر منذ بدء البدء ..

ايضا يفقد الانسان احساسه بالرهبة التى تعيش داخله لانها تعيش
داخله .. يعتاد عليها كما يعتاد على التنفس ، ومع الوقت ينسى انه
تنفس ..

واول سفينة قرانا عنها كانت تسبح على صدر طوفان ولد من دعوة
نبي غاضب ، وقد اغرق هذا الطوفان عالما بأكمله ، لم يترك عينا تطرف
أو حياة تتردد ..

« وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى
الماء على أمر قد قدر » ..

ولقد نسي المعاصرون هذا الطوفان القديم .. رغم أنه لم يزل يهدر الى
اليوم ، وهو الذي حطم سفن هذا العام وسفن العام المنصرم ، هذه هي
الحقيقة ..

أيها الاحياء الخنقى .. ان طوفان نوح لم يتوقف .. وما زال يغطى
اربعة اخماس هذا العالم الجميل ..

نحن نعيش على الأرض .. نتصور أننا نعيش على أرض ..

وحقيقة الامر أن الانسان يعيش على الماء .. في جزر وسط الماء .
قارات الدنيا وطرقها وبلادها ومدنها وقراها كلها جزر صغيرة ضئيلة وسط
موج لا يكف عن لطم الشاطئ .

وحين التقطت سفن الفضاء صورة للكرة الأرضية ، لم ينتبه احد منا
الى ان الكرة الأرضية ليست أرضية ..

انما هي كرة مائية ..

ظهرت زرقاء في الصور الفلكية .. لأن أغلبية الأرض مياه ، وهي أغلبية
ساحقة تتيح للبحار أن تفوز في أي انتخابات بينها وبين الأرض ..

اربعة أخماسها مياه .. والخمس الباقي هو المعارضة ..

ورغم أن اهل الأرض يتعصبون للأرض ، واحياء المياه بمعصور للماء .
ويهلك أبناء الأرض لو سقطوا في الماء ، وتحتضر خلائق المياه لو حرحب الى
الأرض ..

رغم هذا فان هناك تفرقة ظالمة بين الأرض والبحار .

لماذا تعد المعجزة في الأرض معجزة وتفقد اسمها في البحر ؟ لقد انشقت الأرض أمام قورح وجنوده وابتلعتهم الى الأبد ، وصرخ العبرانيون أمام المعجزة ، وتنشق المياه كل يوم وتبتلع سفينة فلا يقول الناس عما حدث انه معجزة .. ليست قوة البحر معجزة .. اليس غضبه معجزة ..

تأمل البحر حين يشور ، عبثا تسال عن رحمته او ترجوه ضبط انفاسه ، انه يغمر الأرض لاهثا ناخرا كأنه جواد حرب هائج مجنون تجندل عنه فارسه ..

ثم .. ها هو الفارس يعود لامتطاء جواده بعد أن بعثته الرياح الشرقية من الموت ..

وها هو البحر الفاضب المهول يتحول الى طفل بالغ الوداعة .. وتحول امواجه الثائرة من افواه مفتوحة للموت .. الى سطور من أبيات شعر زرقاء تقبل أقدام الشاطئ ..

واحيانا تنصرف مشيئة الله تعالى الى شيء يتصل بالبحر ..

ويطيع البحر قوانين لا ندرى عنها شيئا ، وتنشق مياهه عن طريق مفاجيء يسير فيه موسى مع بنى اسرائيل .. ثم يتذكر البحر انه قد نسي شيئا فيعود لاحضاره ، ويلتئم على جيش فرعون وجنوده ..

مع .. كلما راد تأمل الانسان في البحر زاد احساسه بدهاء البحر ومكره .. معظم مخلوقات البر تدب فوق البر ظاهرة للعيان مكشوفة واضحة ..

اما البحر فبالغ الدهاء .. ومعظم وحوشه المخيفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة في معظم الاحيان ، مستخفية استخفاء الماكر الرواغ تحت أجمل الالوان الودعة الزرقاء ..

هل يحاكي البحر الانسان في دهائه .. ام أن الانسان تعلم دهاءه من البحر . لا احد يعرف ..

بوصفنا من السحر سوف نهده للبشر .. وان كانت الحميفة سنظل محمولة رغم هذه الشهادة ..

ليس الانسان هو المخلوق الذى تتأمل صفحة وجهه الجميل وتنظر
فى عينيه الهادئتين ولا تعرف أنه سيفرس خنجره فى ظهرك حين تعطيه
ظهرك ..

هذا المكر مدين بمولده للبحر الكامن فى روح الانسان ..

لا نريد ان نطيل وقوفنا امام البحر ..

فقط نريد ان نتأمل البحر .. ونتأمل هذه الارض الخضراء الوديمة
الطيبة التى تحيط به من كل جانب ..

تأملهما كليهما .. البحر والبر ..

الا ترى فيهما شيئا غريبا لشيء مستغر في نفسك ..

مثلما يحف هذا المحيط المهول بهذا البر الأخضر .. كذلك تنطوى روح
الانسان على جزيرة حافلة بالسلام والبهجة ، جزيرة تحيطها مرعبات هذه
الحياة الغامضة المروعة ..

رعاك الله ..

لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها أبدا ..

.....

وقفة امام البحر

اعرف ان الانسان هو المخلوق الذى يسنم الى النصائح ولا يلتزم
بها . ومهما يكن من أمر ، فان البحر العظيم الذى كنا نتأمله منذ لحظات .
ليس فى حقيقته الا صورة للبحر ..

الانسان هو البحر الحقيقى ..

حين يحب الاسرار .. يحول الى حفيفه البحر

يعطى ظهورا للصورة وتتأمل الاصل ..

تأمل بحار الحب عند الصوفية ..

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيرا عن الحب .. هل هو الودع بالاسرار
الكامنة في مياه البحر .. اليس الماء اصل كل شيء حتى ..

.....

قبل ان يبدأ البدء او يكون الكون ..

قبل ان تصفع الشمس ظلالها على الارض ..

قبل ان تخلق الارض من انفجار كوني او ابتسامة كونية نتيجة امر
يتألف من حرفين ..

قبل اي قبل ..

كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..

كيف كان ..

اين كان ..

افضل ان نذيب الأسئلة في خشوع ماء يترجرج موجه بالسجود ..
« وكان عرشه على الماء » .

سبحانه وتعالى ..

كيف كان عرشه ..

هذا سر سكنت عنه الحق ..

اين كان عرشه ..

هذا سر اجاب عنه الحق فزاد السر ولم ينقص ولم ينكشف « وكان
عرشه على الماء » ..

اي ماء .. اين كان هذا الماء ..

اسرار وراء اسرار ..

.....

الشاطيء اسرار ..

وبحار الحب عند الصوفية اسرار ..

والصوفية اهل عطش الى الحقيقة .. والحقيقة كائنة في الماء واحيانا يكتب العارفون كلماتهم على الماء .. واحيانا يسير رجال على الماء ويهلك من العطش رجال افضل منهم ..

امر محير حقاً ، ولكنه لا يستوجب اهدار المحاولة ..

قبل ان ننشر اشروعنا البيضاء ونبحر في بحار الحب ، نريد ان نعبر نهرا صغيرا متقلبا .. هو هذا الجدل حول الصوفية ..

يعتقد البعض ان التصوف كلمة لا علاقة لها بالاسلام .. كلمة دخيلة على الاسلام .. ويرى البعض ان التصوف بمعنى الصفاء في حب الله هو لب

الاسلام .. ومثلما يقف البعض من التصوف موقف العداء والحدرد والتشكك والرفض ، يراه البعض غاية سير السائرين ومقصد امل العابدين ..

ولكل فريق حجته واسلوبه في اثبات وجهة نظره ..

ننظر في أوراق الفريقين قبل ان نقطع برأى ويستبد بنا اعجابنا بهذا الرأى على امتداد التاريخ الاسلامى ..

نسب العداء بين الصوفية وغيرهم من الفرق .. وتجادلوا كثيرا واختلفوا كثيرا ..

من اعداء الصوفية علماء الكلام ، فقد رفع علماء الكلام رايات العقل ، على حين رفع الصوفية شعار القلوب والاسرار ..

من اعداء الصوفية اهل الظاهر ، وهؤلاء هم الذين يلتزمون بنصوص الآيات ويتفنون عندها فلا يتزحزون ، والاصل انهم ينظرون الى ظاهر الأشياء : يأخذون بظاهر الآيات ، لأن الفوص فيما وراء ذلك ليس في امكان الانسان ، لأن السرائر والقلوب والنوايا والخفايا اسرار لا يطلع عليها غير الله ..

اما الصوفية فقالوا انهم يدعون اهل الظاهر في المياه الآمنة ، وسيمضون
هم في البحار غوصا وبحثا عن كنوز القاع ..

من اعداء الصوفية اهل الشريعة احيانا ، ويسمى الصوفية انفسهم
اهل الحقيقة تمييزا لهم عن اهل الشريعة ، ويتساءل اهل الشريعة اذا
كانت الحقيقة ليست كائنة في الشريعة فلماذا أنزلها الله ؟

ولقد حفلت كتب القدماء بهذا الجدل الطويل ، ولم يخل الأمر من
معارك استخدمت فيها السيوف احيانا حين أعيا المجادلين المنطق ..

اما المعاصرون ففيهم رافضون كثيرون ..

كل الملاحدة يرفضون التصوف باعتباره تجربة روحية ، لانهم لا يؤمنون
بالروح كما يؤمن بها المؤمنون ..

وفي الفلاسفة من يرفض التصوف كاسلوب من أساليب البحث عن
الحقيقة لانهم يرون الفلسفة هي الاسلوب الوحيد للبحث عن هذه الحقيقة .
وفي المعاصرين من ينظر الى التصوف فراه شرا كله ، ويعتبره لونا من ألوان
الهروب العاجز اليأس الى الخرافات والعجائب . وفي الباحثين من يدرس
التصوف فيرجعه الى اصوله الهندية والفارسية ويبين تأثيره بلاهوت
المسيحية وفلسفة بوذا واضرابه ..

وفي المسلمين المتشددین من يعتقد أن التصوف انحرف عن الاسلام
وجهاهه الى رهبانية اسلاميه حديدة لم يأمر بها الله ولم يصمها الرسول .
واسم دوافع الرافضين للتصوف تكاد تنحصر في الأدلة التالية

اولا : ان التصوف بدعة ، فلم نسمع عن الكلمة في عصر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح الرسول الكريم بقوله : « من احدث في
أمرنا هذا ما ليس منه فهو عليه رد » .. وما دام التصوف بدعة فهو
مرفوض .

ثانيا : ان التصوف مرض ، اندلع كالنار في جسم الأمة الاسلاميه من
اطرافها مما وراء الجزيرة العربية ، حيث تحركت البقاعا من ثقافة الجوس
في خرسان وبلغ في محاولة لاستعادة الأرض التي فقدتها في عقول المسلمين

الجبد ، وتسالت عقائد الحوليين فيما تأخم الهند من بلاد العراق ،
وانبعثت اباطيل الفلاسفة فيما اتصل من البلاد بأرض مصر واليونان ..
وهكذا تسال التعقيد الغامض الى العقيدة الاسلامية الواضحة المشرقة
.. وادى صراع الصوفية مع علماء الكلام الى خلق ما يشبه قدائف الأعماق
التي تنفجر داخل جسم الأمة الاسلامية بأصوات مكتومة لا تتيح لأحد ان
يحذرهما .. وبعد ان كان الاسلام هو دين العقل والقلب والمنطق والعدل
صار معرفة تبحث عن نفسها في الذوق والشوق والمشاهدة والمكاشفة
والعشق والجذب ، وغير ذلك من افانين التصوف ومبتكراته المسرحية ..
ثالثا : ان التصوف كهانة ورهبانية ، وبهذين الوصفين يخرج من
الاسلام وان تدثر بعباءة الاسلام ..

.....

هذه أهم حجج الرافضين تماما للتصوف ..
والحقيقة أن أول ادلتهم في الرفض يكفي وحده لإغلاق باب الجدل ..
فهم يعتقدون أن التصوف بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في
النار ..
والحق أن موقف الرافضين للتصوف ليس كله بهذا القطع .. ان
هناك من ينظر اليه فيقبل منه أجزاء ويرفض منه أجزاء ، ويختار ما يتفق
معه ويرفض ما لا يقبله .
وقد آثرت ان أورد رأي أهل الدروة في الرفض لا تكلم عن رأي أهل
الدروة في القبول ..

في الصوفية من يدافع عن نفسه بغير أسلوب الدفاع .. لا يهاجم الفكرة
الى ترمى التصوف بالخروج على الاسلام والرسول ، وانما يؤكد أن
التصوف هو نلب الاسلام وفطرة البشرية وهو سلوك رسول الله صلى الله
عليه وسلم ..

بقول كتاب من كتب المحدثين في التصوف ..
« التصوف عبادة وطهارة وزهد . ثم كشف وفيض واشراق »

اتصال بالخالق الأعظم الذى صدر عنه الكون ، اليست حياه محمد في
الفار صورة كاملة للصوفي الحق ، اليس هذا التأمل المحمدى في عظمة
فاطر السماوات والأرضين ، أساسا للأذواق والمواجيد الصوفية ، وسيلا
للكشف والفيض والإشراق .. غير أن محمدا تبنى ولا نبى بعده ، وإنما
أجباؤه وأتباعه على سنته وهديه كان صلوات الله عليه أمام الصوفية
الأكبر ، وكان يواصل التعبد والتهجد ، وكان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه
فتقول له السيدة عائشة :

— لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
وما تأخر ..

فقال صلى الله عليه وسلم :

— أفلا أكون عبدا شكورا .

ويروى الصوفية أحاديث كثيرة عن زهده وتحشته في الفار وكرهيته
للدنيا وإيثاره للآخرة وتواضعه للخلق ..

وفد دخل عمر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فوجده يضطجع على حصير خشن ترك آثاره على جنبه ، فبكى عمر ،
فسأله الرسول عما يبكيه قال أن أرى كسرى وقيصر على الحرير والاستبرق
وأراك على هذا الحصير .. ففضب الرسول وتساءل : أتريدها كسروية
يا عمر ؟

هذا رأى المغالين في تأييد التصوف وذلك رأى المغالين من أعداء
التصوف بسطناهما لنعرف ماذا يقول كل فريق ..

ونحن لسنا مع الفريقين لأننا لسنا مع الغلو أو التزيد ..

لست أعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صوفيا ..

لست أملك أن أطلق على الرسول صفة لم ترد عنه ولم يوصف بها في
حياته ..

هو اجترأ إذا أن نسميه بعد موته صلى الله عليه وسلم يوصف

مستحدث .. حتى لو كان هذا الوصف مائدة من المديح والتعظيم .

الرسول صلى الله عليه وسلم نبي مرسل .

وهذه درجة لا يمكن للبشر الفانين معرفة قدرها .

وليس بعد النبوة درجة أو صفة أو تكريم أو امتياز .

ايضا لسنا ضد التصوف الى الحد الذي نخلعه من الاسلام ونرميه

بتهمة البوذية والفارسية والهندية ونراه مرضا يصيب الروح فتهرب الى التيه والشتات ..

لو تصورنا ان قاضيا من بنى البشر يريد ان يحكم على التصوف فكيف يحكم عليه .

يجب على القاضى ان يكون هادىء العقل .. غير منحاز الى معسكر ضد معسكر ..

يجب على القاضى ان يكون امامه قانون يحكم به .. ومعيار يزن على اساسه ..

لا ينبغي ان يطمئن القاضى لقانون غير القرآن ..
نحنكم الى القرآن اذا .

**ما وافق القرآن كان حقا وان حمل اسم التصوف او اسم الظاهر ..
او اى اسم ..**

**وما خالف القرآن كان باطلا وان حمل اسم الحقيقة ..
هذا هو المعيار الذى نطمئن له ..**

.....

قبل ان نحتكم الى القرآن ونبدأ سياحتنا فى بحار انجب .
نريد ان نعرف اسرار هذا الجدل الطويل حول الصوفية .
لماذا اختلف الناس وانقسموا ؟

ان جواب هذا السؤال رغم بساطته سر من اسرار الخليفة .
خلق الله الناس على قدر من التفاوت فى الفهم والاحساس والمقدرة

فى الناس من ىمشى وراء عقله ، ومنهم من ىمشى وراء قلبه ، وفيهم من ىرفع لواء الضمير ، وفيهم من ىخرج على هذا كله لشيء أخطر ، وعدم تساوى القدرة البشرية أو العقل البشرى ىعنى أن الناس سوف تختلف ..

ولقد خضع الاسلام فى القرون الأربعة عشرة التى عاشها على الأرض لما خضعت له كل الأديان السابقة عليه من ضروب الدرس والفهم والتفسير والتأويل ، وإذا كان كتابه قد ظل بغير تحريف ، فإن فى هذا الكتاب قد تعرض لما ىتعرض له فهم أى كتاب مقدس .

ان ظهور اتجاهات فى العقائد والعبادات والمعاملات ، قد أدى لنشوء مذاهب فى الفلسفة والفقه ، ومدارس فى علم الكلام والتصوف .

وكان طبيعيا أن ىبدأ الاختلاف والمعارضة .

ان للمتكلمين فهمهم الخاص لامهات العقائد والدفاع عنها .. وللصوفية موقفهم المختلف عن موقف علماء الكلام ..

بل ان المتكلمين ليسوا سواء فى فهمهم للعقيدة .. والصوفية ليسوا سواء فى نظرتهم الى الأمور .

والذين يؤولون الكتاب وىفسرونه ىختلفون أحيانا اختلافات محيرة .. نضرب مثلا بقوله تعالى « ىد الله فوق أيديهم » اذا فهمها انسان بمعنى اليد ، مع التنزيه والتقديس ، وفهمها انسان آخر بمعنى القدرة ، فأيهما على حق ..

ان الاثنين على حق ..

ىجب ان نعرف أن كثيرا من المختلفين يتكلمون باسم الاسلام وينتمون اليه وىصورون الاسلام لغيرهم كما تصوره هم أنفسهم .. وهم فى هذا كما ىقول سادتنا وأسائدتنا مجتهدون ، ان أخطأوا فلهم أجر ، وان أصابوا فلهم أجران .. ومن حقهم علينا ان ندين لهم بالفضل والشكر وان نحاول فهم آرائهم ووضعهم فى سجل التراث الفكرى الإسلامى أولا .. والتراث الفكرى العالمى بعد ذلك .

والحقيقة أنه ليس هناك فى فهم مسائل الدين ما ىمكن أن نسميه كاذبا

او صادقا .. ما دام قائما على أساس من الكتاب والسنة . وما دام المتاول لا يخرج بالنص عن المعانى التى جرى بها العرف فى اللسان العربى .. بل اقصى ما توصف به تاولات المتاولين انها حرفية ضيقة ، او متحررة واسعة ، او اكثر عمقا فى الروحانية . او مناسبة لموضوعها ..

ان الصلاة عند الفقهاء أفعال وأقوال مفتوحة بالتكبير مختمة بالتسليم ..

والصلاة عند الصوفية مناجاة قلبية بين العبد والرب .. ليس الاثنان على حق ، ان النظر الى الله باعتباره معبودا نظر صحيح .. والنظر اليه باعتباره محبوبا أولا ومعبودا ثانيا نظر صحيح ..

نبتعد اذن عن هذا الجدل والخصام وليكن امام القاضى قانون واحد .. هو القرآن .

هل وردت كلمة التصوف فى القرآن ؟

لم ترد الكلمة ..

يقول الصوفية ان القرآن لم يورد الكلمة ولكنه أورد قصة عظيمة هى لب التصوف الاسلامى ..

قصة موسى عليه الصلاة والسلام .. والعبد الربانى .

✽ شاطيء بحر ..

هذا مكان القصة ..

الشاطيء رمادى باهت ، والبحر امامه ساكن ، والمكان مضرب بشيء يشبه السر ..

ليس هناك بحر واحد ..

هناك بحران يلتقيان معا .

اى ان هناك سرين قد اجتمعا فازداد الامر غموضا فوق غموس .

أقدام موسى تدب على رمال الشاطيء وفوافعه ، العصا تنفوس فى الرمال واحيانا يبلل الموج نهايتها ..

وتحس العصا أنها تعيش زمنين معا ، طرف مغموس في مياه ملحّة باردة
وطرف يتلقى أشعة الشمس الدافئة .

والمياه سر .. والشمس هي الأخرى سر .. وزمن القصة سر هو
الأخر ..

لا يقول لنا القرآن الكريم متى كان ذلك ..

لا يقول لنا أين كان ذلك ..

حدد القرآن المكان ولم يحدده ..

ان موسى يقرر امرا مفاجئا ..

« واذا قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضي

حقبا » ..

ان موسى يقرر لفتاه (وهو فتى لا يذكر القرآن اسمه) .. انه سيمضي

حقبا ومسافات وازمنة .. حتى يصل الى مجمع البحرين ..

اين كان مجمع البحرين هذا .. اين كان لقاء البحرين هذا ..

لا يقول لنا القرآن الكريم شيئا عن المكان فهو قد حدده ولم يحدده ..

ولقد تحدث كثير من المفسرين عن هذا المكان ، وحدده بعضهم ، واجهدوا

انفسهم في محاولة تعيينه ، ونرى ان هذا كله غير مطلوب ولا مقصود ..

فان هذا الجو الخارجى الغامض المشحون بالاسرار يتفق تماما مع الجو

الداخلى الغامض المشحون بالاسرار ، ويتفق مع لب القصة وهدفها ..

.....

يقول المفسرون ان رجلا من قوم موسى سألَه يوما :

— من أعلم الناس في الارض اليوم يا موسى ؟

قال : انا .. وقالها باعتباره كليم الله ونبيا من اولى العزم الكبار ..

فأوحى اليه الله ان يذهب الى مكان ليلتقى بعبد من عباد الله .. ولسنا

نعلم هل كان موسى ذاهبا ليتعلم .. هل أخبره الله تعالى انه قد تجاوز

حدوده حين اعتقد انه أعلم الناس ، فهو رغم نبوته وكونه « كليم » الله

تبارك وتعالى ، فقد يكون في الأرض من هو أعلم منه .. هل ذهب موسى لهذا السبب أم ذهب لأن الله أمره بالذهاب ليرى لو أن آخر من العلم الذي يختلف عن علمه ..

لنسنا نعرف لماذا ذهب موسى بالتحديد .. لاثني الآيات الفرائية بسر ذهابه .. انما تخفى هذا السر ، وهكذا يذهب موسى امامنا كأنه يمشى في ضباب ..

تأمل العبد نفسه الذي ذهب اليه موسى ليتعلم منه وينبعه ..

ان العبد بغير اسم .. يقدمه القرآن مجهولا بغير اسم .

لم يحدثنا الحق تبارك وتعالى عن اسمه .

« فوجدنا عبدا من عبادنا » ..

تأمل هذه العبارة « عبدا من عبادنا » ..

ان العبد الصالح المنسوب لله تعالى يظهر على مسرح الأحداث مدثرا بالفموض ملتفا بالضباب .

رجل بلا اسم .. مثل تلمبذ موسى .. مثل المكان الذي ذهب اليه .

هذا الفموض الذي يرتقى لحد الرهبة الساكنة مقصود ومتعمد لخدمة الغرض الاصيل في القصة ، وهذا من ألوان التصوير الفني في القرآن كما يقول الأستاذ سيد قطب .

نريد ان يتأمل القارئ هذه الآيات ليرى اعجاز الأسلوب الذي يسوق الله تعالى به بدايات القصة ..

« واذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضي حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداؤنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال ارايت اذ اوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا ، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا .. فوجدنا عبدا من عبادنا » ..

تأمل ظهور العبد على مسرح الحدث .. ان صورا مره تقع امامنا

قبل أن يظهر هذا العبد ..

في البدء نرى موسى مصرا على عدم اليأس ، فهو لن يتوقف عن الترحال والبحث حتى يصل الى مجمع البحرين ، ويصل موسى مع فتاه بعد رحلة شاقة الى المكان المحدد ..

وينسى فتى موسى « حوتا » صغيرا ، ينسى سمكة كانت مشوية على النار ومهيأة لعداء موسى ، ينساها تماما فتعود السمكة الى الحياة وتتسلل في البحر عجبا .. أمر بالغ العجب أن تعود السمكة الى الحياة وتعود الى البحر بعد أن طهيت على النار ، لكن الأسرار تزيد كلما تقدمت سطور الفصة ، ونحن لا نعرف لماذا وقعت هذه الخارقة أو المعجزة في هذا الوقت بالتحديد ، وسنفهم فيما بعد أن هذه المعجزة إشارة موحية من الله تعالى بتحديد المكان الذي سيعثر فيه موسى على العبد الرباني .. بعد أن تسلت السمكة الى البحر ، سار موسى وفتاه حتى تعب موسى وأحس بالجوع ، وقال لفتاه آتنا غداءنا .. وتذكر فتى موسى كل ما حدث ..

تذكر انه رأى السمكة تقفز من السلة الى البحر .. وتسبح فيه وتمضي في طيات الموج مثل سر صغير يدوب في سر أكبر ..

ونسى فتى موسى كل شيء عما رآه .. أنساه الشيطان أن يحدث موسى بما وقع ، وذلك أمر غريب ، لأن ما وقع كان جديرا بأن يذكره ، فهو معجزة ، وكان جديرا بأن يحدث عنه موسى ، لأنه ربما كان إشارة لموسى بشيء ..

ويبدو أن موسى أغفى قليلا فوق ما وقع أثناء نومه ، وشاهده فتاه وخادمه ، فلما استيقظ موسى نسى فتاه كل شيء عما حدث ، وعاد يسير مع موسى حتى دميت أقدامهما من السير وأحسا التعب وجلسا للراحة ، وتذكر موسى غداءه وأمر فتاه أن يحضره ، عندئذ تذكر الفتى أن الحوت الصغير قد عاد الى البحر .. وأنبا موسى بما وقع ..

وفهم موسى الإشارة الالهية على الفور ..

قال ذلك ما كنا نبغ .. هذا ما تريده بالضبط .. هذه المعجزة أو

هذا السر اشارة الى سر آخر سنجدّه في هذا المكان ..

وعاد موسى مع فتاه يقصان آثار اقدمهما حتى عادا الى المكان الذي تسلك فيه الحوت ..

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علما » ..

ينسب الله تعالى العبد الى نفسه ، ويسببه الى عباده الذين آتاهم رحمة من عنده ، ويقدم الله تعالى العبد بوصفه عبدا « **علّمناه من لدنا علما** » ..

هذا بطل القصة .. وهو رجل بلا اسم .. وان اعتقد المفسرون انه الخضر عليه السلام ، وان القرآن لم يصرح باسمه لأن التصريح باسمه لا يعنى شيئا ، وعدم التصريح باسمه يعنى آلاف الاشياء ..

نحن امام رجل اتاه الله من علمه اللدنى .. وهو علم هائل ، وان كان سرا كله ، وهو علم يرتدى أكثر من قناع ، وربما نظرت في صفحته البادية فرايت ماساة او جريمة ، ولكن قاع الحقيقة يخلف كل الاختلاف عما تراه ..

هذا العلم اللدنى يختلف تماما عن العلم البشرى ..

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

تشير هذه الآيات الى العلم البشرى .. وهو علم يرمز له القرآن الكريم بالقلم .. اما العلم الآخر ، او العلم اللدنى ، فهذا نوع آخر ، وهو ليس منسوبيا الى الله فحسب ، انما هو من لدنه سبحانه ..

.....

لم نكد موسى يلتقى بهذا العبد حتى سألّه ان يعلمه .

« قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » .

السؤال من موسى وهو سؤال جدير بأن يثير دهشتنا قليلا ..

ان موسى كما يرسمه الحق تبارك وتعالى في القرآن رجل قوى عنيف سريع الغضب ، انه يتدخل في مشاجرة ويدفع بيده رجلا فيقتله ، وهو حينلقى العصا من يده فصارت حية اصابه الروح وولى هاربا ، وهو حين عاد يحمل الواح التوراة ووجد قومه يعبدون العجل ثار ثورة هائلة وألقى الواح التوراة من يده وأمسك برأس أخيه ولحيته معنفا :

« قال يا ابن ام لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » .

ولو عرفنا من قائل هذه الكلمات لأدركنا غضب موسى ، قائل الكلمات هو هارون النبي الكريم وشقيق موسى ..

بل ان موسى ظل غاضبا فترة ، وعبر القرآن عن هذا الغضب بصورة فنية معجزة في قوله تعالى « فلما سكنت عن موسى الغضب » .

نريد ان نقول ان موسى كان سريع الانفعال سريع الغضب ، وأحيانا كان صبره ينفد ، حتى في مواقف الخوف أو الرهبة ، ان صبره ينفد فيقول الحقيقة كاملة ، وها هو امام جبار الأرض فرعون يقول له بعنف «وتلك نعمة تمنها على ان عبت بنى اسرائيل» هل تمن على أنك استخدمت بنى اسرائيل عبدا لك ، هذا يحتسب ضدك ولا يحتسب لك .

نريد ان نقول ان موسى هذا النبي السريع الغضب ، يتحول الى شخص آخر ، فيحدث العبد الذي عثر عليه بأنه يريد ان يتبعه .. ويريد ان يتعلم منه ..

ورغم هذا السؤال الهادئ الدمث .. ترى العبد الصالح يجيب موسى اجابة عنيفة « قال أنك لن تستطيع معي صبرا » .

بهذه الجملة السريعة ينبه العبد موسى الى حقيقة الفرق بين العلم الشرى والعلم الدنى ، فالعلم الدنى ثقيل ولن يصبر عليه موسى ، ولن يصبر على اتباعه بالتالى .

وربما أحس العبد أن موسى فوجيء ، فعاد يحدثه عن بديهية مفترضة :

« وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » .

الصبر يكون حين تعرف اقدار الأشياء . ويكون حين تفهم اخبار الأشياء ، ولن أحدثك عن اسرار الأشياء .. ولهذا لن تصبر عليها ..

عاد موسى يقول بأسلوب يشي بالرغبة والالاح .

« قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا » .

خضوع مطلق من تلميذ لن يعصى لاستاذ امره .

ووعد في نفس الوقت بالصبر .. والصبر هو احتمال ما لانفهم .
ويضع الأستاذ شروطه :

« قال فان اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » .
الشروط .. ألا تسأل ..

السؤال ممنوع تماما .. مهما رأيت .. مهما تحيرت ..

لا تسأل حتى أحدثك انا .. عبارات العبد قصيرة وتلغرافية وموحية .

وافق موسى على الشرط وبدأ رحلته مع العبد الصالح .. « فانطلقا
حتى اذا ركبا في السفينة » ركبا في سفينة رحبت بهما ورفض صاحبها ان
يتقاضى منهما اجرا لأنهما غرباء . وفوجيء موسى حين غادرها صاحبها ،
فوجيء ان العبد الصالح الذي جاء يتعلم منه منهمك في خرق السفينة
وانلافها .. بل انه « خرقها » .. وغلبت موسى طبيعته المندفعة في الحق ،
وحرره غضبه على الخطا فانطلق يقول للعبد :

« اخرقتها لتفرك اهلها لقد جئت شيئا امرا » .

يتهم موسى العبد بأنه قد ارتكب خطأ بالغا ، فهو يرد على احسان
اصحاب السفينة بالايذاء ، وهو يمرضهم للفرق والموت بفعلته .. وينظر
العبد الصالح الى موسى ولا يزيد على ان يقول له :

« قال الم اقل انك لن تستطيع معي صبرا » ..

انه يذكره بما سبق ان قاله له . ان علمه ثقيل ولا قدرة لموسى على
احتماله ..

ويعود موسى الى الاعتذار .

« قال لا تؤاخذنى بما نسيت » .

وبعد الاعتذار رجاء بالآ يرهقه العبد الصالح من امره عسرا ، لقد نسى وهذه هى المرة الاولى ؛ ليسامحه هذه المرة ..

ونكاد نحس من غضب موسى المستتر لهفته البالغة فى التعلم ومصاحبة هذا العبد ذى التصرفات الغريبة .

ويعاود موسى مصاحبته للعبد ...

« فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله » .

كان تصرف العبد هذه المرة غاية فى الغرابة .. نحن امام جريمة قتل ، وهى جريمة شاهدها موسى واندھش لها دهشة عميقة ، وثار بسببها ثورة عميقة .. وكان بطلها هو نفس البطل الذى خرق السفينة ..

وعاد موسى يوجه حديثه اليه :

« قال : اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا » .

النفس الزكية هى الغلام ، وهى زكية لأن الغلام صغير السن لم يرتكب بعد من الجرائم ما يسمح بقتله .. وقتله هنا شيء منكر بالغ البشاعة .. وعاد العبد الصالح يلفت موسى الى جملته الاولى التى قالها له مرتين قبل ذلك :

« قال ألم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا » .

لو تأملنا غموض العبد فسوف نلاحظ أنه يزداد كلما تقدمت القصة ، فهو لا يتكلم .. بطل القصة الرئيسى لا يتكلم مطلقا ، انما يتصرف فى هدوء صامت ، وهو اذا تكلم قال لموسى انك لن تستطيع معى صبرا ..

وهو يقول هذه الجملة ثلاث مرات .. وفى المرة الثالثة يعترف موسى بأنه يوشك أن يؤكد ما قاله الأستاذ من أنه لن يصبر ، وكل ما يطلبه موسى فرصة اخيرة يثبت فيها صبره وقدرته على التعلم .

« قال ان سالتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى

عذرا » ..

وعادا ينطلقان .. وصلا الى قرية بخيلة غاية البخل .. حاولا ان يأكلا منها كغريباء وضيوف بلا اجر - كعادة هذا الزمان - ولكن القرية ابت أن تطعمهما أو تضيفهما .. وانصرف الاثنان .. موسى والعبد الصالح ، ويبدو أن موسى لم يصحب فتاه معه في رحلة التعلم هذه لأن القرآن يتحدث عنهما كائنين .. « فانطلقا » .. « حتى اذا أتيا » « فأبوا أن يضيفوهما » ..

بعد هذه المعاملة السيئة ، انصرف موسى والعبد الصالح الى خلاء خرب فيه جدار يوشك أن ينقض .

وفوجيء موسى أن العبد الصالح يمضي الليلة في اصلاح الجدار وبنائه من جديد ، ووصلت دهشة موسى الذروة من هذا العبد الصالح ..

لقد باتا بغير عشاء .. لم يطعمهما في القرية أحد .. لماذا يبني الرجل هذا الجدار المتهالك .. لو شاء لاتخذ عليه اجرا .. ويقول موسى فكرته لصاحبه .

« فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا » ..

لقد نسي موسى وعده بالصبر ، وقد سأل قبل ذلك فرصة أخيرة ، وها قد مرت الفرصة الثالثة .

« قال هذا فراق بيني وبينك » .

انتهى الأمر ، ولن تعرف منى ما أردت أن تعرف ، ولن تتعلم منى ما أردت أن تتعلم .. ولكي تطمئن بالا فسوف أحدثك بأسرار ما رأيت .

« سائبك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

سأشفي لك سر ما رأيت .. وسيكون هذا ايذانا بفراقنا النهائي ..

السفينة التي خرقتها لم اكن اريد اغراق أهلها أو هلاكهم .. على العكس من ذلك كان وراءهم ملك سيخوض حربا ، وكان بنوى مصادرة كل السفن ، وكان اصحاب السفينة سيموتون من الجوع . فخرقت السفينة ليلفظها الملك ، فيعاود اصحابها اصلاحها ويعملون عليها وبأكلون ..

كان ظاهر ما رايت ايداء وقتلا ، وكان باطن ما رايت هو اللطف والرحمة ..

اما الغلام الذى اهتزت مشاعرك لقتله ، وظننت ان وراء قتله شيئا نكرا ، هذا الغلام طاغية وكافر ، كان غلاما بريئا امام نظرك ولكنه كان طاغية وكافرا باعتبار ما سيكون حين يكبر . وابواه مؤمنان ، وكان سيرهقهما طغيانا وكفرا ، فشاء الله تعالى موته ليريح أبويه منه ، ويعطيتهما بدلا منه ابنا بارا ، وهكذا انقذ الله الابوين وانقذ الغلام نفسه من نفسه ، فهو قد صار الى الرحمة حين مات وهو غلام ، لانه لم يرتكب بعد ما كان سيرتكب .. لقد نجا جميع الأطراف رغم أنك تظن ان جميع الأطراف قد هلكوا .. هلك الولد بالموت .. هذا ما رأيته يا موسى ، ولكن الحقيقة انه نجا بالموت ، ولن يحاسب على ما لم يفعل ، مات وهو غلام بريء ، اما الابوان فقد حزنا كثيرا وبكيا كثيرا ، ووراء حزنهما وبكائهما كانت ترقد شمس الفرح والابتسام .. كان ما رايت هو عكس الحقيقة ..

« اما الجدار فكان للغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان ابوهما صالحا » .. وقد اراد الله الا يهدم الجدار فيظهر الكنز وينهبه اهل القرية البخيلة ، اراد ان يحتفظ لابناء الرجل الصالح بالكنز ..

ويتقدم العبد الصالح خطوة في تعليمه لموسى فيكشف له سر ما حدث ..

— رحمة من ربك ..

كل ما رايت من صور الاعتداء او القتل او وضع الشيء في غير موضعه .. لم يكن غير رحمة ورحمة ورحمة ..

حتى مآسى الوجود وكوارثه هي اقنعة للمآسى والكوارث .. والباطن العميق هو الرحمة ..

— وما فعلته عن امرى ..

لم يكن هذا رايا رأيته ولا كان اقتناعا بشيء او معرفة لشيء او تطبيقا لعلم بشرى اما كان امرا من الله ..

قال تعالى في سورة الكهف « اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت ان اعييها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا . واما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ، فاردنا ان يبدلها ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما . واما الجدار فكان لفلانين يتيمن في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امرى ذلك تاويل ما لم تسطع عليه صبرا » .

نريد ان يلاحظ القارئ ان العبد الصالح استخدم ثلاثة تعبيرات للارادة في القصص الثلاث ..

قال عن السفينة « فاردت ان اعييها » .

وقال عن الغلام « فاردنا ان يبدلها ربهما خيرا منه » .

وقال عن الجدار واليتيمين « فاراد ربك ان يبلغا اشدهما » .

وقد ارجع الارادة الى نفسه في قصة السفينة . والى الله ضمنا في قصة الغلام . والى الله صراحة في قصة الجدار واليتيمين .

ما الذى تعنيه هذه القصة .. ؟

ما الذى تريد ان تقوله لنا .. ؟

لا يملك العقل سوى التوقف امام هذه القصة ..

قصة موسى والعبد الصالح والسفينة والغلام والجدار ..

هى قصة من اعجب قصص القرآن ونقصد بالعجب هنا ما اشار اليه الجن حين قالوا « انا سمعنا قرآنا عجبا » فلم يستخدم غير الجن هذا التعبير ، واستخدمه تلميذ موسى حين قال عن الحوت الذى ارتد الى الحياة « واتخذ سبيله في البحر عجبا » وتصور انت ان يصف الجن وهم عجب خفى في حد ذاته (القرآن بانه عجب .. ان تحيرهم امام آياته دهشتهم ازاءها يعنى ان ما فيه من اسرار قد استولى عليهم واخضعهم .

وبهذا النظر نتأمل القصة ، فهى عجب في شدة خفائها وعمق معانيها ، وهى عجب في المستويات المختلفة المتدرجة التى تنطوى عليها ، وهى عجب في اسرارها المعلقة واسرارها الخفية ..

فى طفولتى ركبـت السفينة مع موسى والعبد الصالح .. لم افهم مما
يجرى شئنا .. كنت سعيدا بنزهة البحر ، وهياج الأمواج ، وهذه القواقع
اقتى حملتها معى من الشاطئ ..

لم أكن واعيا لهذه الأسرار التى تضمنتها القصة .. موسى وفتاه ..
وهذا الحوت (او السمكة المشوية المهيأة للغداء) ..
لقد وصلا الى مكان .. يسميه القرآن « مجمع البحرين » ، ويسميه
« مجمع بينهما » .. والمكان عند صخرة ..

أوى موسى وفتاه الى الصخرة .. وفى هذه الصخرة عين لا يحدثنا
عنها القرآن .. ويبدو أن فى هذه العين سرا يتصل بالحياة ، لأن جزءا من
مياه العين حين وقع على السمكة المشوية (أو الحوت الصغير) ، أصاب
السمكة شئ مدهش ، فقد ارتدت الى الحياة وقفزت فى مياه البحر ،
ولاحظ فتى موسى أو تلميذه هذه المعجزات ونسى أن يحدث عنها موسى ..
كانت كل هذه الأسرار تخضع طفولتى ببدايتها .

وكبرت أكثر ، وقمت بالرحلة مرة ثانية ، وشاهدت العبد الصالح
بخرق السفينة ، ودهشت وكادت أحتج مع موسى ولكننى خشيت أن
يغضب العبد أو يغضب موسى لأننى أرفع صوتى جوار صوته .. وهكذا
صمت ..

وكبرت أكثر .. لم أعد أعترض على العبد وهو يخرق السفينة ،
أدركت أنه كان ينقذ أصحاب السفينة باتلاف السفينة .

كنت أجلس صامتا أأمل غرابة ما يجرى لموسى ..

لقد بدأت حياة موسى وهو طفل بالقائه فى صندوق والقائه الصندوق
فى الماء .. وكان هذا التدبير الإلهى لينجو موسى من القتل ..
كان البحر هو أول من استقبل موسى وهو طفل ..

وها هو موسى . كب سمينة ليولد من جديد ، أو لينجو من تصـور

ان علمه هو العلم الوحيد الموجود في الارض ..
وقد قتل موسى انسانا حين وكزه ففضى عليه .
وها هو العبد الذي يصحبه يقتل غلاما ..

وقد تصرف العبد في القرية البخيلة تصرفا اريحا بلا اجر ، وكان
هذا تصرف موسى حين وصل مدين ووجد الناس تحاول ان تسقى ووجد
فتاتين لا تزاحمان الرجال ، فسقى لهما ..

ان قصة العبد الصالح تقابل قصة موسى ..
والرموز هنا تقابل الرموز هناك .. والأسرار تزيد وتتكاثر .. وكلما
تقدمت الايام واشتمل الرأس شيئا وزاد حظ المرء من الادراك .. زاد حظه
من التحرير .

.....

القصة بحر مياهه بلا قاع ..
وفي البحار الحقيقية اجزاء تبدو من فرط العمق بلا فرار ..
وفي بحار الحب الالهى اجزاء بلا قاع حقيقى .
وكل موجة من امواج هذا البحر سر كالبهر نفسه ..
ولو حاولنا اليوم ان نقرا فلن نقرا اكثر من هذا الموج القريب الهادى،
الذى يتكسر زبدا ابيض على الشاطئ ..
لن نقرا ابعد من سطور الشاطئ ..

.....

احد معانى القصة ان في الدنيا احداثا يختلف ظاهرها عن باطنها يبدو
الظاهر مأساة على حين ينطوى الباطن على حقيقة الرحمة . او يبدو الظاهر
خاليا من العقل والتدبير يشي الباطن بالحكمة العميقة .
ولنتأمل - معا - هذه الاحداث الثلاثة في القصة كرموز ثلاثة ..
● ان السفينة التى خرفها العبد الصالح الغامض ترمز الى كل ما يملكه
الانسان ويحرص عليه من مآدبات الحياة ولقمة العيش .

● والفلام الذى قتل بغير نفس أو ذنب جناه يرمز لكل ما يقع على الانسان نفسه من ضرر إقصاء القتل .

● والجدار الذى اعيسد بناؤه كان رمزا عجيبا لما نتصور انه عبث أو لا معقول وهو فى حقيقته غاية الحكمة .

وهكذا تكتمل الرموز الثلاثة ..

ان الضرر الذى يصيب ما نملك ..

والدم الذى يسيل منا أو ممن نحب ..

والعبث الذى نراه فى الحياة حولنا ..

هذا كله وراء حكمة عميقة .. هى الرحمة الالهية الشاملة .. كل خراب

ظاهر .. أو موت ظاهر أو عبث ظاهر .. ليس كذلك فى حقيقته ..

الحقيقة أنه جزء من نسيج الرحمة الالهية ..

وأى انسان يصيبه شيء .. تخرق سفينة عيشه .. أو يقتل له طفل .. أو يموت له أحد ، أو يرى العبث يملأ الحياة حوله .. أى انسان يقع له شيء من هذا، فمأ عليه الا ان يذهب الى مجمع البحرين حيث ذهب موسى .. وليقف امام الآية الستين من سورة الكهف ليقف هناك ويبكى ما شاء الله له أن يبكى فالبكاء رقة فى القلب وحنو .. ولتسقط الدموع بملح الصدق فى مياه البحرين بملحهما .. وليركل بعد ذلك السفينة ويصاحب موسى والعبد ..

سوف يقرأ فى اسرار الموج عناية الله ورحمته سبحانه ..

وليس هذا العبد المدثر بالخفاء والسر سوى رمز من رموز الرحمة الالهية فهو عبد يتحدث عنه الحق بقوله تعالى :

« آتيناها رحمة من عندنا .. وعلمناه من لدنا علما » ..

.....

الرحمة الالهية معنى من معانى القصة ..

وفى الفصصة معان أخرى .. من معانيها ان العلم على الارض ثلاثة

انواع ..

اولها : علم البشر المعتاد الذى تكسبه بالجهد والتعلم .. مثل علم الصيد أو الزراعة .

وثانيها : علم الانبياء الذى يوحىه الله لانبياؤه بواحد من الطرق الثلاث التى حددها قوله تعالى :

« وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء » ..

وثالثها : العلم اللدنى أو علم الاسرار ..

والفرق بين العلوم الثلاثة هائل .. ولا مجال للمقارنة بينها ولا المفاضلة او ترتيبها حسب الأهمية ، يمكن ترتيبها حسب الظهور على مسرح الحياة .. لقد سبق العلم البشرى كل العلوم على الأرض ، وحمل هذا العلم نبى كريم هو آدم عليه السلام ..

فقد خلق الله تعالى آدم بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الاسماء كلها ، وامره ونهاه ، وتاب عليه حين عصى واجتبه .. قال تعالى : « **وعلم آدم الاسماء كلها** » ..

لم يقل سبحانه انه علم آدم الاسرار كلها ..

ومعنى تعليم الاسماء هو تعليم آدم هذه القدرة البشرية على استخدام اللغة والرموز ، هو تعليمه القدرة على الاشارة باللغة ، واستخدامها كرمز ، القدرة على البحث فى جميع العلوم البشرية .. وقد ورث ابناء آدم هذه المقدرة على البحث عن اسماء الاشياء ومعرفة طبيعتها واكتشافها .. وأول خصائص العلم البشرى هو الجهد والبحث ، وامكانيات الخطأ قائمة فى مجاله طوال الوقت يموت العالم فيكمل تجاربه عالم آخر ، ويسلم كل جيل معارفه للجيل الذى يليه ، وتمضى دورة البحث طالما أن فى الأرض انسانا ..

هذا اول انواع العلم ظهورا على مسرح الأرض ، وهو علم مركز فى فطرة الانسان . وهو اساس مبدئى كرم الله تعالى آدم بسببه ، وهو معيار

للتفضل الذى فضل الله به أبناء آدم على غيرهم من المخلوقات ، وحين سأل
الملائكة رب العرش سبحانه :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحميدك
ونقدس لك » أجاب الحق سبحانه :

« قال انى اعلم ما لا تعلمون .. وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على
الملائكة فقال أنبؤنى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين : قالوا سبحانه لا علم
لنا الا ما علمتنا انك انك العليم الحكيم » ..

نفهم من هذا ان ميزة النوع البشرى هى العلم .

ومعيار تفضيله هو العلم ..

ومبررات خلقه رغم افساده فى الأرض وسفكه للدماء هى العلم ..

وحكمة اسناد الخلافة فى الأرض اليه هى العلم ..

العلم بالاسماء ..

هذا كله أساس لا بد منه لتلقى علم الانبياء ..

وعلم الانبياء هو علم التوحيد ، وقد ظهر هذا العلم بعد علم الاسماء
على الأرض .. لقد علم الله تعالى الانسان ان يصنع رغيغ خبز ، وعلمه
ان يصطاد قوت يومه ، وعلمه ان له ربا واحدا هو خالقه سبحانه ، تقول
ان علم التوحيد ظهر فى رسالات الانبياء بعد نزول الانسان الى الأرض ،
والحقيقة ان هذا العلم ظهر قبل هبوط الانسان الى الأرض ..

يحدثنا الله تبارك وتعالى فى آية الميثاق انه اخذ العهد على أبناء آدم
بتوحيده والاقرار بربوبيته فأقروا .. وتم هذا وهم فى عالم الدر قبل
الخلق ..

« واذا اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم
الست بربكم .. قالوا بلى » ..

ومد بعث الله تعالى انبياءه ليعيدوا الخلق الى هذه الفطرة المروك
فى الأرواح والقلوب .

وعلم الأنبياء هو الشريعة التي يريد الله عز وجل من عباده اتباعها والسير طبقاً لدستورها ، وهو يختلف عن العلم البشرى في تنزهه عن الاجتهاد والبحث والجهد والخطأ ..

يحتمل هذا العلم تفسير المعاني والآيات ، ولكن اصوله لا تخضع للاجتهاد والبحث كالعلم البشرى ..

إذا كان علم الأنبياء هو علم الشريعة ، فان الشريعة هي الحقيقة كما هو معروف ، وليس هناك تعارض مطلقاً بين الشريعة والحقيقة ، ولو دققنا النظر في قصة موسى والعبد الصالح ، ونظرنا إليها من وجهة نظر الشريعة .. فسوف نرى ان الجزاء الذي وقع فيها كان متفقاً كل الاتفاق مع شريعة موسى ..

ان انقاذ اصحاب السفينة بخرق السفينة عمل طيب تجازى عليه الشريعة ..

وقتل الغلام الذي كان سيرهق والديه طفليانا وكفرا هو جزاء الشريعة ، فقد كانت الشريعة التي انزلت على موسى في التوراة تقضى بقتل من يقوم بعقوق والديه ..

اما بناء الجدار فأمر يتفق كل الاتفاق مع الشريعة .. فليس بناء الجدار خيراً يستعديه العبد الصالح للقرية الفاسدة ، انما هو ضرب لفسادها بمعنى من المعاني ، وهو منع لهذه القرية من سرقة كنز الرجل الصالح ، وصلاح الآباء يمتد الى الأبناء رحمة من الله في شريعة موسى ، كما ان عقوق الوالدين جزاؤه القتل في هذه الشريعة ..

لا خلاف بين الشريعة والحقيقة ..

ولا مفاضلة بين موسى والعبد الصالح ..

من سوء الادب ان نقول ان هذا افضل من ذلك .

احدهما اسناد .. والثاني تلميد .. هذا صحيح ..

ولكن أى استاذ وأى عبيد ..

الاستاذ يحمل اسراراً من الله والتلميد نبى من اولى العرم الكبار ..

وما يقوله بعض الصوفية الجهلاء من أن الأولياء أفضل من الأنبياء ،
امر يخرج القائل من الجدد الى المجنون والزندقة ..

ولو جاز لنا أن نفاضل بين من تعلم أكثر ومن يعلم أقل .. وقلنا ان
العبد الصالح أفضل من موسى . فسوف يجبر لنا هذا المنطق أن نقول ان
هدهد سليمان كان أفضل من سليمان .. فقد كان الهدهد محيطا بعلم لم
يحط به سليمان ، وكان يعرف أكثر مما يعرف سليمان عليه السلام ..
قال الهدهد لسليمان « أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبا
يقين » ..

نريد أن نبتعد عن هزل المفاضلة بين رجلين من رجال الله .. ونريد
أن نحسن الادب ونحن نتحدث في علم الشريعة وهو نفسه علم الحقيقة ..
ونريد أن نقول ان كلا الرجلين كانا قمة من القمم ..

احدهما كليم الله ونبيه ..

والثاني عبد اوتى من الاسرار ما اوتيه ..

ما هو علم الاسرار ؟ ..

تحدثنا القصة أن هناك علما من لدن الله ، علما مجهولا لولا هذه الاشارة
التي وردت بشأنه في القرآن لما عرفنا عنه شيئا ..

والواضح أن هذا العلم متصل بالاسرار موصول بالغيب ..

ان العبد الصالح يخرق السفينة وهو يعلم المستقبل .. ويعلم أن هناك
ملكا سيأخذها لو لم تتلف ..

وهو يقتل الفلام لأنه عندما يكبر فسوف يعذب والديه ويعقهما ، وهذا
مستقبل لم يقع بعد وغيب ..

وهو يبني الجدار في القرية لأن سر الماضي والمستقبل قد كشف له ، فعلم
أن تحت هذا الجدار كنزا ليتيمين كان أبوهما صالحا ، واليتيمان يعيشان في
قرية تشتهر بالصوص ..

نريد ان نقول ان هذا العبد كان يعرف طرفا من غيب الله عز وجل ..

والغيب شيء لا يعرفه سوى الله عز وجل ، ومن يشاء اطلعهم من عبادته عليه سواء كان هؤلاء العباد من الملائكة أو الأنبياء أو البشر قال تعالى « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول** » .. وليس الكشف عن الغيب متصلا بقدرة من يكشف الله له الغيب ، فان الجن رغم قدراتهم الهائلة وخفائهم لا يعرفون الغيب ، وقد مات امامهم سليمان عليه السلام فلم يعرفوا نبأ موته الا بعد ان اكلت نملة الخشب عصاه فخر على وجهه ..

انما يخضع كشمف الغيب لبعض العباد لقانون لا يعلمه سوى الله عز وجل هذا القانون هو مشيئته النافذة سبحانه ..

واحيانا يكشف الله طرفا من الغيب في كتب الأنبياء ، كما وقع في الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة الروم ..

« **الم .. غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفغلبون ، في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون** » ..

كانت هذه النبوءة كشفا لطرف من الغيب للمسلمين . وكان هذا الكشف يتم علائقية في كتاب الله المنزل الكريم .

احيانا يطلع الله عباده على الغيب علنا كما راينا في سورة الروم ..

واحيانا يطلع الله عباده على الغيب سرا كما حدثنا في قصة موسى والعبد الصالح .. وعلم الأسرار ، وهو جزء من علم الشريعة . وليس علما أعلى منه كما يتصور البعض ، هذا العلم غيب يسناثر الحق تبارك وتعالى به . ويمنحه بأقذار متفاوتة لبعض عباده ، تحقيقا لحكمة علما هي الرحمة ..

.....

هذه القصة التي وردت في القرآن الكريم هي النبع الأول للصوفية الاسلامية . هذا البحر الفامض البعيد المنطوى على الأسرار هو حلم الصوفية ..

ان موسى مسلم وجهه لله ، والعبد الصالح مسلم وجهه لله ،
وكل أنبياء الله تعالى وأوليائه مسلمون أسلموا وجوههم لله ..

وهناك علم يمكن ان ينكشف بنور يقذفه الله في قلب العبد اذا صفا
قلب العبد لله ..

والصوفية هم الذين صفت قلوبهم لله ..

ويتكرم الله عز وجل على اصحاب القلوب التي لا تشهد غيره ولا تحب
سواه بالمكاشفات والاسرار .. وربما منع الله تعالى او منح .. ربما قبض
علمه او بسط علمه .. مشيئته سبحانه وتعالى مطلقة نافذة ، والمنع والمنح
ليسا بسبب من جهد العباد وانما هما محض فضل من الله ..

وليست تجارب الصوفيين ومجاهداتهم الا تدريبات روحية لتصفية
القلوب لله .. وبعدها ينتظرون ان يفتح الله عليهم ببعض اسراره سبحانه .

هكذا ينظر بعض الصوفية الى القصة ..

.....

وانكار هذا النظر استبعاد وجود عباد يفتح الله عليهم ببعض اسراره ،
يعنى انكار آية من آيات القرآن ..

كما ان بسط هذا النظر على كل من يدعى الصفاء خطأ بالغ ..

لان علم الاسرار سر ..

ومميزات السر ان يحمله اقل عدد ممكن من القادرين ..

ونحن لا نعرف عدد عباد الله الذين يختصهم الله ببعض علمه وبعض
اسراره لا نعرف اين هم .. ولا من هم ..

ان الفارق الجوهرى بين العلم البشرى وعلم الانبياء ، وعلم الاسرار ،
هو الشيوخ والديوع ..

اذا انتشر العلم وذاع كان علما بشريا ، او علما من علوم الانبياء طبقا لنوعه
اما علم الاسرار فمن صفاته الكتمان والصمت .. لقد كان العبد الصالح
عنيفا مع موسى حين سأل ان يعلمه .. ولم يستطع موسى ان يصبر على
هذا العلم .. رغم كونه موسى ..

لقد ارسل الله تعالى موسى لفرعون وهو يعلم انه سيصبر على فرعون
ويهزمه ..

وارسل الله تعالى موسى لهذا العبد الصالح وهو يعلم انه لن يصبر عليه
وسيهزم صبره ..

ولو صبر موسى على العبد الصالح لعرفنا اسراراً كثيرة ..

ولكن الله تبارك وتعالى لم يشأ أن نعرف أكثر مما عرفنا ..

ولم يشأ سبحانه أن يعرف موسى أكثر مما عرف ..

معنى هذا أننا أمام علم لا ينكشف الا بقدر محدود ، ولا يمنح الا بحساب
بالغ الدقة ..

هذا العلم الذى يسمى اليه الصوفية بعد العلم البشرى وعلم الأنبياء
ولا يقوم الا بهما ، هذا العلم بالغ الصعوبة ..

وادعاؤه أمر رهيب ..

هى دعوى هائلة وخطيرة .. والدليل الوحيد على الصدق فيها هو
الصمت وكتمان السر ..

ولهذا قال بعض الصوفية « من تكلم خرج » ..

او قالوا « من أفشى السر هلك » ..

وسنرى مصداق هذا النظر نفسه فى القرآن ..

سنرى أن الكلام فى هذا العلم يخرج صاحبه من مجال الرؤية ان لم
يخرجه من هذا العلم اصلاً .. فى قصة موسى والخضر ..

حين خرج العبد من الصمت الى الكلام ..

خرج من مجال الرؤية .. اختفى تماماً ..

قال لموسى « هذا فراق بينى وبينك » ..

ولم يكد العبد الصالح يتحدث حتى خرج من آيات القرآن .. انطوى
عليه بحر كلمات الله عز وجل ودلف الى خفاء الخفاء ..

لم نره بعد ذلك ولم نصادفه ..

اذا كان التصوف كما نفتقد دعوى ، دليل صدقها الوحيد هو الصمت

.. فهذا يفلق الباب نهائيا امام التصوف .. واذن فما هذا الذى نراه من
انتاج الصوفية وكتبهم وأشعارهم وقصصهم ..

وإذا كان التصوف له أصل في القرآن ، فلماذا لم نسمع الكلمة في عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. وما هو التصوف أصلا ؟ ..

ولماذا لم يكن هناك صوفية في عصره أو بعد عصره ؟ ..

لماذا بدأ التصوف بعد ٢٠٠ سنة من رحيله الى الرفيق الأعلى ؟ ..

في بحار التصوف ألف سؤال وسؤال ، وألف غريب وغريب ، وألف
لؤلؤة ولؤلؤة ، وألف محارة فارغة ومحارة مليئة بطين القناع .. وثمة
حكايات لها العجب مثل حكايات الأساطير في ألف ليلة وليلة ، وبدلا من
قصص الجن وعجائبه سنجد قصص الأولياء وكراماتهم ، وهى أيضا
عجائب ..

وهناك احتمال قوى أن نفرق في هذا البحر لو لم تكن نجيذ السباحة
.. أو نستخدم أدوات الملاحة الصحيحة ..

نفرد أشعة الروح البيضاء ونبحر ..

ما دمنا نسبح في بحار القوم فلا مفر من استخدام أساليبهم في هذه
البحار .. ولا بد أن نبدا رحلتنا البحرية وأشرعتنا مفتوحة لكل الريح
القادمة من أبواب الكون ..

ونريد عقلا محايدا قبل كل شيء ..

لا نريد أحكاما مسبقة أو أفكارا جاهزة للحكم على التصوف قبيل
الخوض في أمواجه ..

سهل أن يقف المرء على الشاطئ ويفمض عينيه ويقول :

ليس هناك بحر ..

وأصعب كثيرا من ذلك أن يكابد الموج ويجرب السباحة أو يحاول
الوصول ..

سهل أن نقول أن التصوف بدعة .. أو كلام فارغ .. ولكن هذا
ليس حكما ..

لا يكون الحكم حكما الا اذا ملك ضمير قاض نزيه ، والقاضى لا يحكم
في الدعوى الا بعد النظر فيها وتامل الأدلة وامعان الفكر ..

نحن نبحت عن حقيقة التصوف ..

نحن اذن نبحت عن حقيقة ..

وكل انسان في الأرض يبحث عن حقيقة ..

والبحث عن الحقيقة يفترض حياد الباحث وتجرده ..

بعد رحلتنا قد نقف ضد التصوف .. وقد نقف مع التصوف ..

لا نعرف من الآن اى شاطئ سوف نرسو عليه ..

ولكننا عندما نفعل .. سنكون مدركين لماذا نقف على شاطئ الرفض
او شاطئ القبول ..

لنبدا رحلتنا بالأسئلة ..

ما هو التصوف ..

ما اصل الكلمة ..

وما معناها ؟

يقول الصوفى ابو تراب النخشى (متوفى سنة ٢١٥) الصوفى لا يكدره
شئ ، ويصفو به كل شئ ..

اى انسان هذا الذى لا يكدره شئ ، ويصفو من خلال عينيه كل شئ ..
ويصفو به الكدر ذاته ..

اى انسان هذا ..

اى قلب يحمله مثل هذا الانسان ..

هل هناك وجود حقيقى لمثل هذا المخلوق ..

يقول الصوفية ان هناك وجودا لهذا المخلوق . فمن صفات قلبه لله وساهد
حكيمته ورأى بديع صنعه لم يكدره شئ ، حتى الكوارث والآلام لا تخذل
صفاءه ، ومن وصل لهذا الحال صفا في عينه ملك الله . وصار اذا اخلط
بالحياة صفاء يضاف الى عكارتها ..

ولماذا نأخذ عن الصوفية .. لو أخذنا عن الفقهاء فسوف نجد أحمد
ابن حنبل يقول في سجنه أيام المحنة ..

- أنا جنتى فى صدري ..

وكان الناس يواسونه ويحاولون تهوين قسوة السجن عليه ، فافهمهم
انه ليس سجيناً إنما هو فى الجنة ، لأن جنته فى صدره ..

.....

ترتفع أمواج البحر ..

رغم أننا لم نزل على الشاطئ ..

صعب ..

الدخول على القوم صعب ..

ما هو أصل كلمة التصوف .. أصل الكلمة محل خلاف بين العلماء
هناك القائلون باشتقاق الكلمة من أهل الصفة الفقراء الذين كانوا ينزؤون
فى جانب من مسجد الرسول ويبيتون فيه لأنهم لا يملكون نقوداً يستأجرون
بها بيوتاً ..

وليس صحيحاً أن التصوف مشتق من أهل الصفة ..

أيضاً يختلف العلماء على الصفاء .. والصوف ..

فى العلماء من يقول أن التصوف لفظ مشتق من الصفاء ، ومنهم من
يقول أنه لفظ مشتق من ارتداء الصوف ولبس خرقة الصوفية وهناك من
يقول أن التصوف لقب ، وقد استعرض الدكتور أبو العلا عفيفى فى كتابه
« التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام » أكثر من خمسة وستين تعريفاً
للتصوف .. وقال بعد ذلك .

« كنا نطمع بعد دراسة خمسة وستين تعريفاً للتصوف أن نجد معنى
عاماً مشتركاً ينتظمها جميعاً ، ولكننا لم نظفر بهذا المعنى على وجه التحديد
ووصلنا الى معنى قريب منه » ..

وسر هذه الحيرة أن تعريفات التصوف شخصيه لحسد بعيد ، فكل صوفي يعبر عن حاله .. وأحوال الخلق الروحية تختلف مثلما تختلف أحوالهم في المعاش ..

وللقشيري رأى لطيف في تعريف التصوف انه لا يحاول أصلا تعريفه ويرى أن اسم التصوف لقب ..

« ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر انه كاللقب » ..

ومعنى كلامه ان التصوف لقب لا يسأل عن معناه او اشتقاقه كما لاحظ د. أبو العلا عفيفي ..

هذا معناه أن الصوفية يوصدون الباب حتى أمام من يسألهم عن معنى اسمهم .. وهذا دليل على أمر من أمور ثلاثة ، أما أن التصوف سر ، وإنما انه أمر خلقي بحت ، وأما أنه متعدد الجوانب كالفن الفنى ، وسوف نترك للقارئ أن يجد الجواب بنفسه .. ولننظر نحن في الموج محاولين قراءة الكتابات الكثيرة التى كتبها الصوفية على الماء ..

.....

ان بشر بن الحارث « الحافى » وقد لقب بالحافى لأنه خلع نعليه يوما وأسرع يجرى فى الرمضاء فلم يدركه احد . ان بشر الحافى بقول فى تعريف التصوف **« الصوفى من صفا لله قلبه » .**

مات بشر ببغداد سنة ٢٢٧ .

ان نجد قبل المائة الثانية من الهجرة تعريفات للتصوف ..

لم يكن التصوف معروفا كمذهب روحى له مدارس وتيوخه ..

كان الزهد هو المعروف ..

لهذا نجد معظم تعريفات التصوف بعد القرن الثانى للهجرة ..

فال معروف الكرخى (توفى سنة ٢٠٠ هجرية) .

« التصوف هو الأخذ بالحقائق والىاس مما فى أبدى الخلائق » ..

يريد معروف أن يقول أن التصوف أخذ ويأس في نفس الوقت .. أخذ لحقائق الآخرة ويأس من دنيا الناس .. والأصل اللغوي للدنيا هو الدنو والتدنى والتدنى ..

وإذا يرتفع معروف الكرخى عن الدنيا ويزهد فيها ، ويسلك طريق الأخذ بالحقائق ..

ويقول فريد الدين العطار صاحب كتاب منطق الطير :

« الصوفي من اذا نطق كان كلامه عين حاله فهو لا ينطق بشيء الا اذا كان هو ذلك الشيء » ..

تأمل قول الرسام العالمى الشهير فان جوخ - بعد ذلك بعشرة قرون - عندما أرسم زهرة .. اصير انا الزهرة ..

لاحظ أن معنى العبارتين واحد ..

فهل يكون التصوف فنا ..

سؤال نظرحه وننتظر قبل الاجابة عليه مزيدا من النظر . سئل سمنون المحب عن التصوف فقال ..

« الا تملك شيئا ولا يملكك شيء » ..

اليس هذا الكلام فنا فى حد ذاته ..

يحكى القشيري قول الصوفية « الصوفي ابن وقته » ..

اليس هذا تجسيدا لحال جميع الفنانين المتقلبين ..

فى تعريفات التصوف من يمت بصلة الى الفن ، وفيها ما يمت بصلة الى الحقيقة الدينية ، كقول رويم حين سئل عن التصوف فقال « أسترسال النفس مع الله تعالى على ما يريد » ..

وفى التعريفات ما ننتمى الى الزهد كقول أبى حمزة البغدادي وكان معاصرا للجنيذ « علاقة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الفنى ، ويدل بعد العزة ويخفى بعد الشهرة ، وعلاقة الصوفي الكاذب أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الدل ويشتهر بعد الخفاء » ..

وفى التعريفات ما سمي الى فلسفات معقدة فى التوحيد كقول أبى بكر

الشبلى (توفى سنة ٣٣٤) التصوف شرك ، لانه صيانة القلب عن رؤية الغير
ولا غير ..

يريد أن يقول ان التصوف لون من ألوان الشرك ، لانه يصون القلب
عن رؤية الدنيا .. وليس هناك غير الله .. الدنيا أو اللون لا وجود له
ولا قيام له وليس هناك الا الله .. يريد الشبلى أن يخترق ببصره المكونات
الى المكون ، والمصنوعات الى الصانع ، والخلائق الى رب الخلائق ..

وهذا تعبير آخر عن حالة الفناء أو وحدة الشهود ..

سنعثر على تعريفات عديدة للتصوف .. وهى تعريفات تتحدث عن
أحوال .. والأقوال عن الأحوال عادة لا يمكن فهمها الا اذا مررنا بهذه
الأحوال ..

ونحن نفضل البحث عن تعريف جديد للتصوف كتجربة روحية ..
وأرجح ما نراه أن التصوف هو فن الوصول الى الله ..

وربما أسفر هذا الوصول عن جذبة تعترى العقل فاذا العقل ذاهب
ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..

وربما أسفر هذا الوصول عن رؤيا فنية بالغة العمق والتعقيد كمذهب
وحدة الوجود .. وربما أسفر هذا الوصول عن عشق يدعو الى الجنون
فاذا الصوفى يصرخ « ما فى الجبة الا الله » .. واذا السيوف والنمال ترتفع
الى راسه ..

وربما أسفر هذا الوصول عن ثبات فى الدين وتمكن فى العقيدة .

اختلفت مصائر الصوفية كما اختلفت طرائقهم فى التدقيق وان جمع بينهم
جميعا خيط واحد ..

الحب ..

انهم يرون انهم يحبون الله كما لا يحبه احد ..

وهم يرون أن الحب نسيج اصيل فى الكون ، وسر غائر من اسراره ..

يقول الرازى ان الآيات الواردة فى القرآن عن الاحكام الشرعية اقل من

ستمائة آية ، وان البواقي في بيان التوحيد والنبوة والدعوة الى الله ..
والقرآن يذكر كلمة الحب وينسبها الى الله تجاه البشر ، وينسبها الى
البشر ازاءه سبحانه ..

قال تعالى على لسان خاتم رسله :
« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم »
ال عمران (٣١) .

وقال تعالى حاكيا عن موسى :
« والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني » سورة طه (٣٩) .
وقال تعالى مخاطبا عموم المؤمنين :
« ان الله يحب المتقين » سورة التوبة (٩) .

وقد فسر الامام الغزالي حجة الاسلام قوله تعالى : « والذين آمنوا
اشد حبا لله » فقال .. اثبت الله تعالى الحب ، واثبت انه يزيد عند المؤمنين
لقوله تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله
والذين آمنوا اشد حبا لله » سورة البقرة (١٦٥) .

وينظر الصوفية أساسا الى الحب كعنصر اصيل من عناصر الكون
وسبب هام من أسباب الخلق ..

يقول الله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ..
والعبادة قمة من قمم الحب وكمال من كمالاته ..

وقد فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة وقرا الآية هكذا وما خلقت
الجن والانس الا ليعرفون ..

والمعرفة لازمة للحب .. هي سبب الحب .. ومن عرف عن الله اكثر
احبه اكثر .. ومن لم يعرف عن الله الا القليل كان حبه على قدر معرفته .
ويتوقف الصوفية كثيرا امام قوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم
يحبهم ويحبونه » .

نريد ان نلاحظ ان الله لا يخوف الدين يرتدون عن دينهم بأن بلقيهم في النار أو يصب عليهم عذاب الجحيم بما فيه من نحاس مصهور ، نريد ان نلاحظ ان الله يخوف المرتدين بالحب .. بأن يستبدل بهم قوما يحبهم ويحبونه ، والارتداد عن الدين شرك ، والشرك فساد في العقل وهو أشرف ما في الانسان ، وكان الله تعالى يهدد اقصى الذنوب وأرهبها بأرق ما في الوجود وأعذبه وهو الحب ..

يقول جلال الدين الرومي ان كلمه « يحبهم » يعين كامل ، أما كلمة « يحبونه » ، فمن ذا الذي يصدق عليه هذا الوصف .

يشير الرومي كمادة الصوفية بانجاز الى معنى بالغ العمق ..
ان الحب عطاء وتكرم ..

والله هو الذى يملك العطاء وحده والكرم ..

والله هو الذى يحب حبا ..

اما كلمة يحبونه .. اما الحب البشرى .. فى ارفع صوره .. حتى لو كان موجها الى الله .. فماذا يستطيع ان يعطى ..

لا شيء ..

لو اعطى الانسان وقته لله ، فالوقت ملك لله اصلا .

ولو قدم الانسان كل ماله لله ، فالمال وديعة الله عند عبده .

ولو فرق الانسان جسده فى سبيل الله شظايا فهذا الجسد ملك لله ، هو خالقه من تراب ثم من نطفة .

لا يعطى الانسان لله شيئا .

لا يملك ان يعطى من معنى الحب سوى شاطئه .

اما الله عز وجل فهو المعطى الوهاب حقا ..

هكذا ينظر الصوفية الى العالم ..

انهم يرون الحب قانونا حاكما فى الوجود .. وسببا فى ميلاد الكون .

ونسيجا تشف به الحياة على رحابتها وجلالها .. وهم يرون ان الله قد خلقنا ليتفضل علينا بحبه ، ويتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه .. قال تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة » ..

هل يشتري الله عز وجل - رغم انه مالك كل شيء .. هل يشتري الا شيئا يحبه ..

ان الله تعالى يلفظ « اشترى » يقرب من اذهان البشر اهمية العطاء والعطاء هو اول عطر يخرج من شجرة الحب ..

اذا كان التصوف هو فن الوصول الى الله .. او هو من عبادة الله .. او هو حب الله تبارك وتعالى .. اذا كان هذا حقا فهل كان عصر رسول الله وعصر الخلفاء الراشدين اقل حبا لله من عصر المائة الثانية بعد الهجرة .. حيث ظهر التصوف ..

نريد ان نسأل لماذا لم يظهر التصوف في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

الجواب على السؤال يسير .. كان عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم اشد العصور حبا لله ، وكان الرسول اشد الخلق حبا لله لانه كان اعرف الخلق بالله ، ولقد تحدث الله تعالى عن ابي الانبياء ابراهيم فقال « واتخذ الله ابراهيم خليلا » .. ومعنى الخلطة شدة المحبة .. اما خاتم النبيين فقال الحق تعالى في حقه « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » .

واطلاق الرحمة عليه هذا الاطلاق يعنى انه اشد عباد الله حبا لله .. لان الرحمة اعرف بالرحمن الرحيم واحب ..

واذا .. تسقط دعوى حب الله حبا يقرب من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم او يساويه ..

لماذا لم ينشأ التصوف في عصره صلى الله عليه وسلم ؟

لم يكن التصوف قضية مطروحة في عصره كانت قضية قد استهلكت واستنفدت أغراضها .

يقول بعض الصوفية ان الرسول مر بتصفية النفس قبل ان يكون نبيا ،
فقد كان يتحنث في غار حراء ..

ونحن ننفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف تصفية النفس ،
لان نفسه كانت صافية ولا تحتاج الى صفاء لم يكن يتعبد لانه متعكر ، وانما
لانه متحير ، ولم يكن تحنثه في غار حراء هو سبب هبوط الوحي عليه ..

لم يهبط الوحي عليه لانه ارتقى في تجاربه الروحية حتى اوحى الله اليه
انما هبط عليه الوحي اصطفاء من الله واختيارا لا دخل له فيه ولا تطلعات
عنده اليه ..

قال تعالى « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » فنفي عنه انه
كان ينتظر الرسالة او الوحي او يدري عنهما شيئا او عن الكتاب او الايمان
اي القرآن والتكاليف الشرعية ، لم يكن التصوف قضية مطروحة في عصر
رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبب آخر .. ان تصفية القلب لله تعنى
السير على سنة رسول الله ، ولم يكن رسول الله قد انهى رسالته لتبدأ
التجارب الروحية بهدف تصفية القلب ..

**ايضا لم يظهر التصوف في عصر الرسول كفن من الفنون المعقدة لانشغال
المسلمين بما هو اخطر ..**

كانت هناك اعباء نشر الدعوة .. وهى اعباء فادحة ..

وكانت هناك المعارك الساخنة بين السيوف ، ومعارك الجدل القائم
في الاسواق والتجمعات .

وكان المسلمون يعبرون عن حبهم لله بالقتال في سبيله دفاعا عن الدعوة
اولا ، ونشرا لمبادئها ثانيا ..

كان الحب يأخذ شكل التعبير العملى ..

كان الحب عملا ..

لم يكن مجرد اقوال تقال في الليل .. والليل يدهن الكلمات بالزبدة .
فاذا طلعت عليها الشمس ذابت واسفر وجه الحقيقة ..

وكان طبيعيا ان تلد النزعة العملية لايام الاسلام الاولى . مع جهاف

الحياة وانشغال الأوقات ، كان طبيعيا ان يولد الزهد من هذا كله ..

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زاهدا بكل ما تحمله كلمة الزهد من معان حقيقية .

كان ينام على حصيرة في الأرض .. حتى لتترك الحصيرة آثارها في جنبه الشريف .. وكان يأكل فلا يشبع ، تهففا ان يأكل وفي أرض الله جائع ، وكانت عائشة من بيت غنى هو بيت أبى بكر ، وكانت تأكل في بيت أبيها افخر الأطعمة ، فلما صارت اما المؤمنين بزواجها من رسول الله قالت ((كنا لا نوقد النار ثلاثة أيام متتالية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل القديد (الخبز الجاف) وغموسه الزيت)) .

كان الرسول زاهدا فقيرا .. وقد شكته نساؤه يوما لانه لا يزيد في النفقة عليهن ، ولم ترتد بناته الذهب ولا لبست نساؤه الحرير ، وحين مات صلى الله عليه وسلم .. مات ودرعه مرهونة عند يهودى في طعام اشتراه لأهل بيته ..

هذا المحارب في سبيل الله دائما ، المجاهد في الله أبدا كان زاهدا وبدور الزهد موجودة في آيات القرآن .

« ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين » .

« وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب » .

« وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور » .

تأمل قوله عن الحياة انها لهو .. ولعب .. واللهو هو اللعب كما يتبادر الى الذهن .. ولكن هناك معنيين للهو ولعب ، وهما – باعجاز القرآن – معنيان يستغرقان حقيقة الدنيا وباطنها الأجوف .

ولقد فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات حق الفهم .. محارب لنشر الاسلام معرضا حياته للقتل ..

وفهم الصحابة قدر الدنيا فأثروا عليها الآخرة وعملوا في الدنيا ، لان الدنيا – رغم تفاهتها – هى الطريق الوحيد للآخرة ، وهو طريق هام وخطر رغم صمته اليسيرة ..

ايضا فهم التابعون معنى الزهد ..
وسيطر على المسلمين في السنوات الاولى للدعوة ، فهم حقيقى للدعوة
كان الجهاد هو رهبانية هذه الامة الجديدة ..

كان لليهودية رهبان ، وكان للمسيحية رهبان ، وكان للأديان رهبان ،
وكان هؤلاء الرهبان ينقطعون في الصحراء ويميشون في الأديرة ويتدارسون
في دينهم ويتجنبون الدنيا ويتأملون في الكون ، وكان للإسلام رهبان ايضا ،
ولكن رهبانا من لون جديد .. رهبان في الليل وفرسان في النهار .. وأحيانا
فرسان في الليل وفرسان في النهار .. فقد كان خالد بن الوليد يفاجئ
عدوه أحيانا في قلب الليل .. وكانت المعارك العسكرية تستغل اوقات
المسلمين سواء كانت ليلا أم نهارا ..

وهكذا كانت الايام الاولى في الاسلام .. كانت الفروسية والجهاد هما
رهبانية المسلم ..

روى عن رسول الله قوله « لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه
الامة الجهاد » .

وفي الايام الاولى للإسلام لم يكن الفرسان المعظم يجدون وقتا للتصوف
.. او اجراء التجارب الروحية .. كانوا مشغولين بالحرب والجهاد ..

وظلت الشعلة التي أوقدها الرسول صلى الله عليه وسلم تدفع المؤمنين ،
رانطلقت سيوف المسلمين تحطم أسوار الشعوب السجينة .. وتطلق الحرية
للمحرومين من الحرية ، وتفك السلاسل التي تكبل العقول ان تبحث
وتنطلق وتعرف خالقها الأحد ، ومرت أيام الله تعالى وانتقل رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى .. وحكم المسلمين بعده أبو بكر
الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم ولى أمور المسلمين عثمان بن عفان .
وقتل عثمان والمصحف في يده ونساؤه حوله .. وقتل علي بن أبي طالب
رابع الخلفاء الراشدين كرم الله وجهه ، واستمرت الفتنة الكبرى ..

وارتفعت سيوف المسلمين بعد ان جرها الصراع السياسى للذهبية
معاوية ، وسالت الدماء .. وتغير الوقت .. وولد التصوف من افكار عبدة
.. افكار ودماء وكلمات وقضايا ومواقف ..

وكان لا بد للتصوف أن ينبع منها ..
وقد نبع التصوف من مصادر عديدة ..
من حق الواقف أمام البحر أن يسأل نفسه .
كيف تولد البحار ؟

ومن أين تجيء كل هذه الأمواج والمياه والتيارات المائية وحركة الرياح ..
وما هي العلاقة بين الرياح والتيارات البحر وحركة دوران الأرض وحركة دوران النجوم والمجرات ..
نحن نعرف أقل القليل .

وان كان كبرياؤنا يصور لنا أننا نعرف الكثير ..
من بين ما نعرفه أن البحار تولد عادة من بكاء السحب ..
في البدء يصطدم سحب يحمل شحنة كهرباء موجبة ، وسحاب يحمل شحنة كهرباء سالبة ..

ومن الصدمة يولد البرق .. بعد ثوان من ميلاد البرق يرتج الأفق بصوت الرعد ..

ثم تسقط الأمطار .. تذيب قمم الجبال وتذيب معادنها وصخورها وتحفر مجاريها وتشق طريقها نحو البحر ..

يوما بعد يوم تعلو أمواج البحر ..
وكل الأنهار تجري الى البحر والبحر ليس بملآن كما تقول التوراة ..

.....

هذا تفسير علمي لميلاد البحار ..

وهناك تفسير آخر لميلاد البحار ..

تفسير غير علمي وغير موضوعي .. تفسير عاشق أخرجته السهر والوجد عن صوابه الى صواب أعمق . نفترض أن عاشقا مثل ابن الفارض يريد أن يفسر لنا ميلاد البحر .. يقول أكثر من أربعة أبيات من الشعر :

ابرق بدا من جانب الفور لامع

ام ارتفعت عن وجهه ليلي البراقع

انار الفضا ضاءت وسلمى بذى الفضا

.. ام ابتسمت عما حكته المدامع

ان ابن الفارض يعلم ان البرق يولد في السماء ، ولكنه -- بوصفه سلطان العاشقين -- يرى ان وجه الحبيبة او وجه الحقيقة هو البرق ..

وهو يرمز لهذا الوجه باسم ليلي ..

اي ليلي .. نحن نعرف ..

هل هناك ليلي فعلا ام انه يحترق الى الحد الذي نخجل ان نساله اين ليلاك ..

كل ما نعرفه ان هذه النار التي اضاءت هناك وسلمى جوارها .. كانت تشبه ابتسامة بكت فيها سلمى ..

انشر خزامى فلاح ام عرف حاجر

بام القرى ام عطر عزة ضائع

اختلفت الروائح على العاشق فلم يعرف مصدر هذا العطر .. لم يعرف كم قطرة من البنفسج وكم ذرة من الياسين وكم جزيئا من الفل .. لم يعرف هل جاء هذا العطر من خزامى .. ام من حاجر .. لم يعرف هل جاء العطر من المدينتين الشهيرتين بصنع ائمن العطور .. لم يعرف وان ادرك فجأة ان هذا عطرها هي ..

عطر عزة الضائع ..

لماذا ضاع عطر عزة من الحياة وظل في عقل العاشق ..

هذا سؤال خفيف فلا تساله للمحبين ..

تضيع الأشياء في دنيا الحب لأنها ينبغي ان تضيع .. ولو بقيت لما صار لها معنى سوى التطفل ..

يحب الشاعر حتى الآن ثلاث نساء -- اذا اخذنا كلماته بنص معناها -- وهو يحب امرأة واحدة اذا ادركنا مراده الحقيقي ..

في البيت الرابع سنراه يضيف اسما ..

الا ليت شعري هل سليمي مقيمة

بوادي الحمى حيث التيسم والع

٢ اسمها سليمى ..

حبيبته الرابعة عند الحمقى وقصار النظر ..

والحق ان الرجل ليست لديه حبيبة لانه يعدد الاسماء ، وما دام يعددها فهذا معناه انه يسبح نحو بحار أخرى تتجاوز الاسماء ..

نحن امام متيم والع . هذا نص كلماته .. والعاشق اذا احترق رفعت منه الجزية فاسلم ، وخرج عن نطاق الشرك الى التوحيد ، ولان القرية التى تحترق لا تطالب بشيء سوى ان تظل والعة وكذلك العاشق .. هو الاولى ان يظل مضيقا باشتعاله ..

.....

هذا تفسير عاشق لميلاد البحر ..

ان بحار الحب ولدت عنده داخل منطقة مجهولة فى عقله او فى قلبه .. او فى روحه ..

المنطقة مجهولة مرتين ..

مرة نحن لا نعرف هل هى فى قلبه ام فى عقله ام فى روحه ..

مرة ثانية نحن لا نعرف فى اى مكان هى فى هذا الجزء من الحياة المجهولة .. الغامضة ..

اى تفسير تحبون ان تناقش به ميلاد التصوف ومصادره .

اى اجابة تحبون ان تكتبها على الرمال عن سر ميلاد البحار عند الصوفية ..

.....

نسال شاعرا كان عاشقا هو الآخر ..

يقول محمد اقبال « ليس من الصواب ان نرجع كل ظاهرة تظهر فى احدى البيئات الى العوامل الخارجية .. فنهمل بذلك العوامل الداخلية ، ان اى فكرة من الافكار ، لا يمكن ان يكون لها سلطان على النفوس ، الا اذا كانت تمت لهذه النفوس بصلة ، والعوامل الخارجية تجيء لابقاظ هذه

الفكرة ، ولكنها لا تخلقها خلقا .. وعندما بحث المستشرقون في أصل التصوف ، ذهبوا الى ان مصدره هذا العامل او ذلك . وسسوا ان اى ظاهرة عقلية ، او تطور عقلى فى امة ، لا يكون لهما معنى ، ولا يمكن فهمهما الا على ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التى عاشت فيها هذه الامة قبل ظهور تلك الظاهرة » .

يقول د. ابو العلا عفيفى :

« بهذه العبارة الموجزة الرائعة لخص اقبال النقد الاساسى الذى يريد ان نوجهه الى المستشرقين فى نظرياتهم لنشأة التصوف .. وأشار الى الطريق الحقيقى لمعالجتها » ..

ما هو السر فى حماس الدكتور ابو العلا عفيفى وهو اساذ للفلسفة لرأى شاعر صوفى ؟

سر الحماس ان المستشرقين - او معظمهم - وقع فى خطأ مبدئى حين ناقش التصوف وبدا يبحث عن اسبابه ..

وتمثل هذا الخطأ فى أنهم لم يأخذوا بمنهج اختلاف المستويات وتعدد المصادر ..

قالوا ان هذا البحر ولد من هذه السحابة التى مرت من هناك .. ونحب - بادئ ذى بدء - ان نقول ان ارجاع التصوف لمصدر واحد أمر يفتقر كثيرا الى الدقة فضلا عن تجاوزه للصواب ..

وكل الآراء الاحادية النظرة ، او التى تعتقد ان هناك مصدرا واحدا لنشوء الأفكار ، كل هذه الآراء تقع فى اخطاء فادحة حين تقدم نفسها الينا فى بداية ابحائه ، لجأ المستشرق نيكلسون الى التعميم فقال ان التصوف بكل نظرياته اسلامى اساسه القرآن واتهم المستشرق القرآن بالاضطراب والاختلاف لانه وجد اضطرابا واختلافا فى نظريات التصوف ، وكان اضطراب منطقته هو السر فى حكمه الخاطيء ..

وقال المستشرق كريم ان الفضل فى نشوء التصوف الاسلامى يرجع الى الرهبانية المسيحية المؤسسة على الخوف من الله والرهبنة من الجحيم

.. وغفل كريمير ان القرآن يحتشد بمشاهد القيامة والجحيم وفيه مجال خصب لامكان التطور بما لا يخرج عنه ..
ولكى نحدد انفسنا ابتداء ..

نقول اننا لن نرجع لاحكام المستشرقين في امور التصوف .. لا بأس ان نقرأ ابحاثهم ، ولا بأس ان نعترف لهم بفضل اكتشاف كنوز التراث الصوفي ، ولكننا نؤمن بهذه النظرة العلمية الحرة التي اوردها الدكتور عبد القادر محمود في كتابه « الفلسفة الصوفية في الاسلام » يقول « لا انكر ان بحوث المستشرقين قد افادت البحوث الاسلامية رغم عمومية احكامها احيانا وتعصبها احيانا اخرى . ودقة بعض مفهوماتها في القليل النادر ، ولا شك ان بعد المستشرقين جميعا عن الروح الاسلامي عامل هام في كل هذا ، وبخاصة اذا ذكرنا ان دراساتهم للتصوف الاسلامي لم تبدأ الا في القرن التاسع عشر لأول مرة » ..
هناك عبارة خطيرة في رأي الباحث ..

« بعد المستشرقين عن الروح الاسلامي » ..

هذه العبارة هي المسئول الأول في رأينا عن تعصب المستشرقين وآرائهم الخاطئة وهذا السم الذي دسوه لنا في العسل ، وهذه الاحجار الزجاجية التي قدموها الينا باعتبارها قطعا من الماس الاصيل ..
ان التصوف الاسلامي ذوق وشهود .. وليس علما باردا يمكن ان يناقشه عالم يرى ببصره وان كانت بصيرته عمياء ..

من الصعب على الباحثين في التصوف الاسلامي فهم التصوف بغير تذوق له .. سواء كان هذا التذوق دينيا أو حضاريا أو أدبيا ..
فما بالك بمن لا يؤمن بالاسلام أصلا ..

والاصل ان الزهد هو الأب الشرعي للتصوف .. ونحن نعرف ان الزهد في العصر الاسلامي الأول لم يكن حركة من الحركات الدينية ، ولا مذهبا من المذاهب ولا نظاما جماعيا ، بل كان احساسا قلبيا بتفاهة الحياة وبساطة

الموت وهذه الرغبة في نشر الاسلام ..

والظاهر من سير بعض المجاهدين في الاسلام ، ان الجهاد كان يحظى بنفس النظرة التي التصقت فيما بعد بالزهد ، ثم انتقلت منه الى التصوف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **مرابطون الى يوم القيامة** » ..
واشار بكلمته الى ان الجهاد قائم طالما ان الحياة قائمة ..

غير ان الحياة اوقعت المسلمين في اكثر من ازمة .. وجاء على المسلمين وقت تراءفت فيه المحن فصار الزهد والبعد عن الاحداث هو افضل جهاد ممكن ..

وقعت الفتنة الكبرى في تاريخ الاسلام استجيت بدورها ان تظهر يوم انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى . وان احدث النبا اضطرابا هائلا في المدينة المنورة ..

اظلمت المدينة واطلم فيها كل شيء ..

وبكى المؤمنون وحى السماء الذى انقطع ..

وبكى المسلمون رحيل سيد الخلق وخاتم النبيين عن دنياهم ..
وكان السؤال المطروح يومها :

من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكم المسلمين ..

وحسم الموقف شخص ابي بكر وتاريخه . كان ابو بكر قد ولى الامامة الصغرى حين ام الناس في الصلاة بناء على طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض الموت ورغم معارضة عائشة فقد اصر النبي على امره ، وصلى ابو بكر بالناس ..

ولقد خشي بعض المسلمين ان يلى امورهم هذا الرجل اللين الدمث الذى يبكى اذا صلى حتى تخضل لحيته بالدموع . وتحول هذا الرجل فيما بعد الى سيف صارم من سيوف الله في الارض حين بدات ماساة الردة وحين مات ابو بكر رضى الله تعالى عنه عادت الفتنة تحاول رفع رأسها ثم حسم الموقف شخص عمر بن الخطاب وتاريخه ، وحشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هذا الرجل الشديد الذى يبطش اذا غضب ، وتحول هذا

الرجل فيما بعد الى رقة الحليم ، وحكم المسلمين حكما سيظل مثلاً أعلى لنزاهه الحكم الشرى ..

ورغم ان عمر بن الخطاب كان يحرك بأوامره جيوشاً فتحت دمشق ، واندحرت أمامها الفرس فى القادسية ، واندحر أمامها البيزنطيون فى اليرموك رغم ان جيوش عمر بن الخطاب فتحت مصر وفارس ..

رغم هذا كله ، لم يكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يملك حرساً خاصاً يستطيع ان يدفع عنه الخيانة اذا امتدت اليه الخيانة ..

ان غلاماً فارسياً هو أبو لؤلؤة فيروز ، كان يعمل فى المدينة فى خدمة حاكم الكوفة المفيرة بن شعبة ، جاء الى عمر بن الخطاب يشتكى اليه شيئاً . فلم بجبه الخليفة لانه رأى الحق ليس فى جاتبه ، فلما كان صباح اليوم التالى وانتهى الخليفة الى المسجد ليؤم المسلمين فى صلاة الفجر طعنه الفارسى بخنجره طعنيتين ..

وكان سؤال عمر بن الخطاب وهو يموت عن قاتله وسر قتله ، فلما عرف ان قاتله مجوسى وقد قتله لأسباب ليست عامة ، اطمأن باله انه مات على العدل فمات ..

وكان عثمان بن عفان هو ثالث الخلفاء الراشدين .. ولم يكن يملك مثل شخصية سلفيه العظيمين .. اتفق المسلمون عليهما واختلفوا فيه .. وقد وقعت فى عصره اخطاء ثبرته منها - تأديباً - ونسبها لمن حوله من معاونيه ..

فى العام الرابع والثلاثين من الهجرة النبوية انقض الثائرون على منزل الخليفة وقتلوا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه وهو جالس يقرأ المصحف فى هدوء ، وسال دم الخليفة على قميصه وسال على نسخة القرآن التى كان يقرأ فيها ..

ولعب قميص عثمان دور البطل بعد موته ..

وتداعت الاحداث وبدأت الفتنة الكبرى فى الاسلام . وحمداً لله انها لم تكن فتنة فى كتاب الامه الاسلاميه . وانما كانت فتنة سياسية تتصل بصاحب الحق الأول فى حكم المسلمين ..

وسالت دماء كل قطرة منها تكفى لملء الكون بحزن ثقیل فاجع .. قتل
على بن أبى طالب كرم الله وجهه بعد خمس سنوات من قتل عثمان ، وكان
ذلك فى مسجده بالكوفة وهو قائم يصلى ، وقد قتله رجل يدعى ابن ملجم
وكان معه مهرا لامرأة تسمى قطام .. وكان دمه مهرا لزواج معاوية من
السلطة السياسية وانفراده بحكم الدولة ..

بعد تسعة عشر عاما من قتل على بن أبى طالب فى الكوفة ، قتل
الحسين فى كربلاء واجتز القتلة رأسه الشريف وحمله الى يزيد بن معاوية
ابن أبى سفيان زوج هند آكلة كبـد حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم .
تمضى سفینتنا فى موج من الدم ..

سحاب من الفتن كقطع الليل يـمضى وراء سحاب .. والظلمة تشتد
وتتكاثف .

وثمة مواقف عجیبة ..

فتن تقف منها قوى متكافئة فى الفضل مختلفة فى الاتجاه والنظر
والآراء والمواقف ..

واقعة الجمل مثلا .. وقوف على ضد عائشة ..

((وتوقفت المعركة امام الجمل الذى كانت تمتطيه السيدة عائشة
أم المؤمنین وتستفز من على ظهره المقاتلین حسب العادة العربية العريقة ،
ولم تتم القلبـة لعلی الا بعد ان عقر الجمل الذى خلـع اسمه على هذه
المعركة)) ..

نفترض اننا كنا نعيش فى هذا العصر لای جيش كنا ننضم ..

هل ننضم لجيش على بن أبى طالب ونرفع السیف على عائشة ..

أم ننضم لجيش فىـه عائشة لنرفع السیف ضد على ..

ان علیا لا یقف مع الباطل ..

وعائشة لا تقف مع الباطل ..

والامتحان بالغ الصعوبة ، وافضل للمرء ان یجرر اقدامه نحو جبل
بعید ویهجر هذا كله وینزوى ..

وهناك امتحانات يكون النجاح فيها هو الهرب منها .. وهذا ما فعله
بعض المسلمين يومئذ ..

انسلخوا من الحياة العامة ، وهجروا المجتمع الذي راح يتناقش
بالسيوف والحراب ، وآثروا البعد عن لعبة السياسة الأموية القذرة التي
ارتدت قميص عثمان وطالبت بدمه وهى تفكر فى الحكم أولا وفى السياسة
أخيرا ..

وهكذا دفعت الأهوال والفتن كثيرا من المسلمين الى الفرار بدينهم
والزهد فى المساهمة فى الحياة العامة ، حتى ان جماعة من اهل بدر لزموا
بيوتهم واتخذوها منازل للأخرة .. فلم يخرجوا منها الا الى قبورهم ..
وفى المسلمين أيامها من عمد الى الصمت المطبق فمه .. روى الجاحظ أن
رجلا قال صحبت الربيع بن خيثم سنتين فما كلمنى الا مرتين خلال
العامين ..

سألتنى : أمك حية ..

وسألتنى مرة أخرى : كم فى بنى تميم من مسجد ..

فلما قتل الحسين بن على أتى قوم اليه فقالوا لنستخرجن منه اليوم
كلأما .. قالوا يا ربيع .. قتل الحسين ..

وجم الربيع .. ثم قال بعد فترة صمت « الله يحكم بينكم يوم القيامة
فيما كنتم فيه تختلفون » ..

كانت الفتنة سببا فى زهد البعض او صمت البعض كما رأينا والزهد
والصمت بذرتان من بذور التصوف ..

وقد القيت البذرتان فى أرض تصلح للزراعة ..

وعادت الأمطار تسقط ..

امطار أحيانا .. ودموع فى أحيان أخرى ..

ها هو بحر زين العابدين .. ابن سيد الشهداء الامام الحسين بن على
ابن أبى طالب ..

كان حزنه على أبيه عميقا ..

ولقد بكى الرجل رغم ان الرجال لا يكون ..
وقال يوما « فقد الاحبة غربه » .
وقد شرب اغترابه من حزنه على ابيه سيد الشهداء حتى ائمر وأينع
واصبح الاغتراب مقاما من مقامات الزهد ..
واصبح الصوفى كالغريب فى الدنيا لأنها ليست داره ..
وهذا اصل كبير من أصول التصوف .

اذا كان الصوفى مغتربا ، وكان الفنان مغتربا ، فهل ينطوى الصوفى
على شئ من الفن ؟ وهل التصوف فى حد ذاته فن ؟
ان الاجابة على هذين السؤالين أمر بالغ الاهمية .

.....

حين ولد التصوف منذ ١٢ قرنا ، لم يكن مفهوم الفن أو دور الفنان
قد اتسع وصار الى ما صار اليه اليوم من رقى وتعقيد .

كانت الاشكال السائدة فى التعبير الفنى منذ ١٤ قرنا (أيام البعثة
النبوية) هى رواية الاساطير وقول الشعر ..

وكان الكلام ينقسم فى لغة العرب الى قسمين .. نثر وشعر .
وفى بداية الدعوة الاسلامية ، اتهم الجاهلون رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه يروى الاساطير « وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملى عليه
بكرة واصيلا » سورة الفرقان .

واتهموه بأنه يقول الشعر « ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون »
سورة الطور .

واتهموه - صلى الله عليه وسلم - بأن الشياطين تنزلت عليه بهذا
الكلام المحير الذى يسميه القرآن ، فنفى عليه بهذا الكلام المحير الذى
يسميه القرآن ، فنفى الحق ذلك « وما تنزلت به الشياطين » . سورة
الشعراء .

وهذه التهم الثلاث تريد ان تضع الرسول في دائرة الفن .. وتخرجه من نطاق الرسالة .. وقد دحض القرآن الكريم هذه التهم جميعا وتحدث عن الفرق بين الرسالة الالهية .. والفن .

ورغم ان الشاعر كان يحتل في قومه مكانة ممتازة قبل بعثة الرسول ، ورغم ان قصائد الشعراء كانت تعلق على الكعبة ، « ومن هنا جاءت تسمية القصائد » « بالملقات » ورغم ان الشاعر بمثابة الذاكرة لقومه ، رغم هذا كله نفى القرآن عن الرسول قول الشعر ..

قال تعالى في سورة يس « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » .

وكلمة « وما ينبغي له » تعنى ان وصف الرسول بالشعر انتقاص من كماله صلى الله عليه وسلم .. لان المسافة بين الشاعر والنبي هي مسافة بين عالمين يختلفان كل الاختلاف ، من الشرف ان يكون المرء فنانا او شاعرا ، ولكن هذا الشرف اذا وجه الى الرسول كان تهمة وتقيسة بنزله الحق عنها .

وهكذا رد القرآن الكريم على كل ما وجه الى الرسول من اتهامات تتصل بالفن .

فيما يتعلق بأنه يروى الاساطير او يكتبها قال تعالى « قل انزلني الذي يعلم السر في السماوات والارض » سورة الفرقان .

وفيما يتصل بقول الشعر قال تعالى « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر » سورة الحاقة .

وفيما يتصل بالهام الشياطين واتصالها قال تعالى « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون » . سورة الشعراء .

.....

لا نعرف كم مر من الوقت حتى فهم العرب ان الكلام لم يعد ينقسم الى شر وشعر .. انما صار ينقسم الآن الى ثلاثة اقسام .

نثر وشعر وقرآن ..

والنثر والشعر اسلوبان بشريان للتعبير ، اما القرآن فكلام الله تعالى ، وهذا الامجاز الذى ينطوى عليه القرآن فى معانيه وصوره وموسيقاه الداخلية ، شئ يختلف تماما عن سحر الفن ..

لان الفن ابداع وتخيل ، واختراع ما ليس له وجود .. والشاعر يقول ما لا يفعل .. اما القرآن فحق كله ، وليس فيه اختراع ولا تخيل ، والرسول لا يقول الا ما يفعل .

هذا الفارق الجوهرى من الفن والدعوة ، او بين الشعر والرسالة ، هو الذى دفع القرآن - فى اكثر من سورة - الى تفهيم الناس حقيقة الامر ، وقد سمي الله تعالى احدى سور القرآن باسم سورة الشعراء .. والسورة من سور القرآن القصيرة ، ورغم ذلك فعدد آياتها ٢٢٧ ، والآيات تتركب من جمل قصيرة ، ورغم قصر الجمل فقد جاء تركيبها الالهى معجزا متحديا ، وكان الحق يقول للبشر جميعا ان القرآن ليس شعرا ، وليس نثرا ، اتما هو كلام الله تعالى ، وكما ان الله تبارك وتعالى ليس كمثله شئ ، فكذلك كلامه سبحانه ليس كمثله شئ .

.....

فى نهاية سورة الشعراء ، ينفى القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم اى شبهة فى اتصاله بالشعر او شياطين الشعر ، وينبئ الله تعالى عباده عن اتصال به الشياطين او تنزل عليه .

« هل انبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل افاك ابيم . يلفون السمع واكثرهم كاذبون » .

بهذه الآيات يفهم الله تعالى عبده ان الشياطين لا تنزل الا على قلوب الافاك الائمة . وان الشياطين يكذبون فيما يقولونه لاتباعهم من البشر . وان اباعهم من البشر يكذبون فيما يقولونه للناس . فالكذب متبادل والام متبادل .. ويمضى السياق القرانى فاذا نحن سنتفل انتفاله مفاجئة الى

الحديث عن الشعراء .. والنقلة ليست مفاجئة كما نظن . فقد كان شعراء العرب يرفعون ان لكل شاعر شيطانه الذى يلهمه باعظم افكاره الفنية جنونا .. واراد الله تبارك وتعالى ان ينفى عن رسوله الكريم هذه التهم السخيفة التى تجعله مرة خاضعا لشياطين الشعر ومرة لرواة الاساطير .

بعد ذلك يوقفنا القرآن الكريم امام حقيقة الفن بحديثه عن الشعراء ، ويرسم فى ثلاث آيات قصيرة صورة للملامح النفسية للشعراء والفنانين عموما .. ويحدد الفروق الدقيقة بين الشعر والرسالة .. ويحدد الفروق بين طبيعة الفن وحقيقة الدعوة الى الله ..

يقول تعالى : « **والشعراء يتبعهم الغاؤون** » .

هناك من يتبع الشعراء .. هناك سر خاص او سحر خاص فى كلام الشعراء يجعل الناس يتبعونهم .. ان الشعر فن ، واى فن لا بد له من جمهور ، وللشعراء جمهورهم .. والذين يتبعون الشعراء عادة هم الغاؤون .. فمن هم الغاؤون .

اطلق اللفظ قبل ذلك على آدم حين عصى ربه . قال تعالى « **وعصى آدم ربه فغوى** » ثم اجتباه ربه فتاب عليه **وهدى** » . سورة طه .

لم تكن غواية آدم خطيئة لا تفتقر ، انما كانت انقيادا من آدم واستماعا لاحلام الشيطان ووعوده ونسيانا لاوامر الله الا يقرب هذه الشجرة ، وحين وسوس اليه الشيطان « **هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** » سورة طه ..

هذه الوسوسة كانت عملا فنيا ، بمعنى ان ابليس رسم صورة متخيلة من عنده ، اخترع شيئا لا وجود له فى الحقيقة واقنع به آدم ، وكان ابليس يكذب وهو يؤلف هذه القصة ، ولكن تصويره كان مقنعا الى الدرجة التى جعلت آدم عليه السلام ينقاد لهذه الصورة ويصدقها ..

كان ابليس اول فنان بصادفه آدم .. وبسبب قصته عن شجرة الخلد كانت غواية آدم .

من هذا المنطلق نفهم كيف يتبع الغاؤون شعراءهم .

ان الشاعر يرسم صورا متخيلة ليست هى الواقع . صورا لها مذاق الحلم . ويتبع الناس هذه الصور غير الحقيقية التى يجدون لها طعما اجمل من طعم الحقيقة .

ويمضى سياق الآيات فى سورة الشعراء فيحدثنا الله تبارك وتعالى عن صفة اخرى من صفات الشعراء والفنانين .
« ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » .

هذا الهيام فى الأودية صفة اساسية من صفات الفنان .. وهو تصوير فنى مبجز لحقيقة الفنانين والشعراء ..

ينتقل الشاعر من واد الى آخر ، هل يعنى ذلك انه ينتقل من مكان جغرافى الى مكان جغرافى آخر .. هذا متضمن فى المعنى .. والى جوار هذا المعنى تتضمن الصورة انتقالا من تجربة الى تجربة ، ومن مستوى الى آخر ، ومن معاناة الى معاناة اخرى ، ليست الأودية اذا مقصورة على الاماكن الجغرافية ، انما يمتد المعنى ليشمل مستويات من التصوير الفنى ، ويشمل مستويات من الابداع الفكرى ، وبهذه الآية يحدد القرآن صفة الفنانين بالقلق أحد الملامح النفسية البارزة للفنان ..

ان التنقل والتغير والملل السريع والقلق من صفات الشعراء والفنانين ، بينما الثبات والاطمئنان والسكينة من صفات الانبياء والداعين الى الله ..
ويمضى السياق القرآنى فيورد اهم صفة من صفات الفنانين أو الشعراء
« وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

وبهذه الآية المعجزة ، ينسف الحق عز وجل ادعاءات الجاهلين بأن الرسول شاعر ، ويضع معيارا للفرقة بين الرسالة والشعر ، كان العرب يقولون « اعدب الشعر اكذب » ، اشارة الى ان الفن ليس نقلا تصويريا لحقيقة الواقع ، فهناك لون من ألوان الكذب الفنى فى الفن ، اما الكذب فامر مستبعد تماما من الرسالة ، واذا كان التخيل والاختراع يعتبران موهبة عند الفنان ، فانهما نقیصة عند الداعية الى الله ، نقیصة يبرؤه

الحق منها ..

واذا كان الشاعر يقول ما لا يفعل ، فان قول الرسول هو فعله ..
 وائى رسول هو الفعل المجسد لكلمات الله ، ويدعو الرسول الى المثل العليا
 بشخصه بل ان شخصه يكون هو المثل الأعلى لمعاصريه ومن يأتى بعدهم ،
 وأفعال الرسول مطابقة لأقواله تماما ..

أما الفنان او الشاعر .. فمن ذا الذى يستطيع الزعم بأن قوله هو
 فعله ؟

يدعو الفنان او الشاعر عادة للجمال والخير والحب والفضيلة ، ولكنه
 لا يستطيع أن يكون بشخصه وأفعاله وذاته نفس ما يدعو اليه ..
 قد يكون هناك انفصال بين فن الفنان واسلوبه فى الحياة .
 قد يكون هناك فرق بين القول والفعل عند الفنان او الشاعر .

ليس القول عند الفنان هو الفعل كما هو الأمر بالنسبة للدعاة الى
 الله نتأمل هذه الاشارة الالهية اللطيفة التى ترسم صورة لأحلام الفنان
 العالية ، وقصور شخصيته عن بلوغ ما يدعو الناس اليه .. « **وانهم
 يقولون ما لا يفعلون** » .

هل يعنى هذا أن نخرج الشعراء - كرمز للفنانين - من خيمة الاسلام
 .. هل يعنى هذا أن الاسلام يقف ضد الفنون .

يقول الله تعالى فى نهاية الآيات فى سورة الشعراء « **الا الذين آمنوا
 وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا** » .

هناك استثناء فى لفظ « **الا** » ..

واذن تتسع خيمة الاسلام للشعراء المؤمنين الصالحين الذاكرين ..
 وتتسع للفنانيين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا .. وقديما
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اصدق شعر قالته العرب قول لبيد
 « **الا كل شئ ما خلا الله باطل** » .

.....

أىكون الصوفىة هم الفنانون المؤمنون فى الاسلام ؟
لقد فهمنا مكانة النبى ووضوع الشعراء ..
وعرفنا الفرق بين ثبات الدامىة الى الله وقلق الفنان وتحولاته ..
وعرفنا صدق الدامىة الى الله وشطحات الفنان واضافاته الوجدانية
وتريد الآن ان نسال ..
لماذا نرى معظم تراث الصوفىة ادبا من ارفى الوان الادب واعقدھا ؟
لماذا كان معظم الصوفىة شعراء ، وكتابا ، وحكماء .. ؟
لماذا نحس ونحن نقرا للصوفىة انهم قوم يعانون معاناه بالغة تشبه
معاناة الفنانين ؟
لماذا شطح بعض الصوفىة شطحات تشبه شطحات الفنانين ؟
هل ينطوى الصوفى على شىء من الفن .. ؟
وهل التصوف فى حد ذاته فن ؟
لن نجيب على هذه الاسئلة الآن ، انما سنترك للقارى ان يجيب
عليها بنفسه خلال ابحاره معنا ..
فقط .. نريد ان ننعش ذاكرة القارى بتصويرنا عن وجوه الشىء
ووجوه الاختلاف بين الصوفى والفنان ..
اول شىء يتفق فيه الصوفىة مع الفنانين ان كل واحد فيهم يملك
رؤياه الخاصة .. ويحس بالاغتراب عن مجتمعه .. والاحساس بالغربة
اصل كبير من اصول الفن ، واصل كبير من اصول التصوف ، وقد كانت
غربة « على زين العابدين » رضى الله تعالى عنه نبعا شرب منه كثير من
الصوفىة فيما بعد ..
وليست مصادفة ان التصوف نشأ بعد القرن الثانى للهجرة ، ولقد
كان مرور الوقت ووقوع الفتن ارضا ولد فيها الاحساس بالغربة ، وبدأت
علامات الاستفهام تولد على سطح الحىة .. ما هذا الذى يحدث ؟

ما هذه الدماء التي تراقى .. ؟

لماذا يموت من نحب أو يقتلون ؟ لماذا تقتل البراءة والتقوى بغير ذنب سوى البراءة والتقوى ؟

وينفوس في نفس الإنسان احساسه بالغربة .. بالابتعاد .. وبخاصم الإنسان الواقع الكائن .. ويتعد الصوفى برؤياه عن الواقع المضطرب .. وكذلك يفعل الفنان ..

ان الفنان انسان يخاصم الحياة ، ويريد تجاوز الواقع الكائن ، ولا يبدع الفنان اذا كان راضيا كل الرضا عن الحياة ، ليس هناك فن بشرى بمعناه الأرضى فى الجنة ، لان الجنة كمال مطلق والفن لا ..

لا يمارس العمل فى كمال مطلق ، وكذلك التصوف . فى عصر الرسول وعصور الخلفاء الراشدين لم ينشأ التصوف لوجود الحد الأعلى من الكمال .. وبعد ذلك نشأ التصوف كمحاولة لتكملة هذا النقص الذى وقع لصورة الكمال .

وهدف الفنان النهائى هو تجاوز الواقع واستكمال النقص فى الحياة وإاداته هى التعبير الفنى المعقد المركب ..

أما هدف الصوفى فهو الوصول بتجاربه الروحية الى الله ، وأحيانا يعبر الصوفى عن نفسه بالشعر أو الحكايات الرمزية أو النثر الغامض والرموز ..

ومن الخطأ البالغ أن نتناول تعبير الصوفية الأدبى سواء كان شعرا أو نثرا ، لنناقشه بمنطق الدين .. هنا يمكن أن نخطئ كما أخطأ القدماء ..

ادعى الى الدقة كثيرا أن نناقش انتاجهم الفنى بمنطق الفن ..
إذا كانوا يتحدثون فى الأحكام الشرعية .. فهذا دين ..
وإذا كانوا يجتهدون فى الفقه .. فهذا تفسيرهم للفقه ..
وإذا كانوا يتحدثون بالشعر عن حب لىلى وعزة ، فهذا فن عظيم
نناقشه بمنطق الفن .. ونرى هل هو فن عظيم حقا أم ان هذه دعوى ؟

ولقد كان خطأ المستشرقين أنهم ناقشوا التصوف كدين ، وحسبوه على الدين .

ولما كان التصوف « حالة » ، وكان في الصوفية آلاف الحالات ، فمعنى هذا ان الدين سيخرج من ثبات الحقيقة الى اودية الحالات الفنية المتغيرة وهذا ما لا يرضاه أحد ، أو يقبل به منصف .

وهكذا يظل الصوفي تحت خيمة الاسلام ، ونعتبره داخلا في مجال الاسلام طالما كان داخلا في اطار الكتاب والسنة ، فان خرج الى ميدان الفن الفسيح ناقشناه بمنطق آخر ..

نضرب مثالا لتوضيح فكرتنا .

اذا قال العاشق المتيم قيس بن الملوح لنا « من فرط ما أحبت ليلي صرت أنا ليلي .. أحملها في قلبي وروحي .. ان ليلي هي روح روحي » .

لو قال قيس بن الملوح هذا لنا فماذا نقول ردا على جملته ..

هل نتهم انفسنا بعدم الفهم ام نتهمه بالجنون ؟ اختار معاصروه اسهل الطرق واتهموه بالجنون وذاع اسم شهرته فلم يعد يعرف الا به .. ذلك ان دعوى العشق لا يجوز عليها التصديق والقبول ، ولا يجوز عليها الرفض والاستبعاد .. طالما اننى لست أنا العاشق ..

لو كنا عاشقين فقد نفهم ميسا .. ولو لم تكن عاشقين فسوف نتهمه بالجنون .. (الا يقولون من ذاق عرف ؟) .

بماذا تعلق على أبيات الشاعر التى يقول فيها :

ينادى المنادى باسمها فاجيبه وادعى فليلي عن ندى تجيب

وما ذاك الا أنا روح واحد تداولنا جسمان وهو عجيب

كشخصه اسمان والذات واحد باى تنادى الذات منه تصيب

ان الشكل الذى قدمت لنا به الفكرة هو الشعر .. والشعر فن .. ليس هذا فنا رفيعا ..

والمضمون الذى يريد الشاعر توصيله وهم يتصور فيه اتحاده بليلى ، واتحاد البشر مفهوم ومعروف . وهو مستحيل ان يقع بهذه الصورة التى يتحدث عنها الشاعر الا للحظات ..

وبالتالى نسقط دعوى الاتحاد مع الخالق ، ويصير صرف ليلى الى الحقيقة الالهية فكرة مستبعدة ومرفوضة ..

غاية ما يمكن ان نفهمه من الشعر ان الشاعر يحب الله حبا لا يرى فيه نفسه ..

وقد عبر عن هذه الصورة بهذه الأبيات الشعرية .. وهى فن يمكن نقده وتحليله ، وليست ديناً يمكن اضافته الى الاسلام ، ومحاسبة الاسلام عليه كما يفعل بعض العلماء المفرضين والمستشرقين .

لا ننكر ان فى التصوف جزءا من الفن ..

ولا ننكر ان فى الفن العظيم جزءا من التصوف ..

والفن موهبة يمنحها الله لبعض عباده ، وشأنها شأن بقية المواهب امتحان يرى الله تعالى فيه أين يضع الانسان موهبته .

والصوفى كالفنان فى جزء من تركيبه النفسى .. فهو يملك قدرا من الحساسية البالغة والحدس العميق ، ويملك رؤياه الخاصة به ، ويملك قدرة على التعبير لا يملكها العابد فحسب .

ومثل الفنان .. يحلم الصوفى بتجاوز الواقع الظاهر لما هو أعمق وأخفى ، ويحب أن يضيف الى الكون جمالا لم يكن فيه قبل أن يولد ، وقد يصطدم الصوفى كما يصطدم الفنان بمجتمعه ، وقد ينتصر المجتمع على الصوفى أو الفنان فينفيهما فى الأرض أو تقيلهما .

ويتشابه الفنان والصوفى فى اعتمادهما على التجربة وصولا بفنهما الى الدروة ، وإذا كانت تجربة الفنان تستوعب الجسم والروح ، فان تجربة الصوفى تعتمد على الروح أكثر من اعتمادها على الجسد ، يخطئ الفنان ليعبر عن الخطيئة . أما الصوفى فهو يسأل فحسب عن الخطيئة لكيلا يقع فيها .

وقد حدد لنا حسن البصرى هذا المعنى العميق حين سئل :

يا أبا سعيد .. انك تتكلم فى هذا العلم (الزهد) بكلام لم تسمعه من

احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أين أخذه ..
قال : من حديفة بن اليمان حين قال : كان الناس يسألون النبي صلى
الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة ان أقع فيه ،
وعلمت ان الخير لا يسبقنى ، وعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير .

.....

ايضا يتشابه الصوفي والفنان في أن كليهما يقتات على الحب ..
وهنا يختلف الصوفي من الفنان في موضوع حبهما ، وان اتفقا في كثير
من التعبيرات الأدبية والفنية ..

فالفنان يسكر من رؤية الحبيبة ماديا ، وهو يترب الخمر في صحتها
وينتشي بما يحس ويقول انه هي وأنها هو ، وكذلك يفعل الصوفية ،
يستخدمون نفس المصطلحات كالكأس والشراب والوجد والسكر
والصحو ..

الفرق بين الفنان والصوفي ان الفنان يحب حبا بشريا ، ويتعلق قلبه
بالبشر . ويريد الفنان اذا عشق ان يرى صورته في عين من يحب ، والفنان
يحب نفسه ويحب قدرته على الحب ويحب الحب قبل ان يحب الحبيبة ،
واخطر ما يريده الفنان أن يكون محبوبا ..

هذا اقل آماله .. واعظم آماله أن يكون معبودا .

اما الصوفي فله وجهة نظر اخفى وارقى من وجهة نظر الفنان ..

يقول جلال الدين الرومي « ليس لكل أحد أن يكون محبوبا ، فانه
يحتاج الى صفات وفضائل لا يرزقها كل انسان .. ولكن لكل انسان أن
ياخذ نصيبه في الحب وينعم به .. فاذا فاتك يا سيدي أن تكون محبوبا ،
فلا يفتك يا عزيزي أن تكون محبا .. وان لم يكن من حظك أن تكون
يوسف .. فمن يمنعك أن تكون يعقوب .. ولو عرف المحبون ما ينعم به
العشاق المتيمنون ، لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء
الى صف المحبين البؤساء » .

الست ترى أن الصوفي اشد تواضعا من الفنان ..

الست ترى ان الصوفى يحب ان يكون محبا.. اما الفنان فيحب ان يكون محبوبا ..

وعلى حين يؤكد الفنان ذاته فى الحب عن طريق تضيق هذه الذات .
يضيق الصوفى ذاته فى الحب .. وبضياغ هذه الذات لا تبقى الا ذات
المحبوب وحده ..

ذات الخالق وحده ..

ولان الفن يختار رجاله عادة من ذوى المشاعر العنيفة والحساسية
العميقة ، نرى الفن يمتزج عادة بلون من ألوان المغالة والتزيد والجنون ،
واحيانا نرى فى التصوف مغالة وتزيدا ، واذا كان قيس بن الملوح مجنونا
فى نظر المجتمع لانه احب ليلى كل هذا الحب ، فان المجنون فى نظر نفسه
كان هو العاقل الوحيد وكل الناس مجانين ، اما اذا نظر الصوفى لقيس
ابن الملوح فسيراه مجنونا لانه ذهب الى صورة ليلى ولم يذهب الى المصور
البارئ ..

ذهب الى ليلى فملذته ليلى حتى فقد عقله ، ولو ذهب الى الله وفقد
عقله لكان له شرف البهت والتحير والمجنون فيمن يستحق باعجازه البهت
والتحير ..

.....

واذا كان التصوف بحارا غريقة وجزرا وعرة .. فان افضل تمييز
للتصوف هو تقسيمه الى قسمين :

**التصوف الايجابى والتصوف السلبي .. او التصوف الاسلامى
والتصوف الفنى .**

ومعيار التفرقة هنا هو الكتاب والسنة ..

ما كان محكوما باطار الكتاب والسنة ، كان تصوفا اسلاميا ،
وما خرج عنهما كان فنا يخضع لمقاييس الفن وقيم النقد ، ولم يعد يلزم
الاسلام فى شئ .. لان الاسلام هو الكتاب الذى انزل علينا .. هو
القران وما تواتر من السنة .. وما عدا ذلك من زيادة .. افكار ليست
هى الاسلام ولا تحتسب عليه ..

وسوف نرى ان فى التصوف رجالا كانوا هم التصوف الايجابى وحده ،
وسنرى رجالا يمتزج فيهم التصوف الايجابى بالتصوف السلبى ..
وسنرى الصوفية السلبين .

سنرى ان ذهن الانسان تمتزج فيه آلاف الافكار ، ورغم هذا كله ،
فان هناك بوصلة نستطيع اذا نظرنا فيها ان نعرف هل نبحر فى الاتجاه
السليم نحو الحقيقة ..

ام نمضى نحو الفرق فى عواصف البحار ..

نحسب ان الوقت قد حان للحديث عن مصادر التصوف وتفسيراته
ورجاله ..

كان الزواج القاسى بين الزهد والتأمل وظروف المجتمع الاسلامى
الداخلية والخارجية هو المسئول عن ميلاد التصوف بعد ٢٠٠ سنة من
هجرة الرسول .

ونحن نرفض تصديق دعوى المستشرقين التى ترى ان التصوف بع
من مصدر واحد ، ونرى انه نبع من اكثر من مصدر ..

الاول : بعض آيات فى الكتاب الكريم ..

الثانى : ما عرف عن الرسول من زهده وتأمله .

الثالث : التأثيرات الداخلية التى وقعت فى المجتمع الاسلامى فى المائتى
سنة الاولى من الهجرة (كالفتننة وعلم الكلام والاتجاه العقلى الذى استتبع
رد فعل وجدانى) .

الرابع : التأثيرات الخارجية التى وفدت على العقل الاسلامى نتيجة
احتكاكه بالفلسفة اليونانية وتجارب الامم الروحية والعقلية التى خضعت
للاسلام .

وقد قيلت نظريات كثيرة فى اصل التصوف ..

قيل ان التصوف تعبير عن الناحية الباطنية فى الاسلام ، وهذه هى
دعوى الصوفية انفسهم .. اذ يعتبرون انفسهم ورثة الرسول فى العلم ،
ولما كان الانبياء لا يورثون مالا ، فانهم يورثون العلم ..

وسنرى في هذا المجال ان بعض الصوفية حملوا آيات القرآن ما لا تحتمل ، وفرضوا عليها أهواءهم فرضا ، واستحلوا لأنفسهم أن يفسروا بعض الكلمات القرآنية تفسيرا. يستحيل أن تحتمله . . مثل تفسير الصوفية من الشيعة لقوله تعالى « **مِرْج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأى آاء ربكما تكذبان** » قالوا ان البحرين هما على وفاطمة ، أما اللؤلؤ والمرجان فهما الحسن والحسين . وهذا تفسير يعتسف المعنى ويفرضه على النص القرآنى . .

وقيل ان التصوف رد فعل للعقل الآرى ضد دين سامى فرض عليه فرضا . وتهافت الدعوى واضح ، وقيل ان التجارب الروحية للهند اثرت على المسلمين ، وقيل ان التصوف الاسلامى نتاج فارسى فى نشأته وتطوره ، لان عددا كبيرا من الصوفية من اصل فارسى . . وهذا كله كلام يلقى على عواهنه ، وسواء قيل ان اصل التصوف هو الهند او فارس ، فان الثابت ان اصله اعقد من ان يكون ناشئا من سبب واحد . .

وسنرى كلما ابحرنا فى بحار القوم ان مصادر الموج الهائج اعقد من ان تنسب الى سبب واحد أو سحابة واحدة أو تأثير واحد .

.....

فى البدء . .

كان بحر الخوف من الله تعالى يمتد فى روح المسلمين . .

وكان الحياء الخائف من الله تعالى هو أسبق العناصر تأثيرا فى المسلمين . . يقول الله تعالى فى سورة فاطر « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » . . وبهذا التخصيص يجعل الله تعالى خشيته برهانا على العلم ودليلا عليه وتسير آيات القرآن فى هذا الاتجاه .

يقول تعالى فى سورة البقرة « **يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** » .

ويقول تعالى فى سورة النساء « **ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله** » .

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن مناسك العبادة وشعائر الحج وذبح
الأضحية فيلفت الانتباه الى حفيظة جوهريّة في سورة الحج « لن ينال الله
لحمهما ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » .

نتأمل معاني الآيات :

في سورة البقرة يحدثنا الله عن هدف الخليفة الانسانية ، فيقول
سبحانه ان الهدف هو التقوى .

وفي سورة النساء يشير القران الكريم الى ان وصية التقوى الموجهة
الى المسلمين هي نفسها رصية التقوى التي وجهت قبل ذلك الى الذين
اوتوا الكتاب .. وهذا معناه ان الوصية قديمة يرجع تاريخها لنشأة النوع
الانساني .

وفي سورة الحج يقول الحق للحجيج ان دماء الأضحية ولحمها لن
تذهب الى الله ، انما سيذهب الرمز المختبئ في شعائر العبادة .. وهو
التقوى ..

وبهذه الآيات كلها ينكشف لب الاسلام عن جوهر التقوى . والتقوى
تعنى الخوف من الله تعالى والحياء منه ومراقبته في كل حال .

وبسبب أهمية التقوى البالغة .. يجعلها الله تعالى هي معيار الفضل
الوحيد .. وهي معيار الكرم الوحيد ..

قال تعالى في سورة الحجرات « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ..

لم يفل الله سبحانه ان اكرمكم عند الله اغناكم . ولم يقل اعلمكم .
ولم يقل احملكم ولا افضلکم حسباً ونسباً ، انما قال شيئاً يتجاوز هذا
كله . ان تصورات البشر وموازنهم تجعل الاولوية للثراء والعلم والجمال
والحسب والنسب والسلطة والرئاسة ..

ولم يكن الحق يتحدث في سورة الحجرات عن موازين البشر ..
فال تعالى : « ان اكرمكم عند الله » ..

منه مستوى اخر خلف سما عن موازين البشر وتصوراتهم ..

امام مستوى الالهية الجليل ..

نقيس الله عز وجل كرم الناس بتقواهم لله ..

التقوى هي المعيار عند الله .. وهي وحدها التي توضع في الميزان ،
وهي وحدها التي تهيم .

هذا التتويج للتقوى اثر في قلوب المسلمين الأوائل ، فقد كانوا يتلقون
من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان الرسول اتقى الناس لله ..

كان أشد الناس خوفا من الله ، وأشد الناس حياء من الله ، وأشد
الناس رهبة من جلال الله ، وكان حبه لله عز وجل لا يتجاوز اطار العبودية
وتوقير الله .. ورغم أن أعظم ذنوبه - صلى الله عليه وسلم - كانت
حسنات للمقربين والعابدين والأتقياء .. رغم معاقبة الحق له على الكمال
لأنه يريد منه ذروة الكمال لا الكمال وحده .. رغم أنه كان صلى الله عليه
وسلم بلا ذنوب .. رغم أنه كان رحمة للعالمين بنص كتاب الله .. رغم أن
الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، رغم هذا كله كان يقوم الليل
ويصوم النهار فلما سئل لماذا وقد غفر الله لك ؟

اجاب : أفلا أكون عبدا شكورا

ان اجابته صلى الله عليه وسلم تتضمن الاحساس بالعبودية
الشاكرة ..

والاحساس الدائم بالعبودية هو جوهر التقوى ..

ولقد عرف الاسلام نماذج من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا
امثلة عليا في خشية الله وتقواه ..

.....

بحر ابي بكر الصديق ..

مثل ريح تسوق السحاب والمطر كان كريما تقيا .. اكرم الرسول
بتصديقه وسمى الصديق .. واكرم الرسول بماله وكان قبل الاسلام
اعظم اغنياء مكة ، فصار بعد الاسلام رجلا فقيرا ذهب أمواله في الدعوة
الى الله .. واكرم الرسول بابنته عائشة ، واكرمه بمصاحبته في الهجرة ،

وكان قعة في العبادة ورقة المشاعر وسمو النفس ، ورغم ذلك فهو القائل
انه لا يامن مكر الله ولو وضع احدى قدميه في الجنة ..

هذا صاحب رسول الله ..

هذا مقدار تقواه لله ..

.....

بحر عمر بن الخطاب ..

مثل سيف لا يقف امامه شيء كان كريما تقيا .. في ظروف الاسلام
الاولى ، ايام الحصار والجوع والبؤس والتعذيب والاضطهاد .. سأل
رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ان يعز الاسلام بأحد العمرين ..

واستجاب الله تعالى ..

كان عمر بن الخطاب هو الرجل الذي اعز الاسلام بشجاعته في الحق
.. وكان عمر بن الخطاب هو الحاكم الذي يتقلب في فراشه خوفا من ان
تنكفيء عنزة في احدى طرق العراق فيسأله الله لماذا لم يمهدها الطريق
وهو حاكم على المسلمين ومسئول عن طرقهم وكبوات حيواناتهم ..

.....

بحر علي بن ابي طالب ..

وسيدنا علي هو باب مدينة العلم .. وهو اول صبي يؤمن بالاسلام ،
وهو الذي تربى في بيت النبوة .. وشرب آدابها وسقى من تقواها .

.....

بحر عثمان بن عفان ..

قتل الرجل الكريم وهو يقرأ كتاب سيده ومولاه .. قتل وهو يقرأ في
المصحف ، وكان يقول :

« اذا جاء العبد كتاب من سيده وجب عليه ان ينظر فيه كل يوم » .

نريد ان نلاحظ استخدامه لتعبير العبد ..

لقد استخدم الرسول نفس التعبير قبل ذلك حين سئل لماذا يجهد

نفسه وقد غفر الله له ..

ان الاحساس بالعبودية هو جوهر التقوى ..
والخوف من الله تعالى والذلة بين يديه والافتقار اليه هو جوهر
التقوى ..

وسوف نلمح في جميع الصحابة والتابعين هذا الاحساس البالغ بتقوى
الله وخشيته ..

.....

بحر سيدنا الحسين بن علي ..
صنع موجة من خشية الله ..
وتوجته الشهادة ..

ويسيل دمه في الله .. رمزا للبراءة التي يقتلها الدهاء والظلم ..
وينتقل الموج الخائف الى بحر ابنه ..

.....

ما اشد هدوء هذا البحر ..
وما اعظم صفاء أمواجه ..
هذا بحر الكريم ابن الكريم ..
بحر علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ..

المياه هادئة ساكنة ..

القاع عميق وان ارتعشت رماله بالخوف من الله ..
الأمواج جاءت من دموع الخشية من الله والهيبة من جلاله ..
لم نزل في منطقة الزهد الخائف ..
لم ندخل بعد منطقة التصوف المعقد ..

هذا البحر هو المدرسة الاولى من مدارس الزهد الذي تطور الى
التصوف .. لقد كان التشيع المعتدل واحدا من اهم العوامل التي اعانت
على تطور الزهد الى التصوف كما لاحظ الدكتور عبد القادر محمود .

وكانت المأساة التي وقعت لاهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم
هى الجسر الذى وصل بين اهل السنة والشيعة .. فاذا كثير من السنيين
ينجازون بمشاعرهم الى آل البيت .. واذا آل البيت أنفسهم يحسون
الاغتراب ، واذا المنحازون اليهم يحسون بنفس المشاعر ، ومن الغربة
يولد الحزن .. والحزن ينمو فى بدايته تحت شمس اليأس فى الدنيا ،
تسقيه دموع الامطار المفتربة .

يوما بعد يوم تورق اشجار الحزن فاذا نحن امام حديقة باكملها من
الحزن ..

.....

على زين العابدين يسير فى السنة التسعين الهجرية .. استعد تماما
للموت بعد سنوات لا يعلمها وان كان مكتوبا فى علم الغيب انه سيموت
فى السنة الخامسة والتسعين للهجرة ..

يرتدى الحرير ويخب فى عباءة غالية .. على وجهه مسحة من نبل
حزين .

هو زاهد يلبس الحرير .. ليس الزهد عنده هو فراغ اليد من الدنيا ،
وانما الزهد هو فراغ القلب من الدنيا .. وقد فرغ قلبه من المعنى واغترب
فيها ..

ان تكون الدنيا فى يدك وخارج قلبك ..

ان تكون قادرا عليها وسيدا فيها ومزدريا لها ومحتقرا لها فى نفس
الوقت ..

هذا هو الزهد ..

سئل منذ ليلتين كيف حالك فقال : فقد الاحبة غربة ..

شرب اغترابه من حرته على ابيه سيد الشهداء الامام الحسين ..
ورغم ان اسمه الاصلى هو « على بن الحسين بن على » .. الا ان شهرته
بزين العابدين التصقت باسمه فلم يعد يعرف الا بها .. هو على زين
العابدين ..

هو على التقى الذى كان يقوم طرفا من الليل للتهجد والعبادة ، فإذا سار اثناء النهار سار بوجه شاحب من اثر سهر الليل ، وأفشت عيناه سر بكائه الطويل طوال ليلة الأسس خوفا من الله وأملا في رضاه ..

عبد عابد من عباد الله ..

وكلماته في ابتهالاته تشي بحكمته وأدبه النبوى فهو يستمد من مشكاة النبوة مباشرة ..

تورد الصحيفة السجادية قول على زين العابدين في ابتغال من ابتهالاته « اللهم لك قلبى ولسانى . وبك نجاتى وأمانى . انت العالم بسرى وأعلانى » .

يسلم الرجل قلبه ولسانه لله ..

واللسان يترجم عما يريد الإنسان قوله ، فهو هنا رمز للظاهر الذى يجب الإنسان من غيره أن يعرفه عنه ..

اما القلب فرمز لأسرار الإنسان ودخلته .. هو رمز للمخبوء فى باطنه ، وحين يسلم على زين العابدين قلبه ولسانه لله ، يعنى أنه يسلم سره وعلايته ، فيجعل ما على لسانه وما فى قلبه ملكا لله عز وجل .. ولأنه يفعل ذلك يدرك أن نجاته وأمانه يستمدان من مصدر واحد هو الله ، فلا نجاة ولا أمان فى البعد عن الله .

يقول على زين العابدين فى ابتهالاته : « اللهم امت قلبى عن البغضاء ، واصمت لسانى عن الفحشاء ، واخلص سريرتى وعلايتى عن علائق الاهواء . واكفنى بآمانك عواقب الضراء ، واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، وأعلانى موافقا لطاعتك » .

يسال العابد الله تبارك وتعالى أن يجعل سره معقودا على مراقبة الله وأعلانه موافقا لطاعة الله .. وهذه الفكرة الاسلامية الخام ، سوف نعثر عليها فيما بعد مفلسفة عند حجة الاسلام الامام الغزالى فى استواء السر والعلن .

نريد أن نلاحظ ملاحظة هامة ..

نحن لم نزل نبحر في بحار الحزن المغترب الخائف ..
وقد نما مقام الفربة التي تستهدف الآخرة عند سيدنا على
زين العابدين ، وتسرب منه الى الحسن البصري بعد ذلك .. يقول
ابو طالب المكي في قوت القلوب : « كان الحسن البصري اذا اقبل فكانما
اقبل من دفن حميمه ، واذا جلس فكانه اسير قد امر بضرب عنقه ، وكان
اذا ذكرت النار عنده فكانها لم تخلق الا له .. »

كان الخوف حالا من حالات العلم ..
كان الخوف من الله مقاما يقيم فيه العارف بالله ..
قال تعالى : « ولين خاف مقام ربه جنتان » .
والحسن البصري هو الذي ربط الخوف بكونه حالا في مقام العلم
تمكينا للوصول الى اليقين « فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ..
والطريق الى اليقين يمر بالخوف من الله تعالى ..
ويبدأ الطريق بالتوبة فالصبر .. والشكر .. والخوف .. والرجاء
.. والتوكل .. والمحبة .

وقد سئل جعفر الصادق ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا ..
فقال : لانكم تدعون من لا تعرفونه ..
نفس السؤال وجه الى احد تلاميذه بعد ذلك فاجاب : لانكم تعرفون
الله ولا تطيعونه ..

نفس السؤال تكرر بعد ذلك على تلميذ لتلميذه .
كان السؤال قد تحور هذه المرة ..
قيل له اننا ندعو فلا نجاب .. والله يقول ادعوني استجب لكم .
فقال : ماتت قلوبكم في عشرة اشياء :
١ - عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .

- ٢ - وقرائن كتابه ولم تعملوا به .
 - ٣ - وزعمتم محبة رسوله وتركتم سنته .
 - ٤ - وادعيتم عداوة الشيطان ورافقتموه .
 - ٥ - وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها .
 - ٦ - وقلتم نخاف النار ووهبتم انفسكم لها .
 - ٧ - وقلتم الموت حق ولم تستعدوا له .
 - ٨ - واشغلتكم بعيوب اخوانكم وبذمت عيوبكم .
 - ٩ - واكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها .
 - ١٠ - ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا .
- فكيف يستجاب لكم ؟ ..

✽ استغرق الخوف من الله وقتا حتى تحول من الزهد الى التصوف
وخلال هذا الوقت قدم الاسلام نماذج مثل عتبة الغلام لم يكن غلاما حين
اطلق عليه اللقب ، ولا كان غلاما حين مات ، لقد تجاوز الثالثة والثلاثين
مثل عيسى حين لقي ربه ..

انما سموه عتبة الغلام لانه كان نحىلا متوسط القامة ، وكان في العبادة
غلام رهان ..

وقد استشهد عتبة وهو يفزو في سبيل الله في شمال الشام .. وجلس
اصدقاؤه يذكرونه ويتحدثون عنه ، لعل الحديث يحييهم ساعة في ملكوت
السموات فيستحيوا خطوهم الى الله ..

قالت جارته ام عطاء : رحم الله عتبة .. كان جارا لنا وكان هينا
كالنسيمة .

وقال احمد بن زهير : كنا نطلب المنزلة في نفوس الناس الا عتبة ،
فقد كان يرى ابتغاء المنزلة عند الناس هو السقوط من عين الله .. وكان
يفرح لما يرى من هوانه على الذين لا يعرفونه .. وكان الناس لا يلتفتون اليه
لصغر حجمه .. ركبنا سفينة مع عتبة ، واضطربت السفينة من الرياح
وجعلت تميل وتستوى ، فاراد الملاح ان يعدل جلوسنا فلم يجد في عينه
اهون من عتبة ، فدفعه في جنبه وقال : اسنو يا هذا بازاء من بجوارك ..

واشرق وجه عتبة بالسرور .. وغمغم يقول لنفسه : الحمد لله ان
لم ير فيهم احقر في عينيه منى .

وقرات ام عطاء قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض
هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

وحكت ام عطاء عن عتبة الفلام ..

كان ياخذ دقيقة فيبله في الماء فيمجنه ويضعه في الشمس حتى يجف
.. فاذا جاء الليل اخذه وأكل منه لقما ثم يشرب قليلا من الماء ..

وقلت له : يا عتبة ، لو اعطيتنى دقيقك فخبزته لك .. قال : يا ام
عطاء . الامر اعجل من ذلك .. كسرة وملح تسد عنى كلب الجوع .

.....

كان عتبة الفلام متعجلا .. فعلى اى شىء ؟

ان دعاءه يستطيع ان يفشى لنا سره .

كان اعظم دعاء له « اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطن
السباع » .

وقد استجاب الله دعاءه ..

والدعاء فى الاسلام مخ العبادة ، هو عقلها وادائها .. والاصل ان

المسلم لا يحمل هم الاجابة . انما يحمل هم الدعاء .. يكفى ان يكون مؤمنا
ويدعو حتى يستجيب الله لدعائه ..

ليست هناك مشكلة فى الاجابة ..

المشكلة كلها فى الدعاء .

« اذا الهمت الدعاء جاءت الاجابة معه » .

وهكذا دعا عتبة الفلام ..

لم يكن يدعو ان يجعله الله سيدا فى قومه ، او نريا ، او ذكيا ، او
ملكا ، او رئيسا يحكم . لم يكن يدعو الله ان يحفظ صحته وحياته او

يبارك في امواله واولاده .. لم يكن يسأل الله لنفسه اى شيء .
خرج من ملك نفسه الضيق الى ملك الله الواسع .
لم يعد سجين مطالب البشر ، وهى مطالب مشروعة يستن الدعاء
بها ..
لم يعد عتبة الفلام يريد لنفسه شيئا لقد احب الله لا الحياة ..
واحب الاسلام لا سلامته هو .
واحب ان ينشر الدعوة ولو مزق جسده في سبيل الله ..
واحب ان تاكل جسده الممزق هذه الطيور الجارحة وهذه السباع
الجائعة .
ان عتبة الفلام لم يزل مستمرا في العطاء ..
لا يقتصر عطاؤه على الجيش او الحياة الاسلامية او مركز الاسلام
المتناز او هيئته .
انما يمتد عطاؤه الى الطيور والوحوش .
يريد ان تمتلئ حواصل الطيور باجزاء من جسده .
ويريد ان تمتلئ بطون السباع باجزاء من جسده .
انه يقدم بعد موته دليلا على كرمه .. فيجعل من جسده مائدة للطيور
والحيوان .
حتى لو كانت الطيور جارحة .. وكان الحيوان وحشا .
اليس هؤلاء بعض الخلائق ..
فليعط الخلائق اذن حتى بعد موته .
ويسير عتبة الفلام قاصدا الشام ..
» يعرف ان حياته على الارض مثل طائر عذب النغم وقف ساعه على
عصن .. ففنى ثم طار « .

كان عتبة الغلام يريد ان يغنى بصوت له صليل سيوف تدافع من
الاسلام والانسان ..

وظل مسافرا حتى وصل الى شمال الشام . .

المكان : اسمه المصيصة ..

الزمان : بعد صلاة الظهر ..

فوجيء قادة الجيش بهذا الزاهد العابد النحيل الضعيف داحلا
عليهم سألوه ! ما جاء بك ؟ .

**قال عتبة الغلام : جئت اغزو .. رأيت في المنام انى اتيت اغزو
فاستشهد .**

قال مغلذ بن الحسين : ما عن هذا اسأل ولكننا نصول بنى الاصفر .
وهم قوم اشداء ، لا ينفع فى نزالهم تسبح انضته العبادة والسهر مثلك ..
ولا احسب ان عودك هذا الخفيف يستفر على صهوة جواد اذا كره به وفر ..

استمع عتبة الغلام لهذه الكلمات بما تضمنه من سخريه خفيفة .. ونظر
الى القائد العسكرى نظرة اصابت قلبه كأنها سهم .. وتلون وجهه
وقال :

يا ابن الحسين . ليس العجب ان ينفر الهزيل الشاحب لقتال اعداء
الله ، وانما العجب ان ينفر اليهم مشوش الايمان زائغ القلب والعقل ،
وان النصر لا يبطيء عن جيش من جيوش الله الا ان يكون فيه من غره
شيطانه عن ربه : يا ابن الحسين . لو اتنا نقاتل القوم بمثل ايمانهم لكان
من احمق الحمق ان نلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا قليل ..

ولكن شتان بين ايمان وايمان ..

ويارب نفس رمقت جلال الله فذهب عنها غرورها : فلم تشهد الا
فقرها اليه وعجزها بين يديه ، فأمدّها بسر من بأسه ، وايدّها بكوكبة من
جنده ، فاذا هى فى الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لان يتبت
الكافر لجبل ينقض عليه اهون من ان يثبت لضربة من صرباتها ..

يا ابن الحسين .. اذك لك لن تنصر الله فى معركة حتى تنصره فى نفسك

بتغليب امره على هوالك ، فان كنت فارس هذه المعركة فانت فارس الاخرى
باذن الله .. فانظر ماذا يفنى لحملك وشحملك اذا انت خذلته في الارض
وجئت تطلب نصره في الثانية .. وهو الذي جعل هذه بتلك جراء وفاقا
ووعدا حقا في قوله سبحانه « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم »
انتهى عتبة الغلام من كلامه لقائد الجيش .

قال مخلد بن الحسين : فوالله لقد انكسرت لما قال .. وكأنما اهدى
الى نفسى فقلت له : يرحمك الله يا اخى .. انما كنت امزح . وحين رأى
عتبة في اجابة مخلد انه يتضعضع له حياء مما اتى .. انثنى يجبر ما انكسر
من نفسه فقال عتبة : ان بسطة الجسم من اجل مواهب الله ، وانها لمن
ملقيات الرعب في قلوب اعدائه ، والمؤمن القوى خير واحب الى الله من
المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، وما غاب عنى والله ضعف جسمى وان
ليس فيه ما يرهب عدو الله ، ولقد اهمنى ذلك ، (اقلقنى) وحدثت به
نفسى فقلت حين نزلت حلب : اذا قصر جسمى ان يرهب عدو الله
فلألقينهم بجواد يكون ارهب لهم من سرية ..

وقلت لبعض اخواني اشترؤا لى فرسا يفيظ المشركين اذ راوه
فاشترؤا لى ذلك الجواد ..

اشار عتبة بيده نحو جواد عربى اصيل جواد حرب لا يفزعه صليل
السيوف وانما يرفع صاحبه ليكون اقدر على ان يهوى بسيفه على
خصمه ..

.....

وانضم عتبة للجيش المحارب .

كانت هناك فترة ترقب وتاهب ..

كانت ساعة الهجوم لم تحدد بعد .

واكتشف الحرس الليلي للمسلمين ان عتبة الغلام يفتنيهم عن السهر ..

كان هو الساهر يوميا حتى اذان الفجر .. كان الحرس فى خيمته ينام
اعتمادا عليه . كان يكفيهم مئونة السهر .

هو الساهر دائما ، اما قارنا للقرآن او مصليا او ذاكرا .. كان الجيش يضم يحيى الواسطى ايضا وهو من الراهدين وراى مخلد بن الحسين فى منامه ذات ليلة حلما .

راى ان ملكا نزل من السماء ومعه ثلاثة اكفان من اكفان الجنة ، فالبس عتبة الفلام كفنا ، والبس يحيى كفنا ، والبس رجلا ثالثا كفنا ، فلما جاء الصباح واستيقظ فكر ان يحدثهم عن حلمه ، ولكن عتبة الفلام قال له :

يا ابا محمد .. انتظر . لا تحدث برؤياك الآن .

ودهش مخلد ، ولكنه سكت ..

كان القوم مرابطين ، ولم يكن هناك غزو تلتحم فيه الجيوش .. واستمر الحال على ذلك شهرا ..

وجاءت ليلة ، واحس مخلد ان احدا يحركه فى سريره . ففتح عينيه واستيقظ فوجد عتبة الفلام ..

سال : ما حاجتك ؟

قال عتبة : اجلس فقص على الرؤيا ، فما احسب الا ان قد دنا الموعد .. وحديثه مخلد برؤياه ، وانصرف عتبة .. لم يكذب ينصرف حتى نودى بالجهاد . وفزع مخلد الى جواده فاسرجه ، فلما بلغ باب القلعة كان عتبة قد سبقه اليه ..

وفتح القائد الباب وبدا الهجوم الليلى يحكى مخلد القصة « بلغنا مكانا به بعض آثار العدو .. قلت : من يجيئنا بخبر هؤلاء .

وثب عتبة .. وقال : انا .

واختفى عتبة فى جوف الليل ..

« اذا ألهمت الدعاء ألهمت الاجابة معه » .

« انا احمل هم الدعاء لا هم الاجابة » .

« اللهم احشر عتبة في حواصل الطير وبطن السباع » .

« اللهم ارزق عتبة اليوم شهادة في سبيلك تقر بها عين المسلمين »

لا احد يعرف اى شيء كان يفكر فيه عتبة ..

كل ما راوه حضانه وهو يغوص في قلب الليل الأسود ..

وسيفه وهو يرتفع كالثضاء والقدر ..

اسفرت المعركة عن قتل عتبة الفلام .. بعد ان روت الاساطير طرفا من شجاعته في المعركة وعدد قتلاه من المشركين .. انطلق يصول فيهم ويجول بسر الله .. وايده الله بكوكبة من عنده ، فبدأ حصانه الاشهب مثل برق ينسف اشجار الغابة ويشقها ويشعل فيها حمرة النار والدم ، ثم استجاب الله دعاءه ..

كان قد اُلهم الدعاء فوردت الاستجابة .

وهكذا هز أحد الأعداء حربته ، حتى اذا رضى مكانها في يده ، ارسلها الى ظهر البطل فمرقت في جوفه حتى أحس سنائها بين ثديه ..

وصرخ يكبر الله هاتفا : فزت ورب الكعبة ..

وفازت الطير والسباع بعشائها ..

وبات كل الخلائق راضيا عن نفسه ..

سنجد صورة عتبة مكررة في عمرو بن عتبة .. وهو ليس ابنا لعتبة كما يبدو من تشابه الأسماء . انما هو ابن أمير ماسبذان وهو ابن أمير حاكم ، وابوه يريد ان يكون الابن حاكما من بعده ، والاب لا يستطيع الثور على ابنه .. فهو اما ساهر يتعبد ، واما مسافر يغزو في سبيل الله ..

او هو على حد تعبير الاب « كثير التجوال والترحال والسفر ، اذا افام بيننا اقام كانه غريب ، لا ياكل مما ناكل ، ولا ينام كما ننام ، ولا ياخذ فيما نأخذ، ونفسى تكاد تذهب من الرقة كلما رايته في نخوله وعذابه .. »

ويسوق الأب على ابنه بعض الزاهدين والصالحين والعلماء ليحدثوه
ان يرفق بنفسه ، ويرد الابن على أبيه كأنما يضرع اليه .

— يا ابت .. انما انا عبد اعمل في فكاك رقبتي فدعنى اعمل في فكاكها .
ويتركه الأب لشأنه ..
وكان شأنه يسيرا على نفسه .

كان لعمر بن عتبة رفيقان كل يوم ، يتسحر بأحدهما ويفطر بالآخر
واغناه عما للناس من اسرة وفرش واراتك ووسائد اغناه عن هذا كله
حصير عتيق يريح عليه جسمه ساعة من الليل أو بعض ساعة .

وكانت له عبارة يقولها عن صديقه معضد العجلى « لولا ظلما الهواجر ،
وطول ليل الشتاء : ولذة التهجد بكتاب الله عز وجل ما باليت ان اكون
عشبا » .

وقال أصحابه « كنا اذا خرجنا للعدو لا نتحارس بالليل لكثرة صلاة
عمر وقيامه » .

وحدث عمرو عن نفسه فقال : «سالت الله ثلاثا فاعطاني اثنتين ..
وانا انتظر الثالثة . سألته ان يزهدنى في الدنيا ، فما ابالى الآن ما اقبل
منها وما ادبر ، وسألته ان يقوينى على الصلاة فرزقنى منها وسألته
الشهادة فانا ارجوها » .

خرج يوما على بعض رفاقه في جبة جميلة وعباءة حسنة ، وأشار
بأصبعه لموضع في الجبة وقال « ما احسن ان يتحدر دمي على هذه الجبة
ويجرى عليها هنا وهاهنا . »

والمعروف في العقيدة الاسلامية .. ان قلب المؤمن حين يدعو ، انما
يدعو بصدى ما يحسه من قرب مقادير الله .. وسرائر المؤمنين في الأرض
هى المرأة التى يتراءى فيها ما يشاء الله ان يظهره من مقاديره الموشكة
.. وحين يدعو المؤمن بأمله الحقيقى ، يكون القدر على قيد خطوتين منه
وقد حضر بما يريد ..

خرج عمرو مع صحابته ، فاستقبلهم واد ضاحك مبتهج طلق الهواء
لين النسيمات وتحرك في نفسه وجد هائم .. وقال « ما احسن هذا

الوادی .. ما احسن الآن لو ان مناديا نادى .. يا خيل الله اركبى »

وما اسرع ان نادى المنادى : ياخيل الله اركبى ..

يعنى يا خيلا ستجاهد فى سبيل الله فليركب فرسانك ..

وعلم ابوه بركوبه فى سبيل الله .. وارسل وراءه من يستدعيه ولم
يصل اليه رسول ابيه الا بعد أن اصيب ..

كانت اصابة من الصعب ان تقتل .. اصابه جرح صغير فجعل
يخاطبه :

« - والله انك لصغير .. وان يشا الله تعالى يبارك فى الصغير »

.....

وجاء المساء يجزر اقدامه المحطمة ..

وبارك الله فى الجرح الصغير ..

مات عمرو بن عتبة .

تحدر الدم على عباةته فى نفس الموضع الذى تمناه .. رزقه الله
الشهادة التى كان ينتظرها .

.....

كان بحر الخوف يلد شجاعة هائلة .

اليس هذا قانونا من قوانين الايمان . اليس للايمان قوانين تتحرك
وتعمل عملها فى النفوس ..

ان الخوف العظيم من الله ، يخيف الخوف ذاته من المؤمنين بعد ذلك
.. لا يعود المؤمن يخشى بعد الله احدا ..

ان توحيد الخوف يعنى ان تقصر خوفك على شىء واحد ..
هو « ان تفضب الله تعالى » .

ومن هذا التوحيد تولد الشجاعة .. شجاعة الشهداء .
وقد كان معظم العارفين بالله شهداء .

ولم يكن التصوف بمعناه المعقد قد بدأ في الظهور ..
وقد استغرق ميلاده اكثر من مائتى سنة بعد هجرة الرسول ..
يرى ابن خلدون في مقدمته ان الاسم لم يكن معروفا في الاسلام قبل القرن
الثانى ، ويقول ابن تيمية في رسالته « الصوفية والفقراء » .

« اما لفظ الصوفية ، فانه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة ، وانما
اشتهر التكلم به بعد ذلك . وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة
والشيوخ كالامام أحمد بن حنبل وأبى سليمان الداراني وغيرهما . وقد
روى عن سفيان الثوري انه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن
البصري » .

.....

كانت احوال المجتمع الاسلامى مهياة تماما لنشوء التصوف حين نشأ
ولهذا نشأ ..

تباين آراء العلماء في نشأة الزهد والتصوف ، يرى الدكتور المرحوم
أبو العلا عفيفى ان العوامل التى ساعدت على نشأة الزهد في الاسلام
كانت اربعة ..

العامل الأول : هو تعاليم الاسلام نفسه ، فقد حث القرآن على
الورع وهجر الدنيا وزخرفها ، ودعا الى العبادة والتبتل وقيام الليل
والتهدد .

قال تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » المزمل آية ٧

والعامل الثانى : في نشأة الزهد في الاسلام هو ثورة المسلمين الروحية
ضد نظام اجتماعى وسياسى قائم ، ذلك ان المسلمين عندما اتسعت
فتوحاتهم وكثرت غنائمهم أقبل الكثيرون منهم على الدنيا وجنحوا اليها ،
وشجعهم على ذلك الثراء المفاجئ الذى أصابوه ، وكانت نتيجة ذلك ان
قامت في نفوس اتقيائهم ثورة داخلية محورها الصراع بين نفوس لا تزال
على ايمانها القوى ، والدنيا المقبلة بمغرياتھا ..

اما العامل الثالث : فقد كان الرهينة المسيحية ، فكثرا ما تقرا عن
زيارات العابدين من المسلمين للربان في صوامعهم واخذهم عنهم بعض

تعالمهم من ذلك ما روى عن ابراهيم بن ادهم انه قال « تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان » ..

اما العامل الرابع : فكان الثورة ضد الفقه وعلم الكلام .. فان انقياء المسلمين لم يجدوا في فهم الفقهاء والمتكلمين للاسلام ما يشبع عاطفتهم الدينية فلجأوا الى التصوف لاشباع هذه العاطفة .

هذه هي العوامل الاربعة المسئولة في رأى الدكتور ابو العلا عفيفى عن نشوء الزهد في الاسلام ، ويفرق الباحث بين الزهد والتصوف رغم اتصالهما اتصالا وثيقا ، فيرى ان مصادر التصوف الاسلامى خمسة :

١ - القرآن والحديث ..

٢ - علم الكلام ..

٣ - الأفلاطونية الحديثة ..

٤ - التصوف الهندى ..

٥ - المسيحية ..

وسوف نلاحظ من هذا النظر ان الدكتور عفيفى لم يذكر الشيعة كمصدر من مصادر التصوف .. ولا أشار اليهم كمصدر من مصادر الزهد ..

ولو رجعنا الى الدراسات التى قام بها المستشرق نيكولسون ، وهى دراسات ترجمها الدكتور عفيفى نفسه ، فسوف نجد المستشرق يتحدث عن اصل التصوف ونشأته الاولى وتطوره فيقول تحت عنوان الشريعة والطريقة والحقيقة :

« فى القرآن عدد غير قليل من الآيات التى تدل على ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان على حظ من التصوف ، ولكن القرآن فى جملته شأنه فى ذلك شأن اسفار موسى الخمسة - لا يصلح ان يتخذ اساسا لاي مذهب صوفى ، ومع ذلك استطاع الصوفية ، متبعين فى ذلك الشيعة ، ان يبرهنوا بطريقة تاويل نصوص الكتاب والسنة تاويلات يلائم اغراضهم ، على ان كل آية ، بل كل كلمة فى القرآن تخفى وراءها معنى باطنا لا يكشفه

الله الا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعاني في قلوبهم في اوقات وجدهم ، ومن هنا نستطيع ان نتصور كيف سهل على الصوفية بعد ان سلموا بهذا المبدأ ، ان يجذبوا دليلا من القرآن لكل قول من اقوالهم ونظرية من نظرياتهم ايا كانت ، وان يقولوا ان التصوف ليس في الحقيقة الا العلم الباطن الذي ورثه على بن ابي طالب عن النبي ، ويلزم من هذا المبدأ ايضا ، مبدأ التاويل ، ان تاويل الصوفية لتعاليم الاسلام قد يأتي على انحاء واشكال لا حصر لها ولا لعددها .. وربما أدى الى تناقض في المبادئ والمسائل العملية ، وكل ذلك مفروض صدقه في النوع لا في الدرجة ، لان معاني القرآن لا حصر لها ، وهي تنكشف لكل صوفي بحسب ما منحه الله من الاستعداد الروحي » ..

هذا نص كلمات رينولد نيكولسون في كتابه « التصوف الاسلامي وتاريخه » ولقد كان مدهشا اشارته الى التصوف كعلم باطن ورثه على بن ابي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان مدهشا ايضا ان يمر الدكتور ابو العلا عفيفي على هذه العبارة مرور الكرام فلا يتحدث عن على بن ابي طالب او الشيعة في حديثه عن مصادر التصوف ..

على ان ما لم يحققه الاستاذ قد حققه واحد من تلاميذه فيما بعد ، هو الدكتور كامل مصطفى الشيبى ، فقد تقدم برسالته لنيل درجة الماجستير في الآداب تحت اشراف الدكتور ابو العلا عفيفي ، وكان موضوع الرسالة هو « الصلة بين التصوف والتشيع » ونالت الرسالة الدرجة العلمية ، وطبعت في كتاب ثم نظر الباحث فيما كتب وعباد يسد الشفرات ، ثم عاد يعيد النظر بالزيادة والنقص فأخرج لنا كتابه الذي استغرق ١١ عاما حتى ظهر بشكله النهائي ..

والكتاب بالغ الأهمية رغم ان الدكتور كامل الشيبى لا يعتبره مرضيا لغروره ، وترجع أهمية الكتاب لكونه يدرس موضوعا صعبا ، وينتهى فيه الباحث لآراء هدفها هو الامانة العلمية والرغبة المخلصة في اكتشاف الحقيقة .

ولعل الجديد في الكتاب ، الى جوار ما فيه من جهد علمي مخلص .

انه استعان بعدد من مراجع الشيعة انفسهم ، فلم يكن ممكنا له وهو يدرس هذا الموضوع ان يتجاهل مؤلفات الشيعة ..

وفي بداية الكتاب يعترف المؤلف بصعوبة البحث ، فيقول ان موضوع الكتاب يدور حول الصلة بين التصوف والتشيع ، وليس من السهل تبين هذه الصلة بين العالمين ، لان امورا قد جدت على كل منهما منذ بدأ في الاسلام حتى صار كل منهما مستقلا مستغنيا عن الآخر ..

ومن الغريب انه قد ظهر في الحياة الاسلامية ثلاثة اتجاهات ما تزال ثابتة ظاهرة للعيان ، فقد نجد ناحية من العالم الاسلامي تسودها مذاهب اهل السنة ، ونجد مكانا آخر تسوده مذاهب الشيعة ، ونلمح مناطق ثالثة يغلب عليها التصوف مختلطا باحدى هاتين المجموعتين من المذاهب ، ومن الملاحظ (لم يزل النص للدكتور كامل الشيبى) ان المسلم يستطيع الاستغناء عن مذاهب اهل السنة اذا كان شيعيا ، وعن مذاهب الشيعة اذا كان سنيا .. ويستطيع كل من السننى والشيعى ، أن يحيا حياة اسلامية دون أن يتصل ذهنه بالتصوف ونظرياته وعملياته ، غير ان المتصوف لا يستطيع الاستغناء عن احد هذين الاتجاهين الاسلاميين .. فلا بد أن تتصل الطرق الصوفية باتجاه من هذين الاتجاهين ، فمن المعروف ان النقشبندية مثلا من الطرق الصوفية السنية ، والبكتاشية من الطرق الشيعية ، فتدخل الاولى في فرق اهل السنة ، والثانية في فرق الشيعة .

وقد بين كثير من الباحثين القدماء اتصال المتصوفة باتجاه اهل السنة والجماعة ، وهو الاتجاه الوحيد الذي نعترف له بالصحة في الاسلام ، وقال القشيري في رسالته التى وجهها للمتصوفة سنة ٤٣٠ هجرية .

« اعلموا - رحمكم الله - ان شيوخ هذه الطائفة - يقصد الصوفية - قد بنوا قواعد امرهم على اصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم

عن البدع ودانوا بما وجبوا عليه السلف واهل السنة من توحيد » .
وكان الجنيد يقول .. « مذهبنا مقيد باصول الكتاب والسنة » ..

ورغم ان معظم العلماء يرون ان التصوف كان بمره اسلاميه لها اللون السنى دون الشيعى . الا ان احدا لم يلتفت الى علاقه التصوف فى بدنه بالتشيع .. وهذا ما دفع الدكتور كامل مصطفى الى دراسة هذا الموضوع فى كتابه ..

وسوف نعرض لوجهة نظره ثم نقول راينا فيها بعد ذلك ..

الشيعه فى رأى ابى الحسن الاشعري هم الذين شايعوا عليا رضى الله تعالى عنه ، وقدموه على سائر الصحابة .

وقد ذكر ابن حزم ذلك فى وضوح ورأى ان « من وافق الشيعة فى ان عليا رضى الله عنه - افضل الناس بعد رسول الله فهو شيعى وان خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون ، فان خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا » ..

وابن حزم متعصب على الشيعة - كما هو معروف - ولكنه هنا يحدد ويجمع ويمنع ، فراه هنا شهادة باحث .

.....

هذا رأى الشيعة كما يورده الدكتور الشيبى ، وهو رأى يملأ المسلم بالحزن ، لان المفاضلة بين الصحابة والفلو فى احدهم أمر جر على المسلمين عديدا من الفتن والحن ، وكان سببا فى انقسام المسلمين ، ودينهم دين توحيد لله وتجميع لعباده ..

ليس هناك مسلم سنى ينكر فضل على بن ابى طالب .. ومن ينكر فضل احد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اثم اثما عظيما . لكن عدم انكار الفضل لا يعنى القلو ، ولا يعنى اسباغ صفات القداسة على احد من المسلمين ، ان عظمة الدين الاسلامى تتمثل فى انه دين توحيد يعرف حق الله عز وجل على عباده ، ولا يجعل لرسوله صلى الله عليه وسلم رغم انه رحمة للعالمين بنص الآيات .. لا يجعل له اى نوع من انواع القداسة ، انما هو رغم فضله البشرى انسان يمشى فى الأسواق ويأكل الطعام ويجوع ويمطش ويمرض ويصح ويحيا ويموت .. شأنه شأن البشر فى اى مكان وزمان ..

ان نصاعة التوحيد الاسلامى وبشرية الرسول صلى الله عليه وسلم
آيتان من آيات الدين الاسلامى الحنيف ..
وهما آيتان يصمت بعدهما كل حديث او اجتهاد .

.....

مهما يكن من امر ..

لم يكن الواقع فى ظروف الفتنة الاولى مناخا هادئا للتفكير ، وكانت
الاحداث والدماء تسدل ستارة على الهدوء العقلى والوجدانى اللازم
لادراك الأمور .. ومن هنا تحول على بن ابي طالب كرم الله وجهه فصار
دون ان يعرف او يقصد او يريد - فتنة كبيرة افتتن به الشيعة ،
وغالوا فيه غلوا كبيرا ..

ويلفت الدكتور كامل مصطفى الشيبى الاذهان الى حقيقة قد تكون
خافية وهو يبدأ بحثه فى الكتاب عن الامام على .

ذلك ان الامام عليا شخص له جانبان . جانب تاريخى يعرفه الناس
وتعرض له الكتب العامة .. وجانب روحى دخلت فيه اضافات قد تكون
اسطورية ، ويبدو هذا الجانب عند الشيعة اولاً ثم عند المتصوفة بعد
ذلك ..

ويسمى الدكتور الجانب الاول بالجانب العام . والثانى بالجانب
الخاص .

اما الجانب العام فمعروف خلاصته ان الامام على بن ابي طالب ولد
بعد النبى بثلاثين سنة .. واسلم وعمره عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثة
النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعد خديجة رضى الله تعالى عنها مباشرة ،
وانه لم يعبد الاصنام قط لصغره وانه كان اقرب الناس الى الرسول
صلى الله عليه وسلم .. وكان ربيبه وكان خليفته على ودائمه وكان
صاحب لواثه وكان خليفته فى اهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون
من موسى بنص الحديث عن النبى نفسه ..

ومن المعروف ان النبى اخى بينه وبين على .. وقال فيه من كنت
مولاه فعلى مولاه .. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد رأى الشيعة في هذا الحديث ترشيحا له لتولى الأمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم .. ولكن ببيعة المسلمين لم يوافقوهم على ذلك مستندين الى حديث آخر لقاه النبي في آخر لحظة من حياته ..

من المعروف او المشهور ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في على « انا مدينة العلم وعلى بابها » ..

ايضا يروى عن على انه كان مغاليا في الزهد والعدل ، الى حد انه قسم رغيفا سبعة اسهم ، وروى ابو طالب المكي انه كان ازهد الصحابة .. وانه لم يترك صفراء ولا بيضاء الا سعمائة درهم بقيت من عطائه اراد ان يشتري بها شيئا لاهله .

هذه هي الجوانب العامة المعروفة عن على بن ابي طالب ..

اما الجانب الخاص الذي عنى به الدكتور بالمثل العليا والادوصاف والجوانب الروحية التي اضافها اليه الشيعة اولا ، ثم المتصوفة بعد ذلك حين جعلوا عليا مرجعهم ورأسهم في التصوف والزهد ..

ويرى الشيعة في على ما يراه المسلمون فيه ، ولكنهم يضيفون اليه اشياء تميزه عن زملائه من الصحابة ..

يرى الشيعة انه لا يقاس بال محمد من هذه الأمة احد ، ولا يسوى بهم احد ..

وفي التفسير المنسوب الى الامام الحادى عشر للشيعة يقول « ان الله لما خلق آدم وسواه وعلمه اسماء كل شيء وعرض على الملائكة جعل محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين اشباحا خمسة في ظهر آدم وكانت انوارهم نضىء في الافاق . الى آخره » .

وينسب الشيعة الى على بن ابي طالب قولهم « انا آدم وانا نوح وانا موسى وانا عيسى انتقل في الصور كيف اشاء من رآنى فقد رآهم » .
وتلك صورته تذكرنا بمقالة الحلاج المشهورة ..

فإذا ابصرتنى ابصرته وإذا ابصرته ابصرتنا

ويلاحظ الباحث كيف تلقف المتصوفة امثال هذه النصوص واخذوا

افكار الغلاة وجعلوها مستند طريقتهن ومثالا للنسج على منواله ..
وقد وردت عن علي بن ابي طالب الوان من الحوار نسبها اليه كميل
ابن زياد الزاهد النسيعى المشهور (المقتول سنة ٨٣) ..

قال علي : الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال علي : محو الوهوم وصحو العلوم .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال علي : هتك الستر لقلبة السر .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال علي : نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد بأثاره .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال علي : اطفئوا السراج فقد طلع الصبح ..

ويلاحظ الباحث امتلاء هذا الحديث بمصطلحات صوفية تجعل
اختراع الحديث أمرا مؤكدا .

.....

ايضا نسب الى علي بن ابي طالب قول يوضح منهجه في المعرفة .

قال : « العقل لمراسم العبودية لا لادراك سر الربوبية .. »

وهذا الحديث يعنى ان علما يرى ان الدوق هو المنهج الذى يصل به
الانسان الى الحقيقة الالهية ، اما العقل فهو الذى يستعمل فى ادراك
الحلال والحرام وفهم العبادات وما جرى مجراها ..

ايضا روى عن علي بن ابي طالب انه قال « سلونى قبل ان تفقدونى فانا
بطريق السماء اعلم منى بطرق الأرض » .

ايضا روى عنه انه قال « ان امرنا صعب مستصعب لا يحمله الا عبد
امتحن الله قلبه للايمان ، ولا يعى حديثنا الا صدور امينة واحلام رزينة » .

.....

لو نجينا جانباً ما سبب الى على بن ابي طالب .. ونظرنا الى شخصيته فسوف نرى انه عاصر الفتره التي تحول فيها الاسلام من فكرة متالية الى صراع عمل سياسى . وقد وجد على بن ابي طالب نفسه مطالبا بان يسدد الخطا وان يدل على الحق وبخوف من المزالق . وان يفهم وففته الصلبة مدافعا عن الاسلام ..

ودفع دمه تمنا لاسلامه وتقواه ..

وصار دمه بحرا تشرب منه انهار الصوفية ..

يلاحظ كتاب « الصلة بين التصوف والتشيع » ان كلام على بن ابي طالب يتداخل مع كلام اسلاف المتصوفة من الزهاد . وانه يتداخل مع كلام الصوفية أنفسهم ..

✽ واول نص يورده في هذا المقام ما قاله عامر بن عبد قيس الزاهد البصرى (المتوفى في خلافة معاوية) فقد قال هذا الزاهد : **لو كشف الفطاء ما ازددت يقينا .**

وتلك عبارة وردت مسندة الى على بن ابي طالب .. وهى مأخوذة من الآية التى تقول « **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** » .

✽ سمع سعيد بن جبير الزاهد المحدث ، قتل بامر الحجاج سنة ٩٤ هجرية ، يقول لجماعه فى اعلى المسجد ليلا : **سلونى قبل ان لا ترونى ..** وفى ذلك تكرار لعبارة على المشهورة « **سلونى قبل ان تفقدونى** » .

ايضا نسب لسفيان الثورى مقالة تشبه هذه المقالة .. ايضا نسب نفس القول الى جعفر الصادق .

✽ اما الحسن البصرى فقد قال معاصروه فى كلامه انه مأخوذ لفظا ومعنى او معنى دون لفظ من كلام امير المؤمنين على بن ابي طالب ..

✽ روى عن سفيان الثورى (المتوفى سنة ١٦١ هجرية) وهو شيخ الرهادى الكوفة انه قال : **الزهد فى الدنيا قصر الامل ، وليس باكل**

الفليظ ولا بلبس العباء » ، وذلك متصل بقول على بن ابي طالب ان
خوف ما اخاف اتباع الهوى وطول الامل .

* وروى عن عبد الواحد بن زيد قوله : مثل المؤمن كالولد في الرحم
لا يحب الخروج ، فاذا خرج لا يحب ان يزجج ، فذلك المؤمن في الدنيا .

وذلك تعبير ضعيف عن قول على بن ابي طالب « واعلموا انه ما من شيء
الا ويكاد صاحبه ان يشبع منه ويمله الا الحياة » .

* وترد لرابعة العدوية (المتوفاة سنة ١٨٠ هجرية) عبارة قالتها
« ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا في جنته فاكون كالأجير السوء ..
عبدته حبا له وشوقا اليه » ..

وقد وردت هذه المعاني في عبارة على بن ابي طالب (وهى عبارة
تسب الى حفيده ابن الحسين على زين العابدين) ..

قال على : ان قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وان قوما
عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وان قوما عبدوا الله شكرا فتلك
عبادة الاحرار » ..

* كان مالك بن دينار الزاهد البصرى (المتوفى سنة ١٨١ هجرية)
يقول في كلامه كثيرا من المعاني التى استمدها من على بن ابي طالب ..
فقد قال لوالى البصرة وهو يقف وسط جنوده وابته حين ساله : الا
تعرفنى ؟ ..

قال مالك من اعرف بك منى . اما اولك فنطفة مدرة ، واما آخرك
نجيفة قلدة . وهذا الكلام يتصل بما قاله على بن ابي طالب « ما لابن
آدم والفخر واوله نطفة وآخره جيفة » .

وكان عتبة الغلام ينظر الى قول على المشهور للدنيا « قد هجرتك
ثلاثا ولا رجعة لى فيك » حين قال فى خطابه لحورية تخيلها « طلقت
الدنيا ثلاثا ولا رجعة لى فيها حتى القاه » ..

وقال شقيق البلخى (المتوفى سنة ١٩٤ هجرية) اذا كان العالم
طمعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل ؟ واذا كان الفقير المشهور

بالفقر راغبا في الدنيا والتنعم بها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج من رغبته ؟ واذا كان الراعى هو الذئب فمن يرمى الفم ؟ ..

وهذه العبارة الطويلة التي تضرب الامثال على اهمية الزهد وكونه قدوة ، هذه العبارة لخصت في قول اسسند الى على بن ابي طالب « ان الله اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل ادنى الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزدى بالفقر فقره » ..

.....

يلاحظ كتاب الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشيبى ان التداخل لم يقتصر على ما اخذه الزهاد من اقوال على . وانما تعداه الى بناء التصوف ومؤسسيه ايضا ..

لقد شرب كثير من الصوفية من بحر الامام على بن ابي طالب ، ووضعوا كثيرا من كلامه او (بتحديد ادق) وضعوا كثيرا مما نسب اليه من كلام في عبارات جديدة من تأليفهم ، وكان مستواهم في البلاغة والفن اقل كثيرا من مستوى الامام على ، فقد كانت عباراتهم اطول واقل حساسية ، وكان على بن ابي طالب مشهورا بالصمت ، فاذا تكلم اوجز الحكمة فيما يقول .

حين تولى الاشترا النخعي عصر عهد اليه على بن ابي طالب عهد المشهور الذي قال فيه « اذا احدث لك ، ما انت فيه من سلطانك ابهة او مخيلة (يعنى اذا افتررت وملاك الغرور) فانظر الى عظمه ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن من طماحك (يقلل من غرورك ويكف عنك غربك) يحول بين الغرور وبينك) وبفىء اليك بما عزب عنك من عقلك (يرجع اليك بما ذهب من عقلك) .

نفس هذه الفكرة تداولها الصوفية .. نها هو ذو النون المصرى (المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية) يقول « من اراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تلدب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لان النفوس كلها فقيرة عند هيئته » .

وبريد ان نلفت انتباه القارىء الى ان فكرة على بن ابي طالب بالدعوة الى التواضع هى احدى الافكار الاساسية للصوفية ، ولقد تناول الصوفية فكرة ضالة الانسان امام الله وجعلوا منها جوهرها اساسيا من جواهر افكارهم ..

فالصوفي من لا يرى لنفسه مكانة ولا مقاما ولا وجودا امام الله ، وشيوخ التصوف السنى كالجنيد يريدون من الصوفي ان يذهب ويضيع ويتلاشى ويعود الى الصفاء الذى كان عليه قبل ان يخلقه خالقه ، حين كان ذرة في عالم الدر ..

والتصوف بمعنى تصفية القلب لله ينطوى على العبودية لله ، ومعنى العبودية ان يسجد العبد لله هذا السجود المزدوج ، مرة بجسده ومرة بجماع روحه .

بل ان تواضع الصوفية يجعل هدف تجاربهم الروحية هو الغناء في خالقهم . وهكذا اثر على في الصوفية ..

بهم احيانا ينقلون عنه نص معانيه بعد وضعها في اساليب جديدة ، وحيانا يأخذون افكاره الاساسية ويبنون عليها ابنية جديدة .

قال ذو النون المصرى « ان الله تعالى انطق اللسان وامتنحه بالكلام وجعل القلوب اوعية للعلم » .

وقال على بن ابي طالب القلوب اوعية فخيرها اوعاها ..

هذه الفكرة التى تتضمن ان القلب وعاء . جعل منها الصوفية مدارا من مدارات افكارهم .. وها هم يقولون « سبحان من جعل قلوب العارفين اوعية للذكر وجعل قلوب الزاهدين اوعية للتوكل ، وقلوب المتوكلين اوعية للرضا . وقلوب الفقراء اوعية للقناعة وقلوب اهل الدنيا اوعية للطمع » .

واذا كان على بن ابي طالب قد المح بهجرانه للدنيا ، فهام الصوفية يصرحون بانهم قد طلقوا الدنيا ثلاثا وهجروها هجرانا بلا عودة . ومثلما كان على بن ابي طالب يقسم الناس الى ثلاثة اصناف من حيث عملهم فيقول « الناس ثلاثة فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجات ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق » ..

فكذلك يفعل الصوفية ، وها هو ذو النون يقسم المعرفة الى ثلاثة اقسام « الأولى خط مشترك بين عامة المسلمين ، والثانية معرفة خاصة بالحكماء والعلماء ، والثالثة خاصة بالاولياء الذين يرون الله بقلوبهم » .

وقد بلغ ولع الصوفية بعلى بن ابي طالب مبلغا عظيما ، فنسبوا اليه اقوالا لم يقلها مثل « الصوفي من لبس الصوف على الصفا واطعم الهوى طعم الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا واستوى عنده الذهب والحجر ، والا فالكلب الكوفي خير من الف صوفي » .

ومن الواضح ان العبارة منحولة لان لغة على بن ابي طالب لا تسمح له باستخدام هذا التعبير المتأخر « كانت الدنيا منه على القفا » .

ولم يتوقف ولع الصوفية به عند حد ..

اخذوا منه .. وزادوا فيما اخذوه منه .. ونسبوا اليه .. وقالوا فيه كلام حب عظيم ، ونسبوا علمه الى علم يشبه العلم اللدني او علم الاسرار ..

يصفه أبو نعيم في الحلية فيقول :

« سيد القوم . محبوب المعبود .

باب مدينة العلم والعلوم ، ورأس المخاطبات ومنسنبط الاشارات ، نور المطيعين وراية المهتدين ، وولى المتقين وامام العادلين وزينة العارفين ، المنبئ عن حقائق التوحيد المشير الى لوازم علم التفريد .. الى آخره » .

وهذه الاشارة الى التوحيد والتفريد تعنى علم الصوفية المخصوص . يقول ابو طالب المكي « وكان عند أهل العلم ان علمهم (يقصد الصوفية) مخصص لا يصلح الا للخصوص » .

ويرى السراج في شرحه لتقسيم على بن ابي طالب للعلوم بعد ان تبنى هو الآخر تقسيما ثلاثيا للعلوم ..

يرى السراج ان اول العلوم علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود

والامر والنهى وعلم حص به قوم من الصحابة دون غيرهم وهو العلم الذى كان يعلم به حديفة بن اليمان . . وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احد . وقد وضع السراج عليا فى المنزلة التى كانت لحديفة . . بل انه وضعه بعد الرسول مباشرة لأن الرسول علمه سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيره . .

ويسند الصوفيه الى على بن أبى طالب قوله « ما من اية الا ولها اربعة معان ظاهر وباطن وحد ومطلع . فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » .

ويرى الامام الجنيد ان الامام عليا قد اعطى العلم اللدنى . . ويروى عن الجنيد انه قال : « رضوان الله على امير المؤمنين » لولا انه اشتغل بالحروف لأفادنا من علمنا هذا معان كثيرة » ثم يقارن الجنيد بين على والخضر ويجعلهما بمنزلة واحدة ويبين أن هذا العلم اللدنى حظى به الخضر بقول الله « وعلمناه من لدنا علما » . . ، وبهذه الرؤية كان الجنيد يعتقد ان علم على بن أبى طالب لم يات به تعلميا . وانما هو توفيق الهى حظى به . . وبأسف الجنيد لأن عليا اشتغل بالحروب . ولولا هذا لاستفاد منه الصوفية وتعلموا الاسرار التى عرفها . .

وينبهنا نيكلسون الى ان التصوف ليس فى الحقيقة الا العلم الساطن الذى ورثه على بن أبى طالب عن النبى . .

ويرى ابن الفارص نفس الراى . . فهو يقول فى تائيته الكبرى :

واوضح بالتاويل ما كان مشكلا على بعلم ناله بالوصية

اما ابن عربى فهو يفسر النبأ العظيم فى قوله تعالى « هم يتساءلون عن النبأ العظيم » بأن النبأ العظيم هو القيامة الكبرى ولذلك قيل فى امير المؤمنين على هو النبأ العظيم وفلك نوح « اى الجمع والتفصيل – باعتار الحقيقة والشرعة لكونه حامعا لهما » .

اما جلال الدين الرومى فيقول فى على بن أبى طالب

منذ كانت صورة تركيب العالم كان على . .

منذ نقشت الأرض وكان الزمان كان على ..

الفتاح الذى انتزع باب خير بحملة واحدة كان على ..

من كان هو الوجود ولولاه لسرى العدم فى الوجود اياه كان على ..
ان سر العالمين الظاهر والباطن الذى بدا فى شمس تبريز .. اياه
كان على ..

وكلما تقدم الزمن ، كان على بن ابي طالب يتحول الى اسطورة عند
الصوفية ..

لقد وصلوا الى القول بأن على بن ابي طالب لم يموت ، وانما رفع الى
السما كما رفع عيسى بن مريم وسينزل كما نزل عيسى .

وهذا نص يرويه الشعرانى عن ولى يحمل اسم على وفا ..

ووجدنا بعد القرن السادس والسابع صوفية يزيد من مقامهم انهم
علويون كعبد القادر الجيلانى والسيد احمد الرفاعى والسيد احمد البدوي
وابو الحسن الشاذلى وابراهيم الدسوقي وعبد الوهاب الشعرانى واستاذ
الشعرانى الشيخ على الخواص وابن قضيب البان الموصلى وغيرهم
كثير ..

ولقد كان قتل على بن ابي طالب سنة ٤٠ هجرية ، وكان استشهاد
رائعا ، فصار موته كحياته مرتين ، موتا طبيعيا عاما وموتا اسطوريا
خاصا ، مثلما كان علمه علما طبيعيا عاما وعلما سريا خاصا « وقيلت فى
موته اساطير كثيرة » ..

قيل انه حمل فى تابوت على جمل فضل الجمل طريقه ..

ويذكر ابن حجر عن ابن عساكر انه قال : « لما قتل حملوه ليدفنوه مع
رسول الله ، فبينما هم فى مسيرهم ليلا اذ ند (تاه) الجمل الذى هو عليه
فلم يدر اين ذهب ولم يقدر عليه ، ولذلك يقول اهل العراق هو فى
السحاب ، وقال غيرهم انه وقع فى بلاد طيء فاخذوه ودفنوه » وانكر
البتكاشبة هذا كله ، فهم شيعة وصوفية معا ، ولذلك قالوا انه بعث
من جديد « وظهر ملثما على جمل وقاد خنازته نفسه الى مدفنها » ..

وبهذه النهاية الفنية المسرحية ، بضع الصوفية على بن ابي طالب
سدا لهم جميعا .

يرى الدكتور كامل الشيبى ان عليا دخل التصوف حتى صار اساسا من اسسه لا يمارى فيه أحد ، حتى ان ابن خلدون يقول فى معرض تناوله تأثير الشيعة على التصوف ان الصوفية يلبسون الخرقة ، لان عليا رضى الله عنه البس الخرقة للحسن البصرى واخذ عليه عهدا بالتزام الطريقة ..

.....

ما هى مسئولية علي بن ابي طالب عن هذا كله ..

ما هى حقيقة نسبه للصوفية والتصوف ..

هل كان علي بن ابي طالب هالما بالاسرار قد اوتي من العلم اللدنى كما اوتي العبد الذى يتحدث عنه الله تعالى فى قصة موسى والسفينة والفرام والجدار .. ؟

هذه كلها اسئلة هامة .

يعتقد - وهذا راينا الخاص - ان علي بن ابي طالب لم يكن مسئولا عن دخوله عالم الصوفية والتصوف ..

فلم يؤثر عنه بسند معقول ما يؤدى الى القول بانه كان يرى فى نفسه امتيازا خاصا او علما خاصا اوتيه من لدن الله ..

لم يكن للدلول الصوفية والتصوف معنى فى ذهنه « لان التعبيرين نشأ بعد استشهاده بفترة » ..

لم يكن علي بن ابي طالب رضى الله عنه كثير الكلام « انما كان دائم الصمت فان طبق طاعته الحكمة » ..

لم يكن يعتقد ان قرابته من النبی تجعل له وضعاً خاصاً فى الاسلام ، وانما كان يعرف ان الفضل فى الاسلام للتقوى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وكان رجلاً تقياً بحق ..

وحين تقدم علي بن ابي طالب لحكم المسلمين لم يكن يتقدم لانه قريب الرسول او من آل البيت ، وانما تعمد لانه رأى فى نفسه القدرة والفضل

لحكم المسلمين .. وكان قادرا وفاضلا ..

نريد ان نقول ان على بن ابي طالب ليس مسئولا عن الغالين فيه او المنتسبين اليه او الآخذين منه .. تماما مثلما كان عيسى ابن مريم عليه السلام بريئا ممن نسبوه الى الله بالبنوة او الثاوث او اى اسلوب .

والاسلام دين واضح .. ومن يعرف الاسرار عهد الى الصمت ، وهذا شرط ورد في القرآن الكريم عن العبد الصالح الذي يعتقد العلماء انه الخضر ..

من يعرف لزمه الصمت ..

ولقد كان على بن ابي طالب عارفا . ولهذا لم يتحدث عن علم الاسرار « انما ضرب للمسلمين بسلوكه نموذجا راقيا لما ينبغي ان تكون عليه حياة المسلم » ..

وهو نموذج سرعان ما تناسى الناس وضوحه ، وان افاضوا في الحديث عما صمت هو عنه او دثره بالكتمان ..

ان طبيعة السر في الاسلام انه سر .. لا ينكشف الا لافراد .. وعليهم بالصمت ، وبذلك يبقى للسر معناه ..

نحن نسلم جدلا بان على بن ابي طالب كان يعرف كثيرا من الاسرار ، ولكن كيف تناقش ما صمت هو عنه . اليس الافضل ان ننظر في حياته لنرى كيف عاشها ..

كانت حياة على بن ابي طالب باختصار .. محاولة رائعة لصب الاسلام في القالب الذي اراده له الله والرسول ..

لقد اعطى حياته للاسلام والمسلمين ، وتكبر على الدنيا بجاهها ومالها ، ورفض ان ينزل عن مبادئ الاسلام وهو يدخل صراعه الذي دخله « وبسبب ثقائه ومثاليته هزم في الصراع .. وكانت هزيمته نصرا هائلا للاسلام ، فقد كان مع الحق وكان الناس يعرفون انه على الحق ، وكان استشهاده من اجل هذا الحق اعلاء صارما لضم الحق واعلامه ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الخلق عنده ، والدليل على ذلك ان عليا سمي ابنائه بعد الحسن والحسين بأحب الأسماء اليه .. محمد .. ثم العباس ثم ابا بكر ثم عمر ..

وفي الوقت الذي كان الاسلام فيه ينتشر وكان الصراع على اشدّه حول الحكم ، كان علي بن ابي طالب يقوم بالقاء محاضرات اسبوعية في مسجد الكوفة لتوجيه الشباب الى حقيقة الاسلام ، وكان هذا يحدث مع ابن عمه عبد الله بن عباس .. وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التي ترعرعت وازدهرت بعد ذلك في بغداد عاصمة العباسيين ..

ولقد كان في موت علي بن ابي طالب شيئا يثير الانتباه .. ومن المدهش ان هذا الشيء لم يزل موجودا ..

كان علي بن ابي طالب يعرف حين خرج انه خارج ليقتل ، كان يتوقع هذه النتيجة ، او كان يراها بقلبه ، ورغم ذلك ، وربما ذلك ، وربما بسبب ذلك خرج ..

لقد ادرك علي بن ابي طالب ان الاسلام الذي يمثلته معاوية هو القشرة الاسلامية مع لب الكسروية والقيصرية ، قشرة اسلامية وجوهر رئاسي لا يعبا بشيء سوى الرئاسة ..

وحين وقف ضد هذا كان يدرك انه سيقتل .. وقد اذان على بدمه هذا النظام الى الابد .. ونبه المسلمين في ذات الوقت الى اهمية الجوهر .. وكان موته في حد ذاته كافيا لاعلان الحقيقة ..

لم يكن موته عاديا ..

كان كل شيء يجابهه يهدده بسحق طموحه ، ولم يكن طموحه شخصا انما كان اسلاميا ، وادرك انه يجب أن يحدق في الخوف دون خوف . وصار شجاعا الى مقتله ..

ولقد ادرك علي بن ابي طالب هذه الصفة الخاصة التي تثبت للشهداء، وهذه الطبيعة الخاصة التي يخلعها التاريخ على التضحية بالذات .. ولهذا خرج ولهذا استشهد ..

اراد بموته ان يحى مبادئه ويزيد من جمع الناس حولها ، واراد باستشهاده ان يعرف الناس ان الاسلام يستحق ان يموت من اجله امثال على بن ابي طالب وقد وعى المسلمون الدرس بعده ..

وبسبب عنفه فى الحق وجهه للاسلام .. غالى فيه الناس ونسبوا اليه ما لم يقله وتوسعوا فى ذلك ..

هذه هى مسئولىة على عن التصوف ، وهذه نسبته الى الصوفية .. لقد صنع دون ان يقصد مثالا اسطوريا بالغ السمو .. كان فتوة فى حرية .. والفتوة تعبير يستدعى معانى القوة القادرة ، واكتشف الناس فتوته ، وصار تعبير الفتوة من تعبيرات الصوفية .

جاء فى المنشور الذى اصدره الخليفة العباسى الناصر لدين الله حين اهدر الفتوة وجعل نفسه رأسها « بسم الله الرحمن الرحيم .. من المعلوم الذى لا يتمارى فى صحته ولا يرتاب فى براهيته ان امير المؤمنين كرم الله وجهه هو اصل الفتوة ومنبعها ومنجم اوصافها الشريفة ومطلعها (وعنه تروى محاسنها وادبها ، ومنه تشعبت قبائلها واحزابها ، واليه دون غيره ينشب الفتيان) وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والاخوان » ..

ومن المعروف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخى بينه وبين على بن ابي طالب ..

ويبقى سؤال ..

هل كان على بن ابي طالب عالما بالاسرار قد اوتى من العلم اللدنى كما اوتى الخضر ..

هذا سؤال نجعل الاجابة عليه بصراحة ..

لم يرد عن على ما يشير صراحة الى انه قد اوتى من علم الاسرار اذا جار ان يكون للاسرار علم .. اذ مفاد الاسرار ومعناها ان تظل خافية .. لم يرد عن على ما يشير صراحة الى انه اوتى من لدن الله علما ..

ربما كان الرسول يؤثره ببعض اسرار النبوة .. هذا محتمل وقائم ، وربما كان الله يقذف في قلب على بالعلم . هذا محتمل وقائم ، ولكن هذا كله لا دليل عليه سوى الصمت ، ومن ثم تصعب الاجابة على السؤال ، ولعلى اميل الى ترجيح الظن بانه اوتى من هذا العلم الالهى .. لانه صمت تماما ولم يتحدث عنه ..

وتبقى اجابة السؤال مستعصيه ..

لا نعرف ..

كل ما نعرفه انه كان بحرا عظيما من البحار التى سقاها محيط النبوة .. ومن البحار تولد السحب والأنهار والبحار مرة اخرى .

على طريق الحياة ..

تمضى اعظم الشخصيات الانسانية وهى لا ترتدى سوى عباءة الفكر ، ولا تحمل فى يدها سوى شموع الحقيقة ..

وينسدل الظلام فتتحرك الايدى الائمة بالخناجر المسمومة وتضرب .. وتسقط الشمعة من يد حاملها ..

ويسيل الدم .. ويخطو احد الشهداء خطواته الاخيرة من دنيا الباطل الى عالم الحق ..

هذه المأساة الانسانية تتكرر فى حياة النوع البشرى كثيرا ، منذ ان خلق الله تعالى آدم ، الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ..

لم يسلم الانبياء وكبار العارفين منها .

ولقد كان عيسى عليه السلام موشكا على القتل لولا ان رفعه الله تعالى اليه . ومن المدهش ان الناس تشترك سواء بالصمت او خضوعا للمصالح الشخصية فى جرائم افتيال هذه القمم الانسانية ، فاذا سقطت احدى هذه القمم ، بدأت انهيار البكاء .. وبدا الحزن المرير .. وبدأ تمزيق الوجوه والصدور ، وراحت الاساطير تعمل عملها بالاضافة والحذف والتعديل والتبديل الى شخصية الشهيد ، فاذا نحن امام

شخصيه اسطوريه تختلف تماما من حقيقة الشخصية الاصلية .

ولقد حدث شيء يشبه هذا تماما في أيام الفتنة الكبرى ..

تقاعس الناس عن على بن ابي طالب واسلموه لسيوف القتلة ،
وتقاعسوا عن الحسين بن على واسلموه لسيوف الخيانة .

فلما ذهب الشهيدان الى الله ، نسجت الاساطير حولهما خرافات
عديدة ، وبدأت حركة الفلو والغلاة ، فاذا النور الالهى فد تسرب من نبي
الى نبي حتى حل في جسد على ، واذا على لم يمت وانما هو حي يمرق
تحت الدثار الثقيل ، الى امثال هذه الخرافات التى جاء الاسلام أصلا
لحربها ، وموقف الشيعة المعتدلين من الغلاة واضح وحاسم ..

قال الصدوق القمى استاذ الشيخ المفيد .

« اعتقادنا في الغلاة انهم كفار بالله جل اسمه » .

قالها الشيخ ثم قرأ قوله تعالى في سورة آل عمران : « ما كان لبشر
ان يؤتیه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من
دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون .
ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيا أمركم بالكفر بعد اذ انتم
مسلمون » .

ولقد أدرك على بن الحسين بن ابي طالب ان الناس ستلتف حوله
وتحاول استغلال اسمه سواء في الدعوة اليه أو الدعوة لخرافة الفلو ..
أدرك هذا جيدا فابتعد تماما ..

لم يمكن لاحد من استغلال اسمه أو الدعوة اليه ..

اعطى ظهره للعالم وانصرف الى العبادة ..

أدرك وسط جو الفتن والخيانة والدسائس والحقق وسائر الصفات
الدنيوية ، ان مهمته ان يبتعد عن هذا كله ويصير نموذجا للاسلام الذى
نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان الحزن قد سجع له عاءة والقاهها على كتفيه ..

قتل جده على بن أبى طالب وعمره سنتان .
وقتل ابوه الحسين في كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة ..
وشهد بعينيه - وكان مريضاً في المعركة - مصرع اخوانه وأعمامه ..
وحفرت الاحداث الدامية في نفسه نهراً من الحزن طالما فاض من عينيه .
ثم انه شهد ما زاد حزنه اضافاً مضاعفة .
راى الناس يباعون ليزيد بن معاوية .. وعاصر ضرب الكعبة الشريفة
بالتجانيق .. وشهد عصر الحجاج في حكمه الظالم للمراق ..
وعاصر حركات افترقت العالم الاسلامى في بحار من الدم ..
وشاهد بدايات حركة الفلو والغالين .. وادهشه ان الذين قتلوا
اباه وجده او اشتركوا في قتله او تقاعسوا عنه هم الذين ينسبون اليهما
صورة ليست هى الصورة الحقيقية ..
وسط سحائب الفتن قرر على بن الحسين ان ينأى بنفسه عن هذا
كله .. لم يكن موقفه سلبياً ، ولا كان يهرب من معركة ، إنما كان بموقفه
يمثل الايجابية الاسلامية الرفيعة ..
كان ميدان المعركة قد تحول الى ساحة مضطربة من الاكاذيب
والخيانات والفلو .. وكان المثل الاسلامى الاعلى الذى ابتعد من عيون
المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابتعد بوفاة الصحابة
الكرام ، كان هذا المثل في حاجة الى البعث من جديد ..
وكان في حاجة لان يرى الناس هذا المثل حياً امامهم .. وكان على
زين العابدين هذا المثل ..
كان يكره اهل العراق ويحمل عليهم كثيراً لسببين .. الاول انهم
اسلموا والده وجده للقتل ، والثانى انهم يغفلون في والده وجده وينسبون
اليهما ما نسبته بعض اتباع الانبياء السابقين لاتبائهم من الوهية .
ورد في طبقات ابن سعد ان نفراً من اهل العراق اثنوا عليه فقال لهم :
« ما اكذبكم وما اجراكم على الله تعالى . نحن من صالحى قومنا وبحسبنا

ان تكون من صالحى قومنا » .

ايضا كان حربا على كل الغلاة ، وكان يمقت الغلو ولا يحب ان يرفعه
احد فوق منزلة احد من المسلمين .

وقال يوما لمن زادوا فيه بالثناء « ايها الناس احبونا حب الاسلام
فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا » .

ونفى السمو عن نفسه ، وحين بلغته انباء ما يقوله عنه اهل العراق
اشار بيده الى العراق وقال : « ليس فنا ما برمينا به هؤلاء » .

رغم هذا كله .. لم يسلم الرجل من الاذى الذى جاءه فى صورة الغلو
والثناء الحرافى . كان على بن الحسين ابن اميرة فارسية من اميرات
آل ساسان ، وسب اليه البعض حقه فى حمل تاج العرب والعجم ، فقد
كانت عقائد الفرس الدينية انهم ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية
اصطفاهم الله للحكم وجعلهم ظله فى الأرض ..

وهذه العقيدة الوثنية التى لم يكن عليها نزاع عند الفرس ..
التصقت زورا وعدوانا بعلى بن الحسين ، ف قيل أنه يملك وحده حق
حمل التاج ، لان امه هى الشهبانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس وابوه
هو الحسين بن على .. ويبدو ان ما حمل القائلين بهذا على قولهم شعر
ابى الاسود الدؤلى :

وان غلاما بين كسرى وهاشم لأكرم من نيظت عليه التمايم

وحقيقة هذا الامر ابعد ما تكون عن على رين العابدين .. فلم يعرف
عنه طوال حياته اى اتصال بالموالى ، ولا كان فى تصرفاته ما يبدى اتجاهها
فارسيا لديه . لقد نعى الرجل طوال حياته بعيدا كل البعد عن كل شبهة
الحكم او الرئاسة او رغبة فى الحكم او الرئاسة ..

كان الرجل راهدا بحق ، ولم يكن زهده نابعا من هجران الدنيا ،
فان المسلم الحميفى لا يهجر الدنيا ، انما ينبع زهده لسبب أخطر ..

كان يدرك ان وجوده فى هذا الجو من الفتن الطاميه كفيل بان يسيء

الى الصورة الاسلامية الناصعة التي يمثلها ..

ولهذا ابتعد ..

ولم يسلم رغم ابتعاده من كلام غلاة الشيعة الذين نسبوا اليه ما لم يقله وما لم يكنه في الحقيقة ..

ولكنه فعل ما ينبغي ان يفعله أى مؤمن يخشى الله عز وجل .

تبرا من الغلاة والفتن ، وابتعد تماما عن مسرح الصراع الرهيب الذى بدا ..

كان يدرك بوعيه الاسلامى انه لا يأمن على القيم الاسلامية التى يمثلها لو دخل ساحة الصراع ..

وكان الصراع يومئذ يثير الدهشة مثلما يثير الحزن .

ان الغلاة من الشيعة يتحدثون بكلام لم ينزل الله به سلطانا ، والموالى من المسلمين يأخذون افكارا وثنية سابقة ويطبخونها مع الاسلام ويقدمون للناس هذا الطعام باعتباره ينتمى الى الاسلام .. والسياسة هى التى تحكم الساحة الاسلامية ..

والسياسة لها اساليبها الخاصة فى الحكم ، وخاصة اذا كان الساسة يأخذون بقول معاوية بن أبى سفيان « ان لله جنودا فى العسل » يقصد ان العسل لو اضيف اليه السم لاغنى عن معركة كاملة ..

كانت الاغتيالات .. والحروب .. والدماء .. والاكاذيب .. والحزن

المبالغ فيه .. والحب المغالى فيه .. كان هذا كله يقف على مسرح الحياة الاسلامية ..

واذا فمن حق زين العابدين ان يبتعد .. ليس هذا مجاله ولا مستواه ولا ميدانه ..

انصراف الرجل للعلم .. والعبادة .. زهد فى الدنيا بصورتها التى كانت عليها ، وأى مسلم كان يتصرف بنفس تصرفه لو كان فى عباءته ..
.....

تهياً الشمس للاختفاء وراء افق الصحراء ..
 بعد قليل يبدل المغرب ثيابه ثوبا بعد الآخر ..
 الشفق القاني يملأ اطراف السماء بلون يشبه لون دم الشهداء ..
 زين العابدين يشق طريقه قاصدا المسجد لصلاة المغرب مع الجماعة ..
 لا يرتدى الصوف كالزهاد المتأخرين أو الصوفية فيما بعد ..
 انما يرتدى عباءة ثمينة ، ويطل من وجهه نبل طبيعى لا يكون الا في
 وجوه الصادقين .. يرفع عينيه الى السماء ويتأمل الأفق الدامى ..
 ينقلب اللون بفتة ليوم كربلاء ..
 كانت السماء والأرض يومها مخضبتي بدم الشمس ودم الحسين
 ويذكر اهل بيته الشهداء فيبكي ..
 تنحدر دموعه على وجهه فى صمت نبيل مستسلم لقضاء الله وقدره
 .. ويسأله بعض أصحابه عن كثرة بكائه فيقول :
 « لا تلووموني ، فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكى حتى ابيضت
 عيناه ولم يعلم انه مات ، وقد نظرت الى اربعة عشر رجلا من اهل بيتي
 يقتلون فى غزاة واحدة .. افتررون حزنهم يذهب من قلبى » .
 هذه الاشارة الموحية الى يعقوب تفسر كلمته التى قالها فيما بعد ..
 وصارت شعارا للعارفين بالله والصوفية « فقد الأجة غربة » .
 يكون الانس حين يكون فى الأرض من تحب .. فاذا كان حنبلا فى الله ،
 وسفطت السيوف تحصد رجال الله ، وتصادف ان كان هؤلاء الرجال
 هم الأب والأخ والعم ، فمن الطبيعى ان يجتمع حزننا على القريب الذى
 غاب ، على احزان العقيدة التى توجه اليها الطعنات ، ويتكاثف الشعور
 بالحزن فى النفس ..
 ويولد الاحساس بالغربة .. يؤدى فقد الأجة الى الغربة ..
 ذلك ان الحب يحتوى على شىء غامض يشبه السحر ، شىء يجعل

الحياة مذاقا خاصا من الانس والبهجة ، هذه البهجة هي سطح البحر الأزرق الجميل الهادئ ، وليس هناك كنوز عظيمة تعيش فوق سطح البحر ، تختار كنوز المعاني ان تختبئ مع لآلئ القاع تحت اعماق من المياه والصخور والمخاطر والضغط والمعاينة ..

وليس امام من يريد اكتشاف اللآلئ الا ان يفوص نحو القاع ..

ولابد لمن يريد الحقيقة ان يترك سطح البهجة الأزرق اللامع ويمضي وراء الخوف حتى يحدد فيه دون خوف ..

ولقد دفع زين العابدين ثمن زهده ومعرفته ..

قاده الحزن العميق على حال الاسلام وغريته كمسلم الى حقيقة اليقين .. فكان مسلما يشرف بالاسلام ويشرف به المسلمون .

كان يدعو الله تعالى بدعاء وجيز يعبر عن مقام العبودية الذي يقف فيه « اللهم كما أسأت واحسنت الي ، فان عدت فعد علي » ..

وكان يبخل على نفسه وأهل بيته ، فلما مات وجدوه ينفق على مائة أسرة من أسر المدينة الفقراء ، وظل ينفق عليهم سرا فلم يعلم بذلك أحد الا بعد ان مات وجاءوا بكونه ويسألون عن نفقتهم ..

وكان يرى ان صدقة السر تطفئ غضب الرب ..

وحين مات وجدوا بظهره آثارا تكشف من حملة لأحمال الخير الثقيلة التي كان يضعها على ظهره ويحملها الى المساكين أثناء الليل .

وكان اذا نهض للصلاة اصفر لونه وتغير وجهه .. فسئل في ذلك فأجاب انه ينهض للوقوف بين يدي رب العالمين ، ومن حقه ان يصفر لونه خوفا وحبا ..

ولقد روى سفيان الثوري شيخ الزهاد في القرن الثاني ، ان رجلا جاء الى علي بن الحسين فأخبره ان فلانا قد ذمك ووقع فيك .. فقال علي بن الحسين : انطلق بنا اليه .. فاتصلنا معا وهو يظن ان علي بن الحسين سوف ينتصر لنفسه ، فلما اتاه دعا له بقوله :

« ان كان ما قلت حقا فغفر الله لي ، وان كان ما قلت في باطلا فغفر الله لك » ..

.....

وعاش على بن الحسين او زين العابدين كما اشتهر حياة تفرغ فيها للعلم والعبادة ..

وتنسب الى زين العابدين الصحيفة السجادية التي تتضمن ادعية ومناجيات حفظها الشيعة ونشروها ، وجاء فيها في المقدمة انها بخط الامام زيد بن علي وباملاء ابيه زين العابدين ..

ويرى كثير من العلماء المدققين ان جزءا من الصحيفة السجادية صدر من زين العابدين .. ولكن الاضافة والاستطراد والتعليق والزمن قد صيرها الى ما صارت اليه هذه الصحيفة ..

ونلاحظ مع الدارسين ان الادعية في الصحيفة السجادية طويلة بعض الشيء ، وليس من طبيعة الدعاء ان يكون طويلا ، لان ذهن الانسان لو انصرف الى محاولة تذكر الدعاء فسوف تتسرب منه معانيه كما يتسرب الماء من اصابع المرء ..

وفي القرآن ادعية كثيرة ، وسوف نلاحظ عليها الاجاز العميق الوافي بالغرض ..

والله تبارك وتعالى هو الذي يلهم الدعاء ..

وقد حدثنا الله عز وجل عن دعاء ادم وحواء حين اكلا من الشجرة المحرمة وعصيا الله ..

« ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وحدثنا عن دعاء ذي النون في جوف الحوت .

« لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين » ..

وحدثنا عن دعاء المؤمنين المختصر .

« ان الدين قالوا ربنا الله تم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا

ولا تحزنوا ..

ومعظم الأدمية التي انتهت لا يدينا طويلة .. ونحن نشك في نسبتها
إليه ونتفق في ذلك مع شواهد الحال وطبيعة الدعاء ..

لكن فيها سطوراً تضيء كالنجوم ولا تصدر إلا من قلب زين العابدين .

« اللهم ان كنت عصيتك فاني قد اطعتك في احب الاشياء اليك ، وهو
الايمان بك تكرما منك لا منا عليك » .

.....

في المدينة التي نورها رسول الله صلى الله عليه وسلم بامامة دولته ،
توفي زين العابدين وترك ولده محمد الباقر .. الذي سيحيى من بعده
حفيده جعفر الصادق ..

والذي سيكون لكل واحد منهما دوره في الزهد المؤدى الى التصوف .

انتهت ايام علي بن الحسين او زين العابدين على مسرح الحياة .

ووقف ابنه المسمى محمد الباقر على المسرح .. والباقر ليس اسما
من اسماء محمد ، انما هو وصف له ، كما كان زين العابدين وصفا لابييه ،
وقد سمي محمد بالباقر اشارة الى انه يقرر العلم بقرا ، او يشقه شقا
ويصل الى قلب الحكمة .. وقد مات الباقر في الثانية والستين من عمره ،
بعد ان صارت له الامامة ٢٤ سنة . ولهذا ترك علامة بارزة في تاريخ الزهد
الذي امان على نشوء التصوف .. حين ظهر محمد الباقر على مسرح
الحياة ، كانت سماء الحياة ملبدة تماما تملؤها الغيوم الكثيفة ..

ان الصراع بين شيعة علي بن ابي طالب والدولة الاموية لا يتوقف ..
سواء بالانقضاء بالسيف او الخروج بالكلام .. ورغم ان ابناء الحسين
قد ابتعدوا تماما عن دائرة الصراع وانصرفوا الى العلم ، الا ان احزابا
من الشيعة نهضوا لمقاومة الدولة بالسيف وخرجوا عليها بالقوة ..

وعلى المستوى الفكرى كان الصراع على اشده بين علماء الكلام وعلماء
السنة ، وكان المعتزلة يرون تقديم العقل على النقل ، ويشيرون مشكلات
تصل بالحرية والجبر والقضاء والقدر ، ويتحدثون هل القرآن مخلوق
ام لا ، ويدخلون الصراع حول صفات الله واسمائه ، وكان اهل السنة

يقفون في الطرف الآخر من الصراع ..

ومثلما ابتعد أبناء الحسين عن صراع السيف ، ابتعدوا أيضا عن صراع الترف العقلي ، سئل محمد الباقر عن الجبر والاختيار فقال :

« ان الله ارحم بخلقه من ان يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها ، والله اعز من ان يريد امرا فلا يكون .. »

سئل : هل بين الجبر والقدر منزلة فائقة :

قال : نعم .. اوسع مما بين السماء والارض ..

وواضح من هذا النص ان الباقر لا ينفي ولا يثبت ، ولا يفلو ولا ينقص ، انما يقف موقف الوسط العدل من الامور ، فهو ينفي ان يكون الانسان ريشة في مهب الرياح بلا ارادة ، وينفي ان يكون الانسان مطلق الاختيار في الكون ، وبذلك بعيد المباح الى مجراها الاصيل ويضع قاعدة للاشاعة فيما بعد .

نشأ محمد الباقر في هذا الجو الملبد المليء بالسحاب والصراع والمفاجآت .. وانصرف تماما الى العلم والزهد ..

ترك كل الامور التفصيلية التي يتقاتل عليها المسلمون .. واهتم برحلة الانسان نحو الله تعالى « يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » ايضا ابتعد الباقر عن الغلو وكرهه كراهية شديدة ، وكانت الدولة الاموية تلعن على بن ابي طالب على منابر المساجد في الامصار ، كجزء من خطة دعائية ضد الشيعة ، وغلا بعض الشيعة فكانوا يسبون عمر بن الخطاب وابا بكر الصديق كرد فعل لهجوم الدولة الاموية ، وبلغت محمد الباقر انباء الشيعة الذين يسبون ابا بكر وعمر بن الخطاب ، واصدر تصريحه الشهير الذي يعيد فيه الامور الى مجاريها ..

قال الباقر : بلغني ان قوما بالعراق يزعمون انهم يحبوننا وينالون من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ويزعمون انني امرتهم بذلك ، فابلفهم اني الى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده ، لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم ، ولا نالتني شفاعة محمد ان لم اكن استغفر لهما « يقصد ابا بكر وعمر » ..

وبهذه الكلمات يتبرا الباقر من غلاة الشيعة ، ويرمى بالكفر من يسبون أبا بكر وعمر ، ويؤكد ان الأمور لو صارت اليه لقتلهم وتقرب الى الله بدمائهم ..

رغم اعتدال الباقر الشديد .. لم يسلم بعد موته من صب حياته في قالب صوفي زهدي بحيث صار واحدا من الصوفية او زاهدي الصوفية ..

حكوا عنه ان دمعته لم تجف طوال حياته شأن إبيه ، وروى عنه انه مال ما اغرورقت عين بمائثا الا حرم الله وجه صاحبها على النار ، بل انه يقسم البكاء كما قسم المعرفة فيقول :

« فان سالت الدموع على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، وما من شيء الا له جزاء الا الدمعة ، فان الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو ان باكيا بكى في أمة لحرم الله تلك الأمة على النار .. »

والجديد الذي يضيفه الباقر او يضيفه له معاصروه هو ربط الذكر الالهي بالبكاء .. يقول ان الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب اللاكز .

ومن الصعب وسط جو الحياة المضطرب إيامها ان نعرف اليوم ماذا قال الباقر حقيقة ، وماذا نسبه الناس اليه .. وسنجد هذه المأساة عالقة بكل الشخصيات الزاهدة التي نسبت الى الصوفية ..

وفي تصوري ان الباقر كان زاهدا فحسب ، وعباراته التي تدین الغلو والغلاة هي التي يتصور صدورها منه حقا ، لأنها تتفق مع روح الاسلام السني ، أما بما اضيف الى شخصيته ونسج عنه من أساطير ونسب اليه من كلمات غامضة تدخل في لب التصوف ، فأغلب الظن ان هذا كله منحول ومضاف اليه ..

وقد رويت عن الباقر حكايات تجعله كالخضر عليه السلام ..

قال ابن المبارك « توفي سنة ١٨١ » انه قابل بين مكة والمدينة شبعا يلوح في البرية . سألته ابن المبارك من اين قال من الله ، قال الى اين قال الى الله قال علام قال على الله ، ويظل ابن المبارك يدقق في السؤال حتى

يكتشف انه يحدث محمد الباقر . وبعد عدة آيات ركيكه من التمر
يكشف الباقر عن شخصيه ويختفى في ضباب الصحراء فلا يعلم ابن
المبارك هل صعد الى السماء أم انشق عنه الهواء ..

ونحن نعرف الآن ان الباقر مات قبل صاحب القصة بخمسين سنة .
فهل كان ما رآه الراوى شبحا أم حقيقة ؟

واضح ان هذا الشبح ظهر في مخيلة ابن المبارك الخصبة ولا اثر له في
الحقيقة . ومن هذه الاشباح التي تذهب وتجيء في المخلة . تمتلىء كتب
التصوف وأخباره بالكثير ..

وهذا كله احتراع فني لا يلزم احدا ولا يعر عن حقيقة ..

.....

مات الباقر فلم يسلم من هذه العباءة الخرافية التي القاها غلاة
الشيعة على صورته ..

وبرز الى المسرح ابن محمد الباقر جعفر بن محمد بن علي بن
الحسين بن علي بن ابي طالب . وسمى جعفر بالصادق لصدقه . وعلى
عادة الشيعة صارت الصفة اسما ثانيا له .. فهو جعفر الذي يصدق
اذا حدث او عمل او سكن او تحرك هو جعفر الصادق اذا ..

وكانت الظروف التي صاحبت ظهوره على المسرح اشد قسوة من
ظروف ابيه محمد الباقر ..

كانت حركات العنف في قمتها . سواء على المستوى السياسي او
الفكري .. وهكذا عاصر الصادق حركة الغلو في اعنف مراحلها ، فوقت
في حياته حركة ابي مسلم الخراساني وحركة عبد الله بن معاوية ، كما
وقعت حروب مروان بن محمد وحركات الخوارج وحركات الزيديين ،
والاصل في حركات الزيديين ايمانها بعول ريد بن علي امامهم الاول
« ما كره قوم قط حر السيوف الا ذلوا » .. وهكذا خرج زيد على
الدولة بالسيف فقتل في الكوفة سنة ١٢١ هجرية ، وصلب بعد قتله
خمسين شهرا عربانا ثم احرق كما يقول مروج الذهب

وفي هذا الجو المضطرب الثائر . تفرغ جعفر الصادق تماما للعلم . وترك السياسة والملك لطالبيهما وما كان أكثرهم انصرف جعفر الصادق الى التأمل والزهد والقراءة والتدريس والذكر والعلم ، ومع الوقت صار الرجل استاذا روحيا لجيله المعاصر .. وكانت كلماته في العقيدة والاسلام بالغة العمق والاحكام والوعى معا ..

كانت الآراء متناحرة تتقاتل حول صفات الله والجبر والاختيار والفضاء والقدر ، وكان المجتمع يموج بتيارات ثقافية متعددة ، فقد انتشر الاسلام وبلغت امواجه اقصى شواطئ الارض البعيدة ، ودخلت في الاسلام امم مختلفة لها تصورها وعقائدها واسلوبها في الفكر ، كما صارت الفلسفة اليونانية جزءا من نسيج بعض العقول المسلمة ، وكان فلاسفة هذا الوقت العقلانيون هم المعتزلة .. واحتدم الصراع الفكري بين اهل العقل والبحث والنظر واهل التسليم والتفويض مثلما احتدم الصراع بالسيوف بين الخارجين على الدولة والمؤيدين لها ..

وسئل جعفر الصادق عن ارادة الله وارادة الفرد ، سئل عن الجبر والاختيار ، وقال كلمته البليغة :

« ان الله تعالى اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما اراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما اراده بنا عما اراده منا » .

وبهذه الكلمة يمتنع الجدل تماما في الموضوع المتنازع عليه .. تسقط الدعوى والخصومة ولا يبقى غير جوهر الزهد الصافي ..

ان البحث فيما أخفاه الله عنا لا معنى له ، لأن هذا ما اراده بنا ، ولا حساب على هذا ، انما يكون الحساب على ما اراده منا من تقوى وعبادة وتوقير . ايضا اجاب جعفر الصادق على المتكلمين في الله ، وكان المقصود علماء الكلام من المعتزلة ومن اتجر في الصراع معهم من علماء السنة ..

قال جعفر الصادق : « الكلام في الله لا يزداد صاحبه الا تحيرا » ..

وبهذه الكلمة الجامعة المانعة تسقط القضية والخصومة ولا يبقى الا

ان ينصرف الناس الى العمل ..

ان الكلام فى الله لا يزيد صاحبه الا تحيرا ..

ما هو الاسلوب الذى يزيد من ثبات الثابتين اذا ؟

الاسلوب هو العمل .. وليس الكلام ..

ومضى جعفر الصادق فى حياته كعالم وزاهد .. ويرى بعض الدارسين من المستشرقين انه كانت له مدرسة شبه سقراطية ..

وفى مسجد الكوفة وحده كان له تسمائة شيخ من تلاميذه .. وكان من تلاميذه جابر بن حيان .. المشهور فى التاريخ بصناعة الكيمياء وتحويل المعادن .. ولقد كان جعفر الصادق يرسم بكلماته عالما بالغ الشفافية والعمق ، وكان صورة رائعة من ابيه واجداده ، فهو يحافظ على الاسلام ويتبعد عن صراع الافكار التى لا تزيد المرء الا تحيرا ، ويكف عن دس عقله فيما طواه الله واخفاه عن عباده كالغيب ..

وهو بداته صورة للمسلم الذى يشرب من نبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثلما اضيف الى اجداده ونسج حولهم وقعت نفس الاضافات لجعفر الصادق . يروى الكلينى حديثا ينفى فيه جعفر الصادق علم الغيب عن الائمة ، ويقابله حديث آخر ينسب الى جعفر الصادق يقرر فيه « ان الامام اذا اراد ان يعلم علم ، وان سليمان ورث داود ، وان محمدا ورث سليمان ، وانا ورثنا محمدا » .

ويساله احد السائلين عن العلم ، هل هو ما ورد فى الكتب السماوية وحدها فيكون جواب الصادق « ليس هذا هو العلم ، ان العلم الذى يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة » .

وقد انكر عمر بن الرياح امامة الصادق لانه اجاب عن سؤال واحد اجابتين مختلفتين وروى الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « انا معاشر الانبياء تكلم الناس على قدر عقولهم » ..

ويبدو من هذا ان الصادق كان يكلم الناس على قدر عقولهم ، وهذا تقليد من تقاليد الاساتذة الموهوبين ، فان الاستاذ لو كلم الناس على قدر فهمه هو أو عقله هو فربما لم يفهم عنه أحد ، فربما ضاعت الفائدة فيما يقوله .

لا غرابة اذا في هذا ، انما تثور الغرابة مما يثبتته بعض المؤرخين لجعفر الصادق ، بحيث يبدو فيه متناقضا مع احدى جوهريات الاسلام .. كمعرفة الغيب ، ان أحدا لا يعرف الغيب ، النص القرآني على ان الجن لا يعلمون الغيب ، وعلى ان الملائكة لا تعلم الغيب ، وعلى ان الانبياء لا يعلمون الغيب ، فهل يقصد جعفر الصادق هنا هذا الغيب المحجوب أو أسرار الله تعالى .. ؟

لماذا لا يكون ما يقصده جعفر الصادق هو غيب العلوم والعبادات ، وهذه أمور لا بد ان يعرفها من كان استاذاً مثله ، وربما كان العلم الذي اوتيته جعفر الصادق علما اكتسبه ، وربما قذف الله تعالى في قلبه بنور علوم أخرى ، هذا كله جائز الوقوع ومحمّل ، اما اجابته اجابتين مختلفتين بحسب عقلية السائل مرة ، ومحافضة على التقية مرة أخرى .. فليس أمرا بالغ الغرابة في جو مضطرب يهيج بالفتن كالجو الذي عاش فيه جعفر الصادق .. ولعل هذا كله يوضح ما قاله الصادق يوما « وددت لو اني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي .. النزق وقلة الكتمان » ..

ويبدو من ذلك ان التشيع كان قد دخل في الطور السري لاشتداد الفتنة ، ومهما يكن من أمر فإن ما اضيف لجعفر الصادق وما نسب اليه من كلام كان شيئا ضخما ، لقد وصل بعض اتباعه من الجهلاء في الرواية عنه والكذب عليه ونسبة ما لم يقله اليه مبلغا كبيرا .. وقد علل مصنفو الشيعة الأوائل سر تضعيف احاديث الصادق هذا التعليل المعقول ، قال الكشي :

« كان جعفر بن محمد رجلا صالحا مسلما ورعا ، فاكثفه قوم جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر بن محمد ، ويحدثون باحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك وياخذون منهم الدراهم » .

وهذا هو رأينا الخاص في جعفر الصادق .

كان الناس يدخلون عليه فيحدثهم حديث الاسلام لا يزيد ولا ينقص ، فاذا خرجوا من عنده وانتشروا قال كل واحد ما فهمه أو قال كل واحد ما يريد قوله ونسبه الى الصادق على انه حديث نبوي حدثهم عنه .

هذا الرأي الوحيد يفسر لنا سر تناقضات تراث جعفر الصادق .. كان الرجل مسلما صالحا ولكنه لم يسلم من الكذب عليه ونسبة الخرافات اليه ..

ولدينا منهج لا يقلت شيئا لمعرفة ذلك هل كان الصادق مسلما أم لا ..

كان الرجل مسلما عظيما .. اذا فلا مجال للارتياح . وكلماته تقاس بمعيار الاسلام الصحيح ، ما زاد عن ذلك نبرته منه ..

ولسوف نجد في سيرة جعفر الصادق نفس هذه الرقة والصفاء اللذين كانا سمة مميزة لاجداده ، فهو يقول عن الدموع التي يبكيها العبد في سجوده لله :

« ما من شيء الا وله كيل ووزن الا الدموع ، فان القطرة تطفئ بحارا من النار ، فاذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قطر ولا ذلة ، فاذا فاضت حرمه الله على النار ، ولو ان باكيا بكى في امة لرحموا » .

ويصطبغ زهد جعفر الصادق بصيغة علمية عميقة ، فهو القائل حين سئل عن المعروف « لا يتم المعروف الا بثلاث ، تعجيله وتصغيره وستره » وسئل الصادق بأى شيء يعلم المؤمن انه مؤمن قال : « بالتسليم له والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط » ..

وهو مسلم يلوم نفسه يوما حين حدثه أحد جلسائه بأن جده شفيع الخلائق فقال : « اني لاخجل من افعالي الى حد اننى استحي ان اواجه جدى يوم القيامة » « يقصد رسول الله » ..

ونسب لجعفر الصادق انه كان يدعو نفس دعاء النبي الياس ..

اتراك معذبي وقد اظلمات لك هواجرى .. اتراك معذبي وقد اسهرت لك ليلي ، اتراك معذبي وقد اجتنبت لك المعاصي ..

ولسنا نعرف من أين عرف بدعاء النبي الياس ..
اشياء كثيرة لاثبت للتمحيص ، واشياء تتفق مع روح الاسلام
كقول جعفر الصادق :

« من خاف الله اخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله اخافه الله
من كل شيء » ..

ولقد كان هذا هو جوهر التوكل الحقيقى ، ومثال ذلك قوله ايضا :
« من اعطى ثلاثا لم يمنع ثلاثا ، من اعطى الدعاء اعطى الاجابة ، ومن
اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية » .

ومن كلماته الخطيرة الجامعة قوله : « لقد تجلّى الله عز وجل لخلقه
في كلامه ولكن لا يبصرون » .

حين مات جعفر الصادق .. ومر الزمن .. اعتبر اكبر مفسرى
الصوفية ان جعفر الصادق هو امام التأويل الباطن .. واظهره الصوفية
كاستاذ لهم وامام .. ومن تفسيراته الآية الكريمة التى تقول فى سورة
الكهف : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملت منهم رعبا » قوله
لو اطلعت عليهم من حيث انت لوليت منهم فرارا ، ولو اطلعت عليهم من
حيث الحق لشاهدت فيهم معانى الوحدانية والربانية .

وهو يرى ان « يس » معناها : ياسيد .. ايضا يفسر « والنجم اذا
هوى ما ضل صاحبكم وما غوى » بقوله النجم هو محمد صلى الله عليه
وسلم ، ومعنى اذا هوى أى اذا انقطع عن جميع ما سوى الله تعالى ،
وما ضل هنا بمعنى ما ضل عن قربته تعالى .

ايضا يروى القنبرى عن جعفر الصادق فى تفسير قوله تعالى
« فاوحى الى عبده ما اوحى » .. قال : سر الحبيب مع الحبيب ، ولا
يعلم سر الحبيب الا الحبيب » ..

خلال حياة جعفر الصادق ، تنبأ يوما للمنصور بأن امر الخلافة
سيكون للعباسيين بعد الامويين .. وتنبأ بالقتل للثوار العلويين .. وحين
وقع الامر الاول سماه الخليفة المنصور باسم جعفر الصادق ، وصار

الوصف له اسما ..

والثابت تاريخيا ان جعفر الصادق كان يلبس الصوف ، وقد سئل مرة لماذا ترتدى الحرير ، فكشف عن ثياب الحرير فاذا تحتها ثوب من الشعر الصوفي الخشن .

وصار الصوف لباسا للزاهدين والصوفية ..

استغرق الصوفية وقتا حتى صار الصوف لباسا عاما لهم .. وينقسم العلماء في لفظ الصوفية الى اكثر من فريق ، يرى بعضهم ان الصوفية لفظ مشتق من الصفاء ، ويستبعد البعض هذا الرأي ويروى ان الصوفية لفظ مشتق من الصوف ، ويرى البعض ان الكلمة اليونانية « سوفيا » بمعنى الحكمة هي اصل كلمة التصوف ..

وربما كانت الكلمة مشتقة من هذا كله .. غير ان هنالك دلائل تشير الى ترجيح الصوف ..

نحن نعرف من تاريخ الأيام الأولى للإسلام كيف كره الإسلام ان يلبس الرجل الحرير ، ويبدو ان خشونة الرجولة في الإسلام وترفعها على لبس الحرير كانا امرين مستقرين تماما طوال بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوال فترة الخلفاء الراشدين ..

ويذكر ابن سعد ان النبي لم يسمح لاحد من الرجال بلبس الحرير الا لعبد الرحمن بن عوف وذلك لانه كان رجلا مصابا بمرض جلدي « او حساسية جلدية » . ومعنى هذا ان لبس الحرير كان محرما على الرجال في بداية الإسلام ، ثم مر الوقت ، ووليت الدولة الاموية الحكم ، وعاد الحرير الى الظهور مره اخرى . ولم يكن الحرير صافيا هذه المره انما كان منسوجا بالذهب والفضه ..

يلفت د . كامل الشيبى نظرنا لما كتبه السعوى في وصف سليمان ابن عبد الملك الذى ولى الخلافة سنة ٩٦ اى بعد موت الحجاج بأفاعيله في الكوفة .. قال السعوى « وكان يلبس الثياب الرقاق (يقصد الرقيقة الغالية) وثياب الوشى « يقصد الحرير الموشى بالذهب والفضة والقصب « وفى ايامه عمل الوشى الجيد فى اليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس

الناس جميعا الوشى جبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس . وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته الا فى الوشى ، وكذلك عماله وأصحابه ومن فى داره ، وكان لباسه فى ركوبه وجلسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه احد من خدامه الا فى الوشى حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدره وشى « صديرى منقوش » وعلى راسه طويلة وشى « غطاء راس موشى » وأمر ان يكفن فى الوشى المثقلة .

ما الذى نفهمه من سطور المسعودى .. ؟

واضح ان الترف كان قد تسلل الى قمة النظام الاسلامى الحاكم يومئذ .. وواضح ايضا ان لبس الحرير أصبح يمثل سياسة عامة اتخذتها الدولة الاموية وأمرت بها خلفاءها وعمالها .. ولم يكن الخليفة يرضى بلبس شئ غير الحرير المنسوج بالذهب او الفضة او القصب ، وصار هذا النموذج سائدا بالنسبة للحكام وعمالهم وخدمهم حتى الطباخين منهم ، فقد كان الطباخ الاموى يرتدى الحرير المنسوج بالقصب ولا يدخل على الخليفة او امير المؤمنين او الحاكم الأعلى الا وهو يرتدى هذه الثياب ، فترتاح عين الخليفة ولا يجرحها لبس الصوف الخشن ..

وكانت الكوفة مركزا من مراكز صنع الحرير فى العالم الاسلامى مع الاسكندرية ، ولا زالت كلمة « الكوفية » التى تغطى الرقبة منتقة اصلا من الكوفة ومنسوبة اليها ، وأراد الزاهدون فى الكوفة ان يخترعوا أسلوبا للمعارضة لا تستطيع سلطة ان تؤاخذهم عليه .. وهكذا لبس الزهاد الصوف ليميزوا انفسهم عن حكام الدولة الاموية ، وكان لبس الصوف يتفق مع المعارضة السلبية التى يتخذها قادة الزهد وزعماءه .. وقد رأينا كيف أنصرف ابناء على بن الحسين بن على الى تحصيل العلم ونشره والبعد تماما عن السياسة وبحارها المضطربة ، وسلك الزهاد مسلكهم هذا ، فابتعدوا عن دنيا الفتن وأرادوا اظهار معارضتهم للحرير المنسوج بالذهب والفضة ، فارتدوا الصوف ..

ولم يكن الصوف يومئذ غالى الثمن كما هو اليوم ، ولا كان ناعم الملمس كما هو اليوم ، انما كان يصنع من صوف الحيوانات ووابارها ، فيجئ خشن الملمس وخيص الثمن ..

وفي كبار الزاهدين من كان يلبس الصوف ويخفى لبسه للصوف ،
اتقاء للمظاهر الكاذبة ، وقد حكى لنا كتب القدماء ان سفيان الثوري لام
جعفر الصادق على لبسه الحرير . فأراه جعفر تحت الحرير ثوبا من
الصوف الخشن او الشعر الخشن .

وهناك من يعتقد ان الصوفية قلدوا الرهبان المسيحيين في ارتداء
الصوف . وكان هؤلاء الرهبان يرتدون الصوف معظم الوقت ، ولكن
الآراء تميل مع الكفة التي تقول ان لبس الصوف لم يكن تقليدا للرهبان ،
وانما كان مقاومة سلبية للاتجاه الاموى الذي يحاول بث الرفاهية في
الملابس والمجتمع ..

وقد كان الصوف مادة لا يعبا بها العرب ، انما كان شيئا مهملا
لا قيمة له ولا سعر ، ولم يكن العرب يلبسون الصوف المنسوج حتى في
الشتاء ، انما كانوا يتغلبون على برد الشتاء بارتداء الفرو او القمصان
المبطنة او المحشوة . « وهو لباس من القماش يحشى القطن داخله ليقى
من البرد » ..

وقد اهتمت كتب العصور القديمة التي تتحدث عن ثياب العرب
الصوف اهمالا يكاد يكون تاما ، ويبدو ان الصوف كان لباس الفقراء
والمعدمين .. وحين ارتداه الزاهدون والصوفية ، كان هذا اشارة موحية
بانهم ينبذون المظاهر الاموية والترف السائد ، ويختارون طريق الفقراء
ولباس الفقراء ..

ولسنا نعرف على وجه التحقيق من هو اول رجل اطلق عليه لقب
الصوفي ، لقد اختلف الباحثون على ثلاثة اشخاص ، جابر بن حيان
وابو هاشم الكوفي ، وعبدك الصوفي ..

اما جابر بن حيان فتلميذ جعفر الصادق ، او عبده كما ورد في خلاصة
الاثر ، وكان يلقب بالصوفي ، واختلف الناس في امره . فالشيعة يزعمون
انه واحد منهم ، والفلاسفة يدعونه لانفسهم ، واهل صناعة الذهب
والمعادن يرون انه كان واحدا منهم ، وكان جابر بن حيان يشتغل يعلم
الكيمياء ، ولم يعرف عنه انه كان صاحب مجاهدات في الصوفية ، ايضا

لم يعرف عنه انه نطق بأقوال الزاهدين . ويرجح في حقه ان لقب الصوفية الصق به نتيجة اخذه من الحكمة اليونانية « سوفيا » وعلومها .

اما أبو هاشم الكوفي فقد كان معاصرا لسفيان الثوري ، ويقول عنه سفيان « لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء » .

ويورد بعض المؤلفين ان أول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الكوفي سنة ١٥٠ وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ ..

ويعلق بعض المؤلفين على تسميته بالصوفي بأنه كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كما يفعل الرهبان ، ويقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى ، غير ان النصارى اضافوا الحلول والاتحاد الى عيسى عليه السلام وازدادهما هو الى نفسه ، وكان مترددا بين هاتين الدعوتين ، ولم يعلم على ايهما استقر في النهاية « كما يورد صاحب طرائق الحقائق » .

والاخبار الواردة عنه مضطربة ، وتعذر في اضطرابها الاخبار الواردة عن جابر بن حيان أو يزيد .. وينقلون عن جعفر الصادق انه قال فيه « انه فاسد العقيدة جدا وهو اتدع مدها فقال له التصوف وجعله مفرا لعقيدته الخبيثة » .

اما عبدك الصوفي فكان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية صوفية تأسست في الكوفة ، وقد كان عبدك هذا رجلا زاهدا متزويا توفي في بغداد سنة ٢١٠ تقريبا ، ويحدثنا عنه كتاب الرد على اهل الاهواء والبدع انه « اى عبدك الصوفي » كان على رأس فرقة من الزنادقة ، واهم ما في قصة عبدك الغامضة انه كان أول كوفي يطلق عليه اسم صوفي بعد انتقاله الى بغداد .

ولعل من العسير اليوم ان نعرف أول من اطلق عليه لقب الصوفي ، او نقطع في هذا البحر برأى نظمن اليه .. كل ما نريد ان نلاحظه جيدا ان هناك احتمالا قويا ومؤشرات عديدة لخروج التصوف من الكوفة .. وقد مر الزهد بمراحل عديدة حتى صار الى التصوف ..

وبعد ان كان الزهد حلا سعيدا - او حلا وحيدا بمعنى اصح - امام
ابناء الحسين ، وبعد ان كان البكاء الطويل والدموع التي لا تجف هي
اول بحار سبغ فيها الزهد ، دخل الزهد طورا جديدا بدحول شخصيات
جديدة فيه ..

وينسب لسفيان الثوري « الذي ولد سنة ٩٧ هجرية » بدء هذا الطور
الجديد الهادي .. فبعد ان كان الزهد سباحة في الدموع وغربة سببها
فقد الاحبة ، صار الزهد هادئا متأملا صامتا مفكرا ..

بدأ الاتجاه الى التفكير بدلا من الهرب منه ..

وهكذا سئل سفيان الثوري يوما بعد ان ذاع واشهر صيه : ارى
الناس يقولون سفيان الثوري وانت تنام الليل ..

يريد السائل ان يقول لسفيان انك لا تتعبد اثناء الليل عبادة تفسر
شهرتك بالعبادة ..

وكان رد سفيان عليه وجيزا مختصرا وجامعا في نفس الوقت .. قال
سفيان « اسكت .. ملأه هذا الامر التقوى .. »

يريد ان يقول له ان اهم ما في الزهد هو التقوى ، وليس السهر
والعبادة وكان سفيان متفرغا للعلم ، ويبدو انه قطع شوطا طويلا من
العلم فصار اكثر ميلا الى الحزن .. وكان يؤثر عنه قوله :

« لو لم اعلم لكان حزني اقل .. »

كان سفيان الثوري سائحا من السائحين في الارض .. وكانت
السياحة في الارض يومئذ بدعة ، ولكن سفيان الثوري كان يسيح رغبة
في المزلة ، قاصدا التأمل والتفكير ..

كان رايه ان من خالط الناس داراهم . ومن داراهم راءاهم ، ومن
راءاهم وقع فيما وقعوا فيه ، فهلك كما هلكوا .

وكان سفيان زيدا ، وناصر محمد بن عبد الله بن الحسين الناصر
بالمدينة ، وباع له واكتسب عداء الدولة بهذا الموقف ، وكان السلطان

يطلب رأسه ، ولكن سفيان لم يشترك في القتال لأنه أثر السلم كما يقضى بذلك مبدأ الزهاد .

ويبدو أن اختيار سفيان للزيدية جاء نتيجة اتفاق الزيدية مع تفكيره الحر فالزيدية لا تجعل الامام معصوما ، وهو ليس بالضرورة أعلم المسلمين أما التفوق في العلم فبابه مفتوح للجميع .. من شاء أن يدخل دخل .

وقد دخل سفيان الثوري باب العلم وتفوق فيه : وكان جريئا في الحق ، فقد سلم على الخليفة المهدي تسليم العامة ، ورفض أن يظهر للسلطان أى مراعاة خاصة .

بعد سفيان الثوري جاء داود الطائي وهو رجل اتم تعلمه على يد شيخه فلما امتحنه الشيخ قال له معقبا : **بقي العمل به** .

يقصد الشيخ بقي العمل بما تعلمته ..

ونازعته نفسه الى الوحدة والعزلة ، واعتزل داود الناس واتخذ التبتل منهجا لسلوكه وحقيقة .. ولم يتزوج داود وبقي اعزب اربعة وستين عاما ، وترد في سيرة داود اشارة الى كونه شيخا لمريد آخر ..

كان الدور الذي لعبته الكوفة في نشأة التصوف بارزا بغير شك ..

ان حركات الغلاة من الشيعة ، وحركات الإمامة ، وفكرة الشيخ والمريد ، والمقاومة السلبية التي تأخذ شكل ارتداء الصوف ، والعاطفة الدينية التي كانت تستغرق الكوفيين ، واللون الشيعي الذي كان يصيغ الكوفة .. استطاع هذا كله ان يعين على نشأة الزهد وتطوره الى التصوف ، ولم تكن البصرة بمعنى عن تيارات تجعلها هي الاخرى حضانة للزهد المفضي الى التصوف ..

ورغم قرب البصرة والكوفة ، فقد كان بين البلدين تضاد قوى ، يتضح في كون الكوفة مغلقة على نفسها ، وكون البصرة مفتوحة على التيارات الأجنبية الوافدة .. وكانت البصرة تسمى بأرض الهند ، كما كانت من الناحية الادارية مركز حكومة خراسان أيام الامويين ، وعلى حين اتصفت الكوفة بالاصالة العربية ، اتصفت البصرة باختلاط الثقافات .. وقد كانت البصرة على تخوم فارس ، ولهذا نشأت فيها دراسات اللغة

العربية كاصول الصرف والنحو لتعليم الاعاجم الداخلين في الاسلام واصبح التلاميذ مع الوقت اساتذة لهذه العلوم ومن حملتها ، وظهر في البصرة أول واضع للنحو العربي أبو الأسود الدؤلي .. وكان في أساتذة اللغة العربية من يقوم بتفسير القرآن ، فيفسر للعرب باللغة العربية ، ويفسر للذين انحدروا من دماء فارسية باللغة الفارسية .

ولعل أطرف ما قيل عن الفرق بين الكوفة والبصرة ما قاله كتاب مروج الذهب . فقد شبه البصرة بأنها عجوز أوتيت من الحلى والزينة ، أما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلى عليها ولا زينة ..

وكانت الحياة في البصرة سهلة طيبة ، ويبدو أن الاسمار فيها كانت رخيصة حتى وصفها أحد الكتاب بأنها خير البلاد للجائع والغريب والمفلس .. كما كانت الاحوال فيها أكثر استقرارا من الكوفة ، وكان أهل البصرة أكثر اموالا واولادا واطوع للسلطان ، ولعل اخطر فرق بين المدينتين هو الفرق بين ضميرهما ، فعلى حين ظل الزهد في الكوفة مشوبا بالتوجس والخوف استطاعت بدور الزهد في البصرة أن تنتج لنا زهور الحب ..

وكان جو الكوفة مليئا بغبار المعارك التي أدت الى عكس النتائج التي يريدها الكوفيون ، ولهذا لم يستطع الزهد الكوفي أن يخرج من نطاق الخوف الى نطاق الحب ، فقد كان ضمير الكوفة مثقلا بالاثم الذي يعايناه اهلها ، وكانت خبيثة الكوفيين تتصل بخيانة المبادئ والتخلي عن المثل العليا عندما تحين ساعة الجذ والقتال ، أما البصرة فكانت ذنوبها فردية لا تتصل بخيانة المبادئ أو الكبائر المتصلة بالمثل العليا ، ولهذا قطعت البصرة المسافة بين الخوف والحب أسرع من الكوفة ..

كما ان تشيع الكوفة كان يلتصق بالبيت ، وكانت خيانتهم لال البيت هي السر في عدم استطاعتهم الارتفاع بحب آل البيت الى الله ، على عكس البصرة التي لم يكن لها ارتباط شيعي بامام يفترض في اتباعه ان يعتبروا حبه جزءا من عقيدتهم .

وكان الحسن البصري هو مؤسس مدرسه الزهد في البصرة ، وكان

الرجل زاهدا يصدر عن روح الاسلام الحقيقى ، وقد ولد الحسن البصرى في المدينة وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان وسمعه يخطب مرات ، وكان ابوه من الاسرى ، ولم يكن عربيا ، ويقال انه ولد على الرق ، وكانت امه خادمة لام سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يسلم الحسن البصرى ، وقد نسب الى اسم المدينة التي اشتهر فيها علمه وزهده ، لم يسلم من اساطير الصوفية فهم يحكون عنه انه اطلع على الاسرار الدينية وعلم الباطن ، ومهما يكن من امر فقد كان الحسن زاهدا رقيق القلب بالغ الحساسية عميق الحزن ..

كان اذا اقبل فكأنما اقبل من دفن حميمه .. واذا ذكرت النار . فكأنما خلقت من اجله ، وكان يقول ان طول الحزن في الدنيا بمثابة تلقيح للعمل الصالح . وحين سئل عن سر احزانه قال :

« ان المؤمن لا يسعه سوى الحزن لانه بين مخافتين .. ذنب قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، واجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك . وكان الحسن البصرى يلبس الصوف .. »

وكان الحسن البصرى يبكى اذا نصب قامته للصلاة في جوف الليل .. وكان المجتمع البصرى مليئا بالذنوب والانحلال الخلقي .. من مواخير منصوبة اثناء الليل ، وحقوق منهوبة في النهار المبصر ، كما اشار الحسن البصرى الى الشلوذ الجنسي الذي كان منتشرا في البصرة ..

وطوال حياة الحسن البصرى كان الزهد لم يزل يسبح في مياه الخوف .. وحين جاء عامر بن عبد الله بن عبد قيس .. كان هذا ايلانا بخروج الزهد من منطقة الخوف من الله .. الى منطقة الحب لله عز وجل ..

كان عامر اول زاهد تخلص من احزانه وهمومه واهرق نفسه في بحار الحب حين قال :

« احببت الله حبا سهلا على كل مصيبة ، وودعاني بكل قضية ، فما ابالي ما اصبحت عليه » .

وخرج الزهد من حدوده الضيقة التي تحاصرها الاحزان والبكاء الى

عالم أكثر رحابة .. وادمى الى التفاؤل ، واعدد واكثر تركيبا ..
ذلك عالم الحب ..

وبدا الزاهدون يتجهون الى الله بالحب .

قال الزاهد : يا اخوتاه هل فيكم من احد لا يحب ان يلقي حبيبه ،
الا فاحبوا ربكم وسيروا اليه سيرا كريما .

وجاء عتبة الفلام فكان اكثر اندفاعا في الحب واقدر على التعبير عنه
في قوله : « ان تصدبنى فانى لك محب ، وان ترحمنى فانى لك محب »
وقال : العرس في الدار الآخرة ، اشارة الى انه لا يفكر في الاعراس التي
تنعقد على هذا السطح الترابى للارض ..

وبدأت الكلمات التي تربط الزهد بالحب تطفو على سطح الحياة ..

وقال القائل : « والله لو كشف الفطاء ما ازددت يقينا » ..

ولم يعد الخوف من الله تعالى هو الذي يحكم قلوب الزهاد والصوفية ،
ولا صارت الرغبة في الجنة أو الخوف من النار هو السر في التقوى ..
صار الحياء من الله تعالى وجه حبا خالصا لوجهه هو المسيطر على
القلوب .. ودخل الزهد في مياه التصوف بهذه العاطفة القوية ..

وبدأت بحار الحب عند الصوفية تستكمل شكلها من امطار الزاهدين
القدامى ودموع الخائفين .

ومع القرن الثالث للهجرة .. كان الاحساس بالاسلام قد صار
احساسا معقدا مركبا كما تقول بلغة الفن ..

لم يعد هو الطاقة الدافعة المؤثرة التي تستولى ببدايتها على الروح ،
انما صار مؤسسات تلاحت مع الواقع بثقافاته المختلفة ورؤاه المتنوعة
.. وكان بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغ الشفافية والصفاء ،
ورغم عمقه العظيم ، كانت العين تستبين في قاعة المسك ولالىء المحارات ..
ولم يكن ممكنا ان يفرق احد في هذا البحر ، بعد ان ابلغ رسول الله صلى
الله عليه وسلم رسالة الله ، وصار القرآن الكريم هو سفينة نوح التي
ينجو من يلوذ بها ، ولا يخشى اللألد بها من امواج العواصف أو أمواج

الزمن ..

ولم يكد هلال القرن الثالث الهجرى يستكمل استدارة القمر حتى
كان الوضع قد تغير ..

لم يعد بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف عن قاع المسك
ولآلىء المحارات ، قد أريقت في هذا البحر الكريم دماء أهل بيته ،
وتصاعد ربح المسك من دم الشهداء المراق ، واخترع الحب الذي ينقصه
النضوج كلما كثيرا سب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منه
بريء ..

ومن الطبيعي ان حركة الوضع في السه ، او الكذب على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ونسبة الاحادث اليه ، شطت مع نشاط الفتنة
وانقسام الفرق واقتتال المقاتلين ، ومن المدهش ان الحدث المتواتر عن
رسول الله هو الحدث الذي يقول فيه .

— من كذب على عامدا متعمدا فليتبوا مقعده من النار ..

ورغم هذا النص الحاسم الذي يتوعد الكاذبين على الرسول ، فقد
نشطت حركة الكذب ووضع الاحادث ، كما كان الناس اذا استحسنوا
قولا نسبوه للرسول ، كما كان الوعاظ يحكون الحكايات الطويلة المؤثرة
ذات المضمون الوعظي وينسبونها للرسول ، وزاد ركام الاحداث المنسوبة
للرسول .

ونشط اليهود الذين اعتنقوا الاسلام الى وصع الحوادث والاساطير
والحكايات الخرافية التي عرفت باسم الاسرائيليات وكان هدفها تحطيم
الاسلام من داخله كقنابل الأعماق ، وراحت كل فرقة تأخذ من هذا
الركام ما يتفق مع اغراضها ..

ومع القرن الثاني للهجرة كانت كلمة الزهد قد صعدت لبؤرة
الشعور ، ومن الغريب ان هذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم غير مرة
واحدة في قصة يوسف عليه السلام في قوله تعالى « وشروه بثمن بخس
دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » . وليس لها هنا كما يقول
يكولسون اى معنى سوى . وانما هي مسعملة في معام اللوم والتأنيب .
ولكن كلمة الـسـ وهى اقدم من كلمة الزهد . وردت في القرآن في قوله

تعالى « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » سورة الرمل . والمراد بها نوع من أنواع العبادة التى امر بها الله ، كما ان السياحة فى الأرض وردت فى القرآن الكريم لقوله تعالى « **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف** » سورة التوبة ..

ايضا وقف القرآن الكريم ضد الرهبانية ، ووصفها بأنها بدعة ابتدعتها المسيحية .. قال تعالى « **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله** » ..

ايضا صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بان الاسلام يخلو من الرهبانية « **لا رهبانية فى الاسلام** » .

ويخطئ نيكولسون حين يتصور ان فى المسلمين الأوائل من سلك هذا الطريق ، ويحتج بما جمعه جولدتسهر من طائفة من الأمثلة على نماذج كانت معاصرة للنبي أو قريبة من زمنه ، عرفوا بالتكفير عن معاصيهم بهذه الطرق ..

من هؤلاء بهلول بن ذؤيب الذى خرج الى جبل بجوار المدينة ، ولبس لباس الشعر الخشن وربط يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد وجعل يصيح « يا رب » انظر الى بهلول يرسف فى الأغلال » ..

وكذلك ابو لبابه حين ندم على خيانة ارتكبها ، فقد ربط نفسه الى عمود فى مسجد المدينة وبقي على هذه الحال حتى ايقن ان الله غفر له ، وهناك أنواع أخرى من أساليب الندم والتوبة كانت متصلة بشعائر الحج الى البيت الحرام ، فكثيرا ما ذهب الحجاج الى مكة مشاة حفاة الاقدام ، او طافوا بالكعبة وهم مقودون كالجمال بحلقات فى أنوفهم ، وقد سمعنا بحجاج قطعوا على أنفسهم عهد الصمت وان ابا بكر ابطل هذه المادة واعتبرها من اعمال الجاهلية .

هذا ما يسوقه نيكولسون فى الدلالة على وجود الزهاد فى العصر النبوى ، وليس هذا التصور فهما سليما لما حدث ، فان هذه النماذج القليلة التى أوردها المستشرقان لم تكن نماذج للزهد ، وانما كانت نماذج للندم التابع من معصية مؤقتة ، وكان يزول بزوال اسبابه ، ولم يكن الرسول يتدخل فيه لمعرفة صلى الله عليه وسلم ان هذا ندم مؤقت

سرعان ما يزول بقبول التوبة ، وليس زهدا منظما له طقوس وتقاليد ،
وليس رهبانية لها قوانينها الحاكمة ..

.....

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا ..

إذا كان هذا الندم البالغ الذى يأخذ شكل تعذيب النفس ليس هو
الزهد الذى جاء به الاسلام .

فما هى نوعية الزهد الذى حمله الاسلام كمقيدة .. إذا سلمنا جدلا
بأن الاسلام حمل الزهد فى نياته كمقيدة ..

.....

سنبدأ براى الاستشراق أولا .. ثم تعرض لراى احد الدارسين
العرب ثم نقول ما نعتقد انه وجه الصواب فى الراىين ..

يقول نيكولسون فى كتابه « التصوف الاسلامى وتاريخه » ..

انفرد القرن الأول فى الاسلام بالعوامل الكثيرة التى شجعت على ظهور
الزهد وانتشاره ، فالحروب الاهلية الطويلة الدامية التى وقعت فى عهد
الصحابه وبنى امية ، والتطرف العنيف فى الاحزاب السياسية ، وازدياد
التراخى والاستهانة فى المسائل الخلقية ، وما عاناه المسلمون من عسف
الحكام والمستبدين الذين يملون ارادتهم وآراءهم الدينية على خيرهم ممن
اخلصوا فى الاسلام ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تنصل بالخلافة
الدينية « الثيوقراطية » التى حاول المسلمون ارجاعها ، كل هذه عوامل
حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها ، وحولت انظارهم نحو
الآخرة ووضعت آمالهم فيها ، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة ،
وانتشرت على مر الايام ، فكانت زهدا دينيا خالصا فى بادئ الامر ، ثم
دخل اليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية الى
اقدام صورة تعرفها للتصوف الاسلامى ، وظلت هذه الحركة تحمل طابع
مذهب اهل السنة الدقيق طيلة حكم بنى امية ، اى نحو من قرن من
الزمان .. وكان القائلون بها من اشهر انقياء المسلمين ، بل كان كثير منهم

من القراء واهل الحديث وعلماء الدين ، ومن هؤلاء جميعا استمدت قوتها وشبابها ، واشهر شخصية في الزهد تمثل روح العصر الذي نتكلم عنه هو المتكلم المعروف الحسن البصري (نوى ١١٠ هجرية) ، والذي يقتر مؤسسا لمدرسة البصرة في الزهد والتصوف .. وتدل اقواله واقوال غيره من اوائل المسلمين بوجه عام ، دلالة لا تدع مجالا للشك على ان العوامل التي دفعتهم للزهد هي .

اولا : الرعب الذي القاه القرآن في قلوبهم من هول يوم القيامة وعذاب النار ..

ثانيا : ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصي ، مما دعاهم الى قضاء حياتهم في التوبة والاستغفار .

قال سفيان الثوري (متوفى سنة ١٦١ هجرية) ما اطاق احد العباد ولا قوى عليها الا بشدة الخوف ..

انتهى رأى بيكولسون . وهو رأى بواقعه على اسائه .. ولكننا نرى نتيجة مضطربة اعظم الاضطراب متهافة اشد التهاوت ..

ان الرجل يورد اسبابا حقيقية يستمد بها بامانة من المحيط الخارجى الذى احاط بالاسلام ، ولكنه يقفز - فى الظلام الى نتيجة مفاجئة ، يرى ان هناك دلالة لا تدع مجالا للشك فى سببين نشأ منهما الزهد .. هما .

١ - الرعب الذى القاه القرآن فى قلوبهم من هول يوم القيامة .

٢ - ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصي ..

وهذان السببان داخليان تماما . ولا علاقه لهما بظروف الاسلام الخارجية ..

ولقد اخطا المستشرق حين تصور ان القرآن يلقي الرعب فى قلوب المسلمين . كما انه اخطا حين تصور ان الغم والحزن نتجا من تمزق المسلمين بين رعب التخويف وسوء الحال ..

ان هذا التصور الاستشراقى يجعل القرآن اداة قمع لقوى الانسان وطموحه ، ويجعله سلاسل تكبل انطلاقه

وهذا التصور ليس صحيحا لحسن الحظ ..

ان القرآن - بكل آياته المربعة التي تخوف من عذاب النار - ليس موجها الى المسلمين ، انما هو موجه للكافرين ، وليس للمسلم الموحد بالله ان يخشى النار ، لانه ليس مقصودا بها ، كما ان القرآن لا ينشئ في نفوس من يقرؤه أى غم أو حزن ، بل لعله ينشئ عكس ذلك تماما ، ولو كان صحيحا ما يذكره المستشرق من تكبيل القرآن للمسلمين وتخويفه لهم ، ما انتشر الاسلام بالسرعة التي انتشر بها ، ولما اخضع له الحضارتين الكبيرتين في هذا الزمان البعيد .. ان القرآن صنع للمسلمين اجنحة من الامل والاشراق طاروا بها في سماء الحياة . على حين قعدت بقية المبادئ باصحابها واخذت بهم الى الارض .. ولم يكن القرآن يحمل الى النفوس دفعات من الغم والحزن نتيجة الشعور بالمعاصي ، لان الله تبارك وتعالى نص في القرآن الكريم على قبول توبة التائبين ، كما نص على ان الله تعالى « يغفر الذنوب جميعا » ، كما نص على ان الله عز وجل « لا يغفر ان يشرك به » ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » كما نصت اصول العقيدة الاسلامية على ان الاسلام يجب ما قبله ، ويلغى تماما كل شرك أو كفر كانا قبله ..

من اين يجيء الغم والهم اذا ، ومن اين ياتي هذا الرعب الذي يزعم نيكولسون ان القرآن القاه في القلوب ..

وفي بيان حب الكافرين او المشركين لعقائدهم ومبادئهم . اشار القرآن الى حقيقة جوهرية غابت عن العالم الباحث ..

قال تعالى « والذين آمنوا اشد حبا لله » ..

وقال تعالى في بيان حقيقة الصلة بين المسلمين الموحدين بالله وخالقهم الأمر الأكرم « يحبهم ويحبونه » ..

فاشار سبحانه وتعالى الى ان حقيقة الصلة بالله هي الحب .. لا العهر .. وهي الاكرام .. لا الخوف ..

وعقيدة هذا شأنها لا تحمل رعبا ولا هما ولا غما ..

.....

ولننظر الآن في رأى احد الباحثين من العرب .. يقول الدكتور كامل

الشيبى فى التفرقة بين زهد الاسلام الاول والزهد المنظم الذى نادى به رهاد الكوفة والبصرة والشام وصار مقدمة للتصوف . .

سنرى ان الاسلام كان من اصول الزهد الاولى ، ذلك ان الاسلام قد جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية ، وقد كان صبغ الاسلام دعوته بالزهد والتقشف هو العلامة المميزة له عن النظام القرشى فى مكة والشعار الذى يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون والعبيد حول النبى ويدخلون فى دين الله افواجا . ذلك ان الاسلام لم يكن منجما من الذهب ولم يكن شركة لها اموال وتجارة ، وانما كان دعوة تهدف الى اقرار مثل من العدالة والمساواة لم تكن موجودة ، ولو استندت الدعوة الى النظام السائد واشبهته ما راينا المستضعفين والفقراء والعبيد انصارا له ، وكان حركة انقلاب يقصد بها الاستيلاء على السلطة ، ولهذا عجزت قريش عن تحطيم الاسلام المكى ، وكانت مقاومته محاطة بالاشواك . وقد كان الزهد الذى اصطبغ به الاسلام مانعا لارستقراطية قريش من الدخول فيه وتفويضه ، فقد كانت ضربة دخول الغنى فى الدعوة ان يخرج عن امواله وان يساوى زملاءه فى الفقر ، والامثلة على نزول المسلمين الصادقى الايمان عن ثرواتهم مشهورة ، وهذا ابو بكر وعثمان من الامثلة الناصعة على ذلك ، ولعله ليس من الغريب ان نجد حركة الزهد فيما بعد تعكس لنا هذه الصورة ذاتها بنزول محمد بن سوقه الزاهد مولى بجيلة ، عن مائة وعشرين الف درهم من امواله ليدفع بها البلاء عن اهل الكوفة . . وبهذا يتبين لنا ان الزهد صورة اصيلة من صور الاسلام ، وفقرة هامة فى منهجه التطبيقى ، اريد به نزول القادة الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم ، فاصطبغ زهد الاسلام بصفات الداخلين فيه من الفقراء والعبيد ، فكان المسلمون الاولون وحتى خلفاءهم يلبسون اللباس الخشن ويتناولون الطعام البسيط ولم يكن ذلك منهم نوعا من العبادة الزائدة او شيئا مضافا الى الايمان المتميز ، وانما كان من طبيعة الاسلام التى دخلت نفوسهم وتقمصتها .

ولعل ابداع مثال ضرب للتدليل على هذه الحقيقة ما اورده ابو طالب

المكى من انه « لما جاء عبد الله بن عامر بن ربيعة في بزمته الى ابي ذر رضى الله عنه وسأله عن الزهد واخذ يتكلم فيه جعل ابو ذر يضرب به في كفه ثم أعرض عنه ولم يكلمه ، فغضب ابن عامر وكان قرشيا شريفا وشكاه الى ابن عمر رضى الله عنه فقال له : هذا ما فعلته بنفسك ، تأتي الى ابي ذر في هذه الثياب وتسأله عن الزهد .

وهكذا اوضحت صراحة ابي ذر معنى الزهد وحكت لنا قصته الحقيقية واوضحت حقيقة الملبسين بالاسلام من الاستقراطيين القدامى الذين جاء الاسلام لحقهم » .

انتهى كلام الدكتور الشيبى ، ورغم ان فيه جزءا كبيرا من الصحة ، الا اننا لا نستطيع موافقته على النتائج القاطعة التى ينتهى اليها دون معاودة الروية ..

ليس صحيحا ان الاسلام جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية.

الصحيح ان الاسلام كان دعوة حضارية لتصحيح صورة البشر عن الله عز وجل .. وكان رسالة الالهية ترسم للبشر طريق الخلاص الروحى والاجتماعى ، واذا كانت الارستقراطية القرشية ستقف ضده ، فالذنب ذنبها انها تقف ضد حضارة الانسان المؤيدة من الله ..

لكن الاسلام لم يات ليحقق اغنياء مكة او الارستقراطية القرشية ، بهذا المفهوم الضيق يتحول الاسلام الى ثورة تشبه ثورات الاشتراكية التى يقوم بها الفقراء ضد الاغنياء مدفوعين - ومعهم كل الحق - بدوافع اقتصادية . نحن نرفض هذا التفسير الاقتصادى لنزول الاسلام ، كما نرفضه لتفسير زهد المسلمين ، كما نرفض تفسير المستشرق النفسى الخاطيء لزهد المسلمين ، ونرى ان الاسلام لم ينزل لضرب اغنياء مكة او الارستقراطية التجارية فيها ، فهؤلاء كانت تكفيهم ثورة يقوم بها الفقراء والجباة ، ولا يستلزم القضاء عليهم ان ينزل الله تبارك وتعالى رسالة هى آخر رسالاته الى البشر ، هذا تضيق لنطاق الاسلام وحصر لميدانه .

ايضا لم تكن ضريبة الدخول فى الاسلام ان ينزل الفنى عن امواله

ويخرج من ثرائه ، لم يكن هذا النزول عن الثروة شرطا للدخول في الاسلام ، انما كان نتيجة تترتب على فهم حقيقة الاسلام . و الفرق بين المعنيين بعيد ، لان القهر متصور في الحالة الاولى ، بينما الحب هو الدافع في الحالة الثانية . ايضا لم يكن نزول قادة الاسلام الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم كما يقول الدكتور الشيبى ، انما كان نزول القادة لمستوى الفقراء حياء من الله تعالى ورغبة في كسب رضائه سبحانه ..

لم يكن الزهد في الاسلام تكتيكا يقصد به ضرب مجموعة من الاغنياء ، كما لم يكن تكتيكا الغرض منه اقناع الفقراء باننا منكم ومعكم ، انما كان الزهد في الاسلام جوهر اساسه الحياء من الله تعالى .. فلا يأكل المسلم وجواره مسلم جائع ..

ولا يرتدى المسلم ثيابا ثمينة وجواره مسلم عار اما الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله من المسلمين .. اما هؤلاء فقد وردت في حقهم آيات تسلكهم مع الكافرين وتجعل لهم امتيازا أربح في العذاب .. فان الذهب والفضة التي اذخرت ولم تنفق في سبيل الله ، قد تحولت يوم القيامة الى هذا الغيب المروع الذى يطلعنا عليه الحق ..

قال تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فلدوخوا ما كنتم تكتزون » .

.....

نفهم من هذا ان اكتناز الذهب والفضة ليس من طبيعة المسلم .. لانه وقف لنمو المجتمع الاسلامى وحبس للمال الذى هو ملك الله تعالى وعدم انفاقه في خير المسلمين . وليس هذا من قيم المسلم ..

الزهد اذا طبيعة وجوهر من جواهر الاسلام .. ولكنه ليس هو الاسل المنشئ لنزول الاسلام ، انما هو عنصر داخلى من عناصر القيم في

هذا الدين ، وهو عنصر ظهر في بداية الاسلام ظهوره الطبيعي ، وكان جمالا يضاف الى جلال الاسلام ، فلما انحرف المسلمون كان طبيعيا ان ينحرف الزهد ويولد في شكله الفنى الجديد الذى نعرفه باسم التصوف .

كان انحراف الزهد عن طريقه وسيره في طريق التصوف مسألة طبيعية اقتضتها عشرات العوامل المختلفة ..

كما كان الطريق الجديد ممهدا لهذا التحول .. وبغض النظر عن الظروف الموضوعية التى ساهمت في ميلاد التصوف ، فهناك ظروف شخصية كانت تكفى وحدها لميلاده .. هذه الظروف هى اختلاف مشاعر الخلق وطباعهم لقد خلق الله تعالى وجوه الخلق وليس فيها وجه يشبه الآخر . وصور النفوس اشد تنوعا من صور الوجوه . نحن نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق الناس سواء في العقول أو المشاعر أو القلوب أو الاحساس بالأشياء ..

نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق انسانا يشبه انسانا آخر في تكوينه النفسى أو أسلوبه في الاحساس ..

صحيح ان بين الناس أشياء عديدة مشتركة ، لكن الحس الداخلى يختلف من انسان الى آخر ..

في الناس المعتدل .. وفيهم المتطرف ..

وفي الناس من ينمو عقله الفلسفى ، وفيهم من ينمو وجدانه الروحى ، وفي الناس ذو الطبيعة السوية ، وفيهم ذو الطبيعة الفنية ، وتطلعنا الدراسات الحديثة في تكوين الفنانين على انهم من طينة تختلف كل الاختلاف من طينة البشر العاديين ، ان الاعتدال الذى يميز الانسان السوى أو العادى يخلق الفنان ، وعلى حين يؤمن الانسان العادى بالحياة الوسطية المعتدلة ويعتقد ان خير الأمور الوسط ، يرى الفنان ان التطرف مبدؤه ، وهو لا يفعله ذلك افتعالا والا كان كاذبا ، والأصح انه يولد بهذه الطبيعة التى تظهر نتيجة الثقافة وقوى البيئة ..

والى جوار الانفعالات العنيفة التى تشتمل في روح الفنان ، يملك

الفنان رؤية تختلف عادة عن رؤية الانسان العادى ، ويملك الفنان هذه القدرة على الانتقال من اقصى اليمين الى اقصى اليسار دون جهد ، ويختار الفنان دائما ان يحيا في قلب الفلو ، والمبالغة ، والاختار ، والقلق .. وهو مسير في اختياره لان قوى داخلية تختار له وتفرض عليه .. ولو ركزت حياة الفنان واستقر وعثر على الجنة فانه ينتهى كفنان .. ولعل الفرق بين الفنان ورجل الشريعة هو الفرق بين رابعة العدوية مثلا وفقه مثل احمد بن حنبل ..

كان احمد بن حنبل في محنته خلال السجن يتسم برضا ويحس بالرضا .. وحين اشفق عليه بعض تلاميذه وحدثوه ان يصبر على عذاب السجن قال « انا جنتي في صدري » .

وحدد بكلمته الوجيزة الفرق بينه وبين غيره ..

ان احمد بن حنبل يحمل جنته في صدره .. انه رجل يعيش في جنة الرضا عن الله ، وليس يعنيه ان يوضع في السجن او في قصر .. فهو في الجنة سواء وضعوه في قلب النعيم او قلب العذاب .

هذه الطبيعة المستقرة الراسخة العارفة ، ليست طبيعة فنية .. لقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن الشعراء ، وهم رمز للفنانين ، والاشارة اليهم لم ترد في القرآن الكريم صدفة او اتفاقا . انما وردت لحكمة .. كان الله تبارك وتعالى ينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الشعر « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » يريد الحق تبارك وتعالى ان يقول ان الشعر موهبة يعلمها الله لبعض عباده ، ولم يكن الرسول - بما وهب من نبوة - في حاجة لهذه الموهبة الاقل .. ايضا لم يكن من المصلحة ان يكون في النبوة اى اثر لموهبة الفن ، لان الفن او الشعر هيام بين الاودية « الم تر انهم في كل واد يهييمون » والاودية كما اتفقنا ليست اودية مادية ، انما تنطبق على القلق المتصل بالمكان ، كما تنطبق على القلق المتصل بالزمان والافكار ..

ولقد حدد الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم طبيعة الشعراء والفنانين عموما ، وبين خصائصها الجوهرية التى لا تتفق مع النبوة ،

وانكر ان يكون النبی شاعرا أو يعلم الشعر أو علمه الله الشعر .
النوبة افق اعلى من كل الافاق ..
النوبة فوق كل تصور بشرى ، فهي اصطفاء من الله تعالى ، وحفظ
من الله تعالى ، وعصمة من الله تعالى ؛ واختيار من الله تعالى ..
والنبي بشر .. ولكنه المثل الاعلى للبشر ..
وليس كل البشر انبياء ..
وفهم النبي للعقيدة الاسلامية هو الفهم اللائق بجلال النبوة ..
وليس كل البشر انبياء كما تقول ..
واذا .. فمن الطبيعي ان يختلف فهم البشر العاديين للعقيدة عن
فهم النبي ..
ومن الطبيعي حين يلتقى الاسلام بانسان يملك طبيعة فنية ، من
الطبيعي لهذا الفنان ان يفهم الاسلام فهما يختلف فيه عن فهم النبي ،
وربما غلا بعض الشيء ، وربما بالغ بعض الشيء ، وربما كانت له رؤياه
الخاصة التى تختلف عن رؤية غيره ..
لهذا كله نحسب ان التصوف كان سينشأ لأسباب شخصية وبشرية
حتى ولو لم تساعده الأسباب الموضوعية في المجال الاجتماعي ..
وليست مصادفة بحتة ان معظم الصوفية شعراء وكتاب ، ليست
هذه مصادفة ..
انما تشير هذه الحقيقة الى حقيقة اخطر .. وهى ان معظم الصوفية
فنانون . . او اصحاب طبيعة فنية ، وفيهم من كان يستسلم لفنه ، وفيهم
من كان يلزم فنه بأصول الكتاب والسنة ..
ومن هنا جاء اختلافهم ..
اذا سلمنا بذلك ، فسوف نفهم كثيرا جدا من تناقضات الصوفية
ومبالغاتهم ، فان التناقض جزء من طبيعة الفن .. وجزء من تكوين الفنان

تأمل قوله تعالى عن الشعراء « **وانهم يقولون مالا يفعلون** » ..

ان هذه الآية الكريمة ليست انتقاصا من الشعراء أو سباً لهم ، انما هي كشف لهذا التناقض الذي هو جزء من الطبيعة الفنية ..

والشعر اداة من ادوات التعبير ، والاداة لا توصف بالخير أو الشر ، انما يتعلق الخير والشر بما يفصح به الروح الانساني خلال استخدامه للاداة .. وهناك شعراء قالوا الحكمة كلها في بيت واحد من الشعر كما صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اصدق بيت قالته العرب قول لبيد .

« **الا كل شيء ما خلا الله باطل** » ..

وهناك بالمثل شعراء حاربوا الاسلام ووقفوا ضده ، والعبرة بما يقوله الشاعر وما يفعله ..

نريد ان نخلص الى الحقيقة التالية ..

ان معظم الصوفية فنانون ..

نقول معظم الصوفية ، ولا نطلق الكلام ليستوعب الجميع ..

ومعظم الصوفية ذوو طبيعة فنية ..

ومعظم التراث الصوفي أدب من أرقى انواع الأدب وارفعه .. بكافة المقاييس النقدية القديمة والحديثة ، وسواء عرضنا هذا الأدب على نقاد العصور القديمة أو نقاد القرن العشرين ..

ونحسب ان هذا الرأي الجديد في مجال الدراسات الصوفية يمكن ان يصطدم بعقبات شتى .

وربما كانت هذه العقبات صادرة من هذه الهالات المقدسة التي أضفاها الزمن على مشايخ الصوفية وكراماتهم ..

ولكننا لا نعرف هالات مقدسة حول أحد من رجال الاسلام ..
واشرف خلق الله وأكرمهم عليه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

والتراب الذى يسير عليه النبى صلى الله عليه وسلم على راسى ، ودمى
كله فداء قطرة من عرقه .. ولكنه ليس مقدسا ..

كانت عظمة النبى صلى الله عليه وسلم انه افهمنا ان القداسة
الوحيدة لا تنصرف الا لله عز وجل .. ولا تقال الا عن الله عز وجل ، فهو
القدوس سبحانه ، وهو المقدس المتعالى وحده ..

وثمة فرق هائل بين الخالق والانسان ..

ولا قداسة لاحد من رجال الاسلام ..

فكلهم بشر يصيب ويخطئ .. وفيهم من يملك طبيعة متزنة عاقلة
وفيه من يملك طبيعة فنية متوهجة ..

وفى الصوفية من كان يملك هذه الطبيعة الفنية .

وسوف نحاول خلال تعرضنا للصوفية وآثارهم ، ان نبين هذه
الطبيعة الفنية ، سواء فى أسلوب حياتهم أو ابداع عقولهم من الادب
والشعر ..

كما سنحاول ايضا ان نقول .. متى يبدأ الفن ومتى ينتهى فى كلام
الصوفية ؟ ومتى يبدأ الدين ومتى ينتهى فى كلام الصوفية ؟

ونسأل الله تبارك وتعالى ان يوفقنا الى النجاة فى هذا البحر الذى
ننوى خوضه ..

.....

لنبدا برابعة العدوية

بحر رابعة العدوية ..

امراة .. صوفية ..

ليست مفاجأة ان نعثر على امراة صوفية ؟

ليست مفاجأة اذا كنا نعرف طبيعة الاسلام ، فان الاسلام دين النوع
البشرى كله ، وليس النوع البشرى قاصرا على الرجال دون النساء ،
كما ان المواهب التى وزعها الله تبارك وتعالى لم توزع على الرجال دون

النساء ..

كانت رابعة العدوية امرأة تملك طبيعة فنية مرهفة ..

وكانت لها رؤية خاصة في جوهر العبادة .. وكانت الى جوار ذلك من الفنانين المثاليين رغم حياتها التي كانت في جزء منها لا تنتمي للمثالية. وسنرى هذا كله في تاريخ حياتها المليء ..

وإول ما نحب ان نلفت اليه النظر .. رؤاها الخاصة للشخصية الالهية ..

الشخصية الالهية مسألة اهتم بها المسيحيون اهتماما اكبر من اهتمام المسلمين .. هذا رأى نيكولسون .. وهو رأى صحيح اذا نظرنا للقرنين الأولين بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا الرأى لا يثبت للصحة فيما تلا ذلك من قرون ، فقد كان موضوع التصوف هو البحث في الشخصية الالهية ، بل ان علم الكلام قبل التصوف انصرف الى هذا البحث ، ونقصد بمعنى الشخصية هنا القدرة على الاتصال ..

يقول وب في كتابه الشهير « الله والشخصية » : « اننا لا نصف الله بالشخصية الا اذا تصورنا امكان وجود صلات شخصية بينة ، من حيث هو معبود ، وبين الانسان من حيث هو عابد ، وان هذه الصلات الشخصية يمتنع وجودها اذا بولغ في جانب تنزيه المعبود او بولغ في جانب تشبيهه وتجسيده » ..

ولقد اعتنق نيكولسون هذا الرأى ، وان تحفظ عليه بقوله انه لا يظن ان هذا يقنع علماء الكلام من المسلمين ، لان العقيدة الاسلامية تنص صراحة على ان الله تعالى مخالف للحوادث ..

ولست ارى في رأى نيكولسون او رأى وب ما يصعب الاقتناع به ، ان الرأى يسلم كل السلامة .. اذ تؤيده آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن تنزيه الله « ليس كمثله شيء .. » وتتحدث في نفس الوقت عن سمعه سبحانه وبصره تعالى .. « وهو السميع البصير » ..

الصورة التي يقدمها القرآن لله عز وجل صورة ولا صورته ..

نعرف من القرآن أن الله تعالى يسمع ويرى « اسمع وارى »
ونعرف ان « يد الله فوق ايديهم » . . ونعرف انه « وما رميت اذ رميت
ولكن الله رمى » ونعرف ان الله يخالف الحوادث « ليس كمثله شيء » . .

ويحدثنا كبار العارفين بالله عن الله فيقولون :

« كل ما دار في وهمك ، وتصوره عقلك ، واستشرف اليه خيالك . .
فالله غير ذلك » . .

سبحانه وتعالى . .

كلمتان من كلمات التنزيه والتقديس يسوقهما المسلم اذا اراد ان
يتصور الله تعالى او يتحدث عنه . .

ولقد اصاب المستشرق « وب » حين كتب ان الاسلام يميل الى
تصوير العلاقة الشخصية بين الله والانسان بصورة العلاقة بين السيد
الذى لا مرد لامره وبين عبده . .

اصاب تماما في هذه وان اخطاه التوفيق فيما بناه على ذلك من
نتائج ، يستوى في ذلك حسن نيته . .

نريد ان نقول ان صورة تعالى والسيادة وصورة العبودية والخضوع
. . هما حقيقة الصلة بين الرب الخالق الاحد ، والعبد المخلوق الخاضع
. . هذه هي حقيقة العلاقة بين الله والانسان في عمق الاسلام والقرآن . .
ورغم عظمة الله وحقارة الانسان - بالقياس الى هذه العظمة الالهية . .

رغم تعالى الله وتقديسه وتدنى الانسان وبؤسه وضعفه واخطائه رغم
هذا كله . لم يشأ الله سبحانه وتعالى ان يترك الانسان قائما في موضع
الرهبة والعلالة والخوف . .

انما سمي الله تعالى نفسه « الودود » . .

وهي اللمة نحب ان يتأملها القارئ ويقف عندها طويلا طويلا . .

ان الود هو اصفى ما في الحب . .

وتسمية الله تعالى نفسه بالودود اشارة رحيمة لخلقه . وهو سماح

لهذا الخلق ان يحبوه ..

ولقد كان الصوفية اول من فتحوا هذا الباب ..

كانت رابعة العدوية اول من استعمل - بغير تهيب - كلمة الحب في
العشق الالهى ..

واليها تنسب الأبيات الشعرية التى تقول :

أحبك حين حب الهوى وحب لأنك أهمل لذاكا

ان الشطر الاول من البيت يقول انها تحب الله حب الهوى .. نحن
امام حب انسانى يتجه الى الله ..

صاحبه امراة تعدبت كثيرا وأحبت كثيرا واشتعلت بنار الفن كثيرا
وحين فاض بها الشوق صرحت بمشاعرها ، ووضعت هذا التصريح فى
قالب من الفن يستطيع الصمود للزمن .. ولقد قالت هذه المرأة كلماتها
منذ أكثر من ألف سنة ، ورغم بعد المسافة وجدت كلماتها من يغنيها من
مغنيات هذا القرن الشهيرات ، ووجدت كلماتها من يهتز لها من جمهور
هذه الأيام ، يطيب للانسان ان يحس انه يحب خالقه ..

وليس فى هذا الاحساس ما يصطدم بالشريعة الاسلامية او العقيدة
الاسلامية ..

ولا بأس ان يقف المسلم فى مقام الرهبة او مقام الحب ..

المهم ان يكون فى طريقه الى الله ..

تعدد الطرق فى الأرض وتعدد الطرق فى القلوب ، واشرفها الطرق
التي توصل الى الله ..

كانت رابعة العدوية هى اول من اخترق مجال الخوف الى مجال
الحب ، وهى امرأة من البصرة .

اسمها رابعة واسم ابها اسماعيل ، والعدوية اسم قبيلتها ، ويقول
عنها المستشرق ماسينيون انها كانت فى اول امرها تعزف بالمعازف ، ثم
تابت ، وقد خلفت مقطوعات شعرية تعبر عن حدة عشق مؤثرة ، وقضت

حياتها بالبصرة وكانها مسجونة ، وفي البصرة ماتت بعد ان وصلت الثمانين ، وتركت في الاسلام شدا من ولايتها لا يزال أريجا ..

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه عن رابعة العدوية اننا لا نعلم عن حياتها الاولى شيئا الا عن طريق العطار في تذكرة الأولياء .. ويذكر الدكتور بدوي ان رواية العطار عن طفولتها ونشأتها وخطبتها قبل التوبة مستفيضة ، ولكنها لا تقبل في عين المؤرخ الا اذا طرحنا منها جانب الخوارق والكرامات ..

ويذكر العطار ان رابعة ولدت في بيت فقير كل الفقر .. فلم يكن لدى ابويها قطرة سمن حتى يدهنوا موضع خلاصها .. وأصل أسرتها غير معروف ، كل ما نعرفه ان الأسرة انتسبت الى آل عتيك ، اما ديانة آبائها قبل الاسلام فمجهولة أيضا .. ولا ندري اكاثروا من الفرس أم لا ..

ويفترض الدكتور عبد الرحمن بدوي المصدر المسيحي أصلا لكلامها في الحب الالهي ..

وقصة حياتها انها هامت على وجهها بعد فحط حدث بالبصرة .. هي واخواتها الثلاث ، فأخذها ظالم وأسرهما وباعها لرجل بستة دراهم ، واثقل عليها الرجل العمل فعاشت حياة بالغة العذاب .. واتخذت رابعة مهنة العزف على الناي (لاحظوا الجانب الفني في شخصيتها) ، وكانت هذه المهنة في رأى الدكتور بدوي « من المستحيل ان تستقل بنفسها ، ولا ان تكون بمنجاة من ألوان الاغراء » ..

ويخيل الى الدكتور بدوي انها قطعت شوطا طويلا في طريق الائم ، لانها ثابت بعد ذلك ، وهذه التوبة اصدق دليل على اتدفاعها الى ابعد حد في طريق الشهوة .

ويؤكد الدكتور بدوي انها لم تكن معتدلة ، لان الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، اما التطرف فمن شيمة المتأزين الذين يبدعون ويخلقون في التاريخ ، لهذا ادعو الى التطرف المطلق كل من يريد ان يكون خالقا للقيم ..

وقد اعترض الدكتور عبد القادر محمود على هذا الحماس غير العلمى

.. وراى ان هذا الكلام يجوز ان ينطبق على البعض ، ولا يجوز تطبيقه على الكل ، ومهما يكن من امر فقد كانت رابعة العدوية فنانة فى الأصل .. كانت امرأة متاجبة المشاعر ، عنيفة فى الاتجاه والاختيار ، متقلبة فى حياتها المادية والنفسية على السواء ، اخطأت وانقادت ثم صحت ذات يوم على التوبة .. ولكنها توبة غريبة ..

انها لا تبكى خطيئتها فى تواضع ، انما تفخر بحبها لله وهواها له .. وهى تقسم حبها حبين ، وتتطلع بهذين الحبين الى الله ..

احبك حبين حب الهوى وحسب لانك اهل لداكا
فاما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواكا
واما الذى انت اهل له فكشفك لى الحجب حتى اراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

اختلف القدماء حول الايات الشهيرة التى نسبت لرابعة العدوية . كما اختلف المحدثون حول مضمون الايات ، وهل هو مذهب فى الحب الالهى ام مجرد امتداد لنظرية سابقة .

وجرى نفس الاختلاف على شخصية رابعة العدوية ، فنسب اليها العطار كرامات كثيرة ، وحدث كثير من الكتب من الخوارق التى جرت على يديها .. وفى البداية ..

نحب ان نستبعد موضوع الكرامات والخوارق من مجال البحث لسبب بديهى اننا ندرس فكرها كفكر ، ونحلل اشعارها كأدب صوفى ، ولن يزيد هذا الفكر او ينقص منه ان تكون لها كرامات او لا تكون ..

موضوع الكرامات قد يلقى ضوءا على شخصيتها ، ويبين الى اى حد لم تسلم شخصيتها من اضاء مسحاة اسطورية عليها ، ولكن هذا الموضوع لا يضيف الى ادبها وفكرها ولا ينقص منه .. تقول رابعة العدوية :

احبك حين حب الهوى وحب لانك اهل لذاكا

تصرح في البداية انها تحب الله تعالى نوعين من الحب : حب تسميه الهوى .. وحب لانه سبحانه وتعالى اهل لذلك .

والهوى كلمه مشتقة من اندفاع لا يقاوم نحو شيء .. وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :
« فاجمل افئدة من الناس تهوى اليهم » ..

والاصل في استخدام الكلمة هو المجال الشرى . واستخدامها في المجال الالهى هو الجديد الذى يلفت الانتباه ..

تريد رابعة العدوية أن تقول ان حبها البشرى أو قدرتها على الحب الشرى قد تحولت الى الله عز وجل ، وأضيفت هذه الطاقة الى الطاقة العاديه على الحب الالهى ..

الحب مزدوج ..

ثنائى ..

حب بشرى كان المفروض ان تصرفه للناس .. ولكنها قدمته لله ..
وحب الهى الله سبحانه وتعالى اهل له ..

وفي البيت الثانى تشرح رابعة العدوية سر حبها البشرى الذى تحول الى الله .

واما الذى انت اهل له فكشفك لى الحجب حتى اراكا

تريد ان تقول ان انشغالها بالذكر .. قد صرفها عن الناس .. ولانها انصرفت عن الناس ، فقد انكشفت لها الحجب .

واما الذى انت اهل له فكشفك لى الحجب حتى اراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

انها ترجع الأمر كله والحمد كله لله تعالى ..

هذه الأبيات الأربعة أثارت جدلا لم يزل ماضيا الى اليوم ، وأثارت
عددا من المناقشات لم تغلق الى اليوم ..

.....

في البداية ، اختلف القدماء حول نسبة الأبيات إليها ..

قال الكلاباذي « توفي سنة ٣٨٠ هجرية » ان هذه الأبيات لمجهول ،
أما الزبيدي فقد نسب الأبيات السابقة لسفيان الثوري ، وعبد الواحد
ابن يزيد .. ولم يلتفت الطوسي الا لكرامات رابعة العدوية ، وأهمل
الأبيات ..

ومعنى ذلك ان الأبيات الأربعة التي قيل ان نظريتها في الحب الالهى
تعتمد عليها .. مشكوك في صدورها منها ..

إذا افترضنا ان رابعة هي صاحبة هذه الأبيات .. فهل ينطوى هذا
الشعر على نظرية في الحب الالهى .. أم ان الأمر مجرد كلام في الحب
الالهى ..

اختلف الدارسون والباحثون على هذا الموضوع .. اعتبر الاستاذ
« ماسينيون » - وهو واحد من أكبر المستشرقين الذين كتبوا في
التصوف - ان رابعة العدوية صاحبة نظرية في الحب الالهى ..

انه يقول « وكان تحمسها لحياة الزهد مؤديا الى معالجة احوال
صوفية مختلفة ، والى البحث في فروض دقيقة في العلميات والعقائد »

واختلف معه الاستاذ مصطفى عبد الرازق .. فهو يرى « ان من
التعسف ان ننسب الى رابعة العدوية التصدى لدقائق المسائل الفقهية
والكلامية والصوفية » .

وقد وقع نفس الاختلاف بين الدكتور عبد الرحمن بدوي والدكتور
عبد القادر محمود حول رابعة العدوية ، كتب عنها الدكتور بدوي في
كتابه « شهيدة المشرق الالهى » ونقد الكتاب د. عبد القادر محمود ونفى
عنها المسحة الاسطورية التي التصقت بها ..

والمشهور عند كثير من القدماء والمحدثين ان رابعة العدوية هي واضحة مذهب الحب الالهى فى التصوف الاسلامى ، وقد بين د. عبد القادر محمود تهاافت هذا الراى ، وذهب الى انها مجرد امتداد لنظرية الحب الخالص التى تطورت من مدرسة جعفر الصادق ، وبهدى من النص المسيحى .

ولو نظرنا فى نقد د. عبد القادر محمود لكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى « شهيدة العشيق » ، فسوف تكتمل امامنا الصورة الحقيقية لرابعة العدوية .

ربط الدكتور بدوى تجربة رابعة الروحية نحو الله بثلاثة عناصر .

اولها الندم من حياة الشهوات ، وثانيها حضورها مجالس العواطف وخاصة الزاهد العالم الحسن البصرى ، والواقع انها لم تلتق به ، وقد ماد الدكتور بدوى فذكر هذا صحيحا ، وثالث العناصر الياس من الدنيا، ولا شك انها عاشت مع قول ابراهيم بن ادهم المعاصر لها « الحر من خرج من الدنيا قبل ان يخرج منها » .. ويؤكد الدكتور بدوى انه لا مقياس لمعرفة تطور توبتها سوى درجة حرارة التضرع من حين الى حين فيما حكاها العطار .

ويعتبر الدكتور بدوى نبرة الضراعة العنيفة دليلا يؤكد ان فترة ضلالها ايام كانت تعزف على الناي لشهوات الجسد هى العامل الاوحد فى تكييف النظرية الصوفية عند رابعة ، وهى النظرة التى تحولت الى حب لذات الله لا طمعا فى ثواب او خوفا من عقاب ..

ونحن مع الدكتور عبد القادر محمود فى ان توكيد نبرة الضراعة كمقياس لدى الدكتور بدوى يؤكد لنا عدم كفايته كدليل وحيد فى تكييف النظرة الصوفية لدى رابعة .

هذا دليل يحتاج الى حجج قوية من آراء رابعة التى كان ادق ما فى تراثها موضع شك فى صحة نسبته اليها ، وكان غيره جملا رائعة عن النجوم المنيرة والعبون النائمة ، سوى عين يقظى وقلب ساهر قلق جزوع . فاذا عدا الى العطار على رغمنا مرة اخرى ، فاننا نجده يثير مشكلة

لدى « ماسينيون » ، مشكلة يربط فيها بين العلاج ورابعة .

يقول العطار في تذكرة الاولياء ان رابعة العدوية كانت بسبيل الحج ، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء فقالت : لا اريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، اما الكعبة فماذا أفعل بها .

قام الدكتور بدوى بالتعليق على هذه الحادثة التى يرويها العطار فقال « ليس بمستبعد أن تكون صحيحة » ومن المعروف ان هذا هو رأى العلاج ، وقد كان سببا في تكفيره ثم صلبه قال العلاج « ان شوقنا الى الله يجب أن يمحو عقليا في نفوسنا صورة الكعبة ، كيما نجد من أقامها ، وإن نحطم معبد بدننا كيما نبلغ من جاء اليه ليتحدث الى بنى الانسان »

ويمضى الدكتور بدوى فيقول (ولعل هذا قد بلغ أوجه فيما رواه ابن تيمية حين قال « قال على الحريري ، قيل عن رابعة انها حجت فقالت هذا « اى البيت الحرام » الصنم المعبود فى الأرض ، وانه ما ولجه الله ولا خلا منه » ، يقول الدكتور بدوى « وهذا يؤيد الرواية التى ذكرها العطار ، وفيه من الجراءة فى التعبير قدر هائل يدل على اى مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لا نجد لها نظيرا فى هذا القرن ولا القرن الذى يليه عند الصوفية ، فهى ترى أن فى الكعبة صنما ، وفى التبرك بها وثنية ، وليس بين هذا وبين أن تعلن سقوط التكاليف الظاهرية فى الحياة الدنيا الا خطوة واحدة » .

يرى الدكتور عبد القادر محمود أن الدكتور بدوى قد أسرف فى حكمه ، وأعطى لرابعة بمقارنتها بالعلاج مكانا ليس لها ، فبعد ان قال عن حكاية الكعبة التى رأتها رابعة العدوية وهى قادمة نحوها ، انه ليس بمستبعد أن تكون هذه الحادثة صحيحة ، بعد هذا الفخ الذى وقع فيه الدكتور بدوى ، أجرى المقارنة بين رابعة والحلاج ، ورآها استاذة للعلاج فى أخطر آرائه ، ووقف مع رأى العطار ، وهو ليس مؤرخا ولا عالما ، وكتابه يمتلىء بالاساطير والخرافات ..

ويفسر الدكتور عبد القادر محمود هذا كله بذكر الحقائق التالية ،

توفي المطار سنة ٥٨٦ هجرية ، وهو تلميذ لمدرسة الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية ، وكل ماكتبه المطار مصدره عصره والمصر الذي قبله ، ولما كانت روايات المطار عن رابعة ، وخاصة في نظرية تحطيم الوثنية في صنم الكعبة لعبادة رب الكعبة ، لما كانت هذه الرواية لم ترد الا مع المطار ، والمطار تلميذ في مدرسة الحلاج ، فمن المؤكد أنه خلع عليها شيئا من هذه الرواية او اعطاها نسبا منها ، لان رابعة من الناحية الموضوعية لا تصل في ثقافتها الى هذه النظرة ، خاصة وأن ادق مانسب اليها في نظرية الحب الخالص مشكوك في صحة نسبته اليها ، وما أورده المطار وغيره من احاديث وقصص عباداتها يؤكد أنها كانت لا تنقطع عن الصلاة ، فكيف نقيم لها نظرية أو مطلع نظرية في اسقاط التكاليف الشرعية ..

من الصعب ان يكون هذا راياها .. اما عند الحلاج فهو تخريج لراى القرامطة الذين اعادوا قصة الغيل في محاولتهم هدم الكعبة في صورة متطورة ..

يقول ذ. عبد القادر محمود « لو سرتنا وراء امثال هذه الروايات التي اوردها المطار وتبعه المستشرقون وغير المستشرقين ، لوجدنا أنفسنا ونحن في القرن العشرين وقد عدنا الى عقلية ما قبل القرن العاشر والحادي عشر الميلادى في نظرتنا النقدية غير السليمة .. ولو سايرنا هذا المنطق لجاز لنا ان نقول ان رابعة في نظريتها في الحب الخالص الذي لا يطمع في ثواب او يرهب عقابا تصل بنا لا محالة الى القول بعدم اهمية التكاليف الشرعية التي هى في نظر الوصوليين او العوام سلم الوصول الى الجنة والبعد عن النار ، ولكان من الجائز ان نكفر ونقول انه ليس من الضروري الاعتماد عليها في طريق الوصول ، ولكننا لن نساير هذا المنطق ، ولن نجدف وراءه في اعطاء رابعة ما ليس لها وما لا يجوز أن ينسب اليها ، لان بيئتها الثقافية والاجتماعية والنفسية وحياتها الماضية لا يمكن بحال من الاحوال أن تعطينا امثال هذه الاتجاهات التي اكدها الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى في كتابه الممتاز عن رابعة العدوية ، ونسب اليها ما اعطاه للحلاج في تعليقاته على ما كتبه « ماسينيون » عنه .

.....

القضية اذا ان الدكتور بدوى يحمل فكر رابعة العدوية ما لا يحتمله .. ويرى انها كانت صاحبة نظرية في الحب الالهى ، وصاحبة رأى فى التكليف الشرعية ، واستاذة للحلاج فى اخطر آرائه التى كانت سببا فى اتهامه بالكفر وقتله .. ويعتقد الدكتور عبد القادر محمود ان هذا كله غير صحيح ، لان الدليل على أن رابعة كانت تعتبر الكعبة وثنا ، هو مجرد كلام قيل عنها أو حكى عنها ، وهو كلام لا يصدقه عقل ، مثل أن ترى رابعة الكعبة وهى قادمة نحوها ، فتقول انها لا تريدها وتريد رب الكعبة ..

ونحن مع رأى الدكتور محمود رغم احترامنا للدكتور بدوى .. فمن الصعب علينا أن نقيم بناء كاملا لنظرية فلسفية على حكاية خرافية حكاها واحد على لسان رابعة العدوية .. حكاية من الصعب أن تقنع طفلا ..

ان الكعبة بناء مثبت فى الأرض ، فهل يمكن بناء نظرية على أساس ان هذا البناء الثابت قد ذهب يهرول سعيًا نحو امرأة صوفية ؟ ان محاولات هدم الكعبة قديمة ، وهى جزء من محاولات هدم الاسلام ، واذا كان ابرهة قد ابيد حين حاول هدم الكعبة بجيشه الجبار ، فقد ظلت المحاولات مستمرة من أعداء الاسلام ، وليس بمستبعد أن يكون هذا القول مدسوسا على رابعة العدوية ..

القول بأن الكعبة جاءتها تمشى ..

والدليل على براءة رابعة من هذا القول ما رواه ابن تيمية عنها .. فالمعروف عن ابن تيمية أنه من أعداء الصوفية ، وقد كان موقفه حاسما فيما رواه العطار عن رابعة العدوية .

قال ابن تيمية « ان رابعة كانت من التقوى بحيث لا يصدر عنها هذا ، ولو قال هذا احد لكان كافرا يستتاب ، فان تاب ، والا قتل ، وهو كذب ، فان البيت لا يعبدّه المسلمون ، ولكن يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة فيه ، اما ما نقل من قولها (والله ما ولجّه الله ولا خلا منه) فكلّام باطل عليها » ..

والحقيقة أن الصورة التي يرسمها الدكتور بدوى لرابعة العدوية ، ليست هي حجمها الحقيقي ، فهو يعتبرها اول من تعرض بالنقد للمفاهيم الحسية التي فهمها العامة لبعض آيات القرآن .. فقد سمعت قارئاً يقرأ قوله تعالى « ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » فقالت مساكين اهل الجنة .. في شغل هم وازواجهم ، ويرى الدكتور بدوى ان ضمير رابعة قد امتعض من هذا المعنى الحسى ، وهى التى ارتفع عندها معنى الجنة الى أعلى درجات الروحية ، ويعتقد انها رمت من وراء هذا النقد ، الى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعانى القرآن والاسلام الى أعلى درجة من الروحية » ..

وفى رأينا أن الدكتور بدوى لم يفهم كلمة رابعة العدوية ، فليس فى الكلمة نقد للمعنى الحسى « استخدم الدكتور بدوى كلمة « المعنى الشهوانى » .. لأن الجنة ليست هى الأرض ، والناس حين يبعثون يوم القيامة ويدخلون الجنة لا يدخلونها بنفس حواسهم وشهواتهم الأرضية ، وكل ما ورد عن الجنة فى القرآن غيب ، يتحدث الله تبارك وتعالى عن لحم الطير والازواج والاعناب والنخيل ، ولكن حقيقة هذا كله غيب ، وصلته بما على الأرض من متع هو الآخر غيب ..

ولو صدقنا ان رابعة العدوية يمكن ان تقول عبارتها التى أوردها الدكتور بدوى ، فلا ريب أنها تعنى شيئاً يختلف كل الاختلاف عن نقد الحياة الحسية فى الجنة ، لأن الحياة فى الجنة غيب مجهول ، وأى مسلم يعرف عقيدته يعرف ان فى الجنة نعيم لا يقاس به نعيم الأرض ، أما حقيقة هذا النعيم فمجهولة تماما ، والمجهول لا يمكن أن يخضع للنقد .. ولا يمكن بالتالى ان تعتبر رابعة العدوية أول ناقدة لنعيم الجنة الحسى .. ويبدو رأى الدكتور بدوى متضارباً حين ينفى عن رابعة محاولات الطعن او الانحراف بالاسلام ، فى نفس الوقت الذى يجعلها فى كتابه جريئة جراءة لا نظير لها فى هذا القرن ولا الذى يليه . فليس بينها وبين أن تعلن سقوط التكاليف الشرعية الا خطوة واحدة .

يرفض الدكتور عبد القادر محمود ، كما يرفض الاستاذ مصطفى عبد الرازق هذه الاسطورة التى يتم بناؤها حول رابعة العدوية .. ويرى

كلاهما أن من التعسف أن ينسب اليها التصدى لمعالجة دقائق المسائل
الفقهية والكلامية والصوفية والنظريات الفلسفية كأستاذة لمدرسة
الحلاج ..

وهذا هو الرأى الذى تهدى اليه الأدلة ويستريح اليه العقل ..
ولو افترضنا جدلا انها قالت ما رواه العطار عن حكاية الكعبة التى
شاهدتها تمشى نحوها ..

لو افترضنا جدلا أنها قالت انها لا تريد الكعبة ولكنها تريد رب
الكعبة ، فهل يمكن تحميل هذا المعنى على أساس أنه بناء لنظرية جديدة
هدفها اسقاط التكاليف ، أم ان الأولى أن يحمل على أنه تعبير فنى
لشاعرة تحمل طبيعة فنية ، ان اقوال الشعراء ليست هى الحقيقة المادية
.. انما هى تصور الشاعر ورؤياه الخاصة .. وقد أشار القرآن الكريم
الى أن الشعراء يقولون مالا يفعلون ، بمعنى أنهم لا يصورون الواقع ، ولا
يصفونه ، ويبالغون مبالغات فنية لا يمكن قياسها على الحقيقة ، وهناك
شاعر يقول :

إذا بلغ الرضيع لنا قطاما تخسر له الجبابر ساجدينا

فهل يصدق احد ان طفلا فطمته أمه ، يمكن أن تخسر له الجبابرة
ساجدة ؟!

ان الرؤى الشعرية للشعراء لا يمكن قبولها بمنطق الحياة الواقعية ،
انما هى تعبير عن رؤيا فنية او رموز لصور أو مشاعر يريد الشاعر التعبير
عنها ..

بهذا المنطق يستقيم الامر ، وتبدو رابعة العدوية بصورتها الحقيقية ،
شاعرة صوفية وثابثة محبة لله عز وجل .. كانت لها آراؤها التى لاتصلح
ان تكون اساسا لمذهب متكامل فى التصوف الاسلامى ..

عاشت رابعة العدوية فى القرن الثانى من الهجرة ، وماتت فى أخريات
هذا القرن ، كما يرجحه اكثر من كتبوا سيرتها ..

وقد كانت في رأى كثير من الدارسين القدامى والمحدثين علامة هامة من علامات الطريق الصوفى .

كتب عنها صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » .. السيدة الولى ذات المقامات العلية والأحوال السنية ..

ويقول عنها ابن خلكان « كانت من اعيان عصرها وأخبارها في الصلاح مشهورة » ومن المدهش ، أو فلنقل ان من الطبيعي اننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن حياة رابعة العدوية ، قبل ان تكون صوفية ، فلم يعن المؤرخون الا بهذا الجانب من حياتها ، وهو الجانب الصوفى ..

ومن المؤكد انها لم تولد صوفية ، لان المرء لا يولد صوفيا ، انما اكتسبت التصوف عن طريق تجاربها الروحية ..

وهكذا سلط القدماء الاضواء على حياتها الصوفية ، وبقي الجزء الأعظم من حياتها غارقا في الظلام ..

وفي الظلام عادة تسمى الخرافة .. والاسطورة .. والمعجائب .. وهذا ما وقع لرابعة ..

ان ما ينسب اليها من عجائب اشبه بالخرافات منه بالحقيقة ، وقد تداخلت الروايات عن حياتها وتضاربت الأقوال عنها حتى اختلفوا في أبسط تفاصيل الحياة والموت المتعلقة بها ..

ذكر ابن خلكان ان قبرها يزار ، فهو بظاهر القدس من شقيقه على رأس جبل يقال له الطور ، وأكرر يا قوت الحموى ان يكون هذا قبر رابعة العدوية ، وقال ان قبرها بالبصرة ، اما هذا القبر الذى يشير اليه ابن خلكان فهو قبر امرأة أخرى تسمى رابعة ، كانت زوجة احمد بن أبى الحوارى الكاتب ، وقد اشتبه الامر على الناس .

امتد الاختلاف الى حياتها ايضا كما امتد لمكان قبرها ..

قيل انها تابت على يد ذى النون المصرى .. فقد كانت تركب سفينة مع جماعة يشربون الخمر فاتفق ركوب ذى النون المصرى (المتوفى ٢٤٥

هجرية (هذه السفينة ، وطلبت رابعة من ذى النون على سبيل التهكم ان يسمعهم شيئا من غنائه كما اسمعوه فأنشد ابياتا ركيكة ثابت بعدها رابعة العدوية على يديه ، وقد انكر المؤرخون هذه القصة لبعده العصرين رابعة وذى النون .. ورجحوا ان تكون القصة موضوعة ومختلفة .. فنحن لا نعرف ان رابعة العدوية زارت مصر ، وان كانت الاساطير قد ابتدعت لها قبرا بقرافة الامام يزار ويتبرك به ..

الشيء المتواتر عنها انها كادت تفنى في سفن البصرة وتشرب الخمر ، وقد وقع هذا قبل توبتها ، ويذكر ماسينيون عن رابعة العدوية ان والى البصرة خطبها ، فلما دخل عليها قالت له « يا شهوانى اطلب شهوانية مثلك » ..

يريد ان يقول ان رابعة العدوية اُتُكِرَت على والى البصرة ورغبته في زواجها لأنها اُشتمت منها اثرا من آثار الاشتهااء ..

والقصة موضوعة ومختلفة ، فلم يكن والى البصرة بالذى يرضى ان يخطب امرأة تفنى في مراكب الخليج وتشرب الخمر ، ولم يكن منطقيا من هذه المرأة ان تنكر الشهوات وهى غارقة فيها لأذنيها ..

نريد ان نقول ان الاساطير والروايات لم تترك رابعة العدوية في حالها، انما نسجت حولها ركائما من الاحداث ، حتى اختلط الصدق بالكذب ، والحقيقة بالخرافة ، وصار من المتعذر ان نكتشف الحقيقة الموضوعية او شيئا يقترب من الحقيقة الموضوعية ..

كل ما نعرفه ان حياتها قسمان ..

قسم قبل التوبة .. كانت فيه ما كانه ..

وقسم بعد التوبة .. صارت فيه عاشقة لله عز وجل ..

وقد اخطأ كثير من الباحثين في رابعة العدوية ، رغم ان هؤلاء الباحثين كانوا اصحاب عقول محترمة ..

مثلا .. ذكر الاستاذ ماسينيون عنها أن تحمسها لحياة الزهد أدى بها الى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، وإلى البحث في فروض دقيقة في العمليات والعقائد ، وبهذا تمتبر رابعة عند الباحثين في أمور الولاية والأولياء أعظم ولية .

وهذا الرأي الذى يراه ماسينيون لا يمكن قبوله على علاه ..

وهناك أكثر من سبب لذلك ..

أن التصوف كان في بداية نموه ، ولم يكن معقولا أن تقفز رابعة العدوية فجأة الى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، أو البحث في فروض دقيقة في العبادات والعقائد ..

هذا سبب مانع في حد ذاته ..

وثمة سبب أبلغ في الدلالة على المنع ، وهو أن الآثار التى تركتها رابعة العدوية لا تدل مطلقا على أنها عالجت أحوالا صوفية أو بحثت في فروض العقائد والعبادات ..

هذا اعتساف واضح وتحميل كلامها معان ينوء تحت ثقلها ..

ولننظر في أبيات رابعة العدوية التى اشتهرت بها .. « أحبك حبيب » لنرى هل يمكن أن تحمل هذه الأبيات الشعرية الأربعة مذهبا من مذاهب التصوف ، أو نظرية من نظريات العبادات مثلا ..

تقول هذه الأبيات أن رابعة تحب الله تعالى حبيب ..

حب الهوى ، أو الحب البشرى ..

وحب آخر لأنه سبحانه أهل لهذا الحب ، يستحقه ابتداء سبحانه .

وتشرح حبها البشرى فتقول لنا أن حبها البشرى هو انشغالها بالله عن سواه ..

أما حبها الإلهى لله فتفهمنا أن هذا هو كشف الحجب لها حتى تراه سبحانه ..

ثم تستطرد في تواضع فتقول أنها لا تحمد على حبها هذا أو ذاك ،

فان الله تعالى هو وحدة المستحق للحمد في ذا وذاكا ..
وتأمل الايات يطلعنا على حقيقة جوهريّة ..
لسنا امام نوعين من الحب ..
نحن امام نوع واحد من الحب ، وان كان يأخذ صورتين هما في
حقيقتهم صورة واحدة ..
فهى مشغولة بالله عن سواه ..
وهى تقف امام الحجب المكشوفة لتراه ..
ليس هناك حب بشرى وحب الهى ..
هناك حبها وحده الله ..
الصورة واحدة ، ولكنها على عادة الشعراء تبالغ في تجسيم حبها ،
وتراه في مرآة العبقريّة ، فاذا نحن امام اكثر من صورة لها ..
وليس هناك في الحقيقة غير صورة واحدة ..
ايضا لا تكشف الايات عن مذهب فلسفى كامل في التصوف ، ولا
تكشف عن معالجة فروض دقيقة في امور العبادات والعقائد ..
انما تكشف الايات عن وهج عاشقة وشاعرة في ذات الوقت ..
وقد انكر معظم الباحثين المعاصرين راي ماسينيون كالدكتور مصطفى
عبد الرازق والدكتور عبد القادر محمود والدكتور مصطفى الشيبى ..
بل اننا لو تعمقنا البحث فسوف نكتشف ان هذه الايات ذاتها ،
والتي يدور حولها الحديث في محاولة لتحديد حقيقة تصوفها ، منسوبة
اليها ، يقول الكلاباذى ان هذه الايات لمجهول ، وليست لرابعة العدوية ،
ويذكر الزبيدي ان هذه الايات الشعرية تنسب لسفيان الثوري كما نسب
لعبد الواحد بن زيد ، ومعنى هذا في راي الدكتور عبد القادر محمود ان
الايات التى تتضمن رايها في الحب مشكوك في صحة نسبتها اليها ، بدليل
شك الكلاباذى ، وعدم التفات الطوسى الى ذلك ..

كل ما يمكن قوله عنها انها كانت اول من استعمل كلمة الحب في
العشق الالهى دون تهيب .. معتمدة على ورود كلمة الحب في القرآن ..
وكان من قبلها يتخرجون من كلمة الحب في هذا المقام ..

وهذا رأى ماسينيون .. وهو رأى نعتقد في وجاهته ، فقد تميزت
رابعة بكلامها في المحبة ..

وكانت من طائفة المسافرين الى ربهم .. كانت من الذين قعدوا على
الحقائق وقعد من سواهم على الرسوم ، وكان عنوان طريقها هو الحب ،
والمحبة دليل على صدق دعواها ..

ولفظه الحب في اللغة العربية تدور حول خمسة معان ..

١ - الصفاء والبياض .. يقول العرب حبيب الأسنان اذا ارادوا وصفها
بالبياض والصفاء ..

٢ - العلو والظهور .. ومنه حبيب الماء وجبابه وهو ما يطويه عند المطر
الشديد ..

٣ - اللزوم والثبات ، وفيه يقول العرب حب البعير وأحب اذا برك
فلم يقم ..

٤ - اللب .. ومنه حبة القلب أى عمقه الداخل ولبه .. ومنه الحبة
الواحدة ومجموعها الحب ، والحبة هى أصل الشيء ومادته وقوامه .

٥ - الحفظ والامساك ، يقول العرب احب الوعاء الماء أى امسكه
وحفظه ..

وتعريف الحب عند العرب ينطوى على هذه المعانى الخمسة ..

فالحب عندهم هو صفاء المودة ، وعلو ارادة القلب لتعلقها بالمحبوب ،
وثبات ارادة القلب على المحبوب ، واعطاء المحب محبوبه اشرف ما عنده
وهو الحب او اللب ، وحفظ هذا التوهج على المحبوب ..

هذا رأى ابن قيم الجوزية في معنى المحبة ومنزلتها من التصوف ..

وعلى ايام رابعة العدوية .. لم يكن التصوف قد خرج من سداخته الى التعقيد الفلسفى وصار مذاهب أو نظريات .. كان التصوف لم يزل فى بدايته ، وجاءت كلمات رابعة العدوية نقطا مضيئة من النور لا يجمعها خيط واحد سوى هذا الاستيلاء الكامل لفكرة الحب الالهى عليها ..

كانت شأن اى فنانة تشق طريقها فى الصخر ..

وكانت كلماتها تحمل عبق الفن والتوهج .. وتنوء باحزان غامضه كانت هى المناخ العام السائد ايامها فى المجتمع ..

لقد راينا كيف تحول المسلمون الى الفتنة ، وكيف سار الى الشهاده ازكى الرجال وارقمهم نفسا .. وراينا كيف ارتفعت السيوف وهوت فى العالم العربى وهى تشق قلب البراءة ..

وصنعت الاحزان خيمة على الشيعة وشواهم من المسلمين ، وكانت رابعة تبكى فى جوف الليل تحت خيمة الاحزان ..

سئلت عن حقيقة ايمانها فقالت :

ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته بل عبدته حبا له وشوقا اليه ..

قال الشعرائى : كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ..

وقد راينا بدايات الشيعة والزاهدين وكيف شربت من امطار الحزن ودموع الاشفاق ..

وفى عصر رابعة العدوية .. وهو نهاية القرن الثانى للهجرة ، كان الاسلام قد انتشر وخفقت رايته فوق ثلث العالم ..

ولكن الاسلام نفسه كان ينسحب من نفوس الرجال والنساء فى نفس الوقت الذى كان ينتشر فيه فى الارض ..

وكان هناك نموذجان اسلاميان يومئذ ..

نموذج يعبد الله خوفا من النار ..

سبب العبادة هو الخوف من دخول النار ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها التوهجة .. لأن الخوف
لا يشير في الفنان أكثر من الرفض والتحدى ..

وكان هناك نموذج آخر يعبد الله طمعا في الجنة ..

وكان المجتمع الاسلامى يومئذ قد رفع قيمة الطمع سواء في ذلك
الطمع في الرئاسات أو الحكم ، أو الطمع فيما عند الله ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها كفنانة .. فالطمع لا يشير
في الفنان أكثر من الرفض والاستعلاء ..

وإذا لا يبقى أمامها الا أن تشقى مجراها الجديد ..

لن تعبد الله خوفا .. ولن تعبد طمعا ..

هذه تصرفات الأجير الخائف أو الأجير الطامع ..

تريد أن تملو على النموذجين التقليديين الدائعين في المجتمع ..

واختارت ما يختاره أى إنسان يملك طبيعة فنية ..

انها تحب الله لأنها تحب الله ..

لا تخاف النار ولا تطمع في الجنة ..

نمة درجة أعلى فوق هاتين الدرجتين ..

الحب الخالص الذى يصعب على المحب فيه أن يتنفس ..

.....

كان عندها احد الصوفية يوما فقال : واحزنه .

وردت عليه رابعة العدوية مؤتبة : لا تكذب وقل واقلة حزنه ، لو
كنت محزوناً لم يتبها لك أن تتنفس ..

.....

لو توقفنا قليلا عند تصور رابعة العدوية للحزن .. فسوف نفهم انها

كانت امرأة من طبيعة خاصة ..

طبيعة فنية خاصة .. أنها تفهم الحزن فلا تراه هذه الكآبة التي تنتشر على سطح النفس وتجعل الانسان هادئا صامتا منزويا ..

انما-تنظر الى الحزن فتراه في ابعد اعماقه .. شيئا هائلا يمنع الانسان من التنفس ..

هذا الفلو في الحزن يتفق مع غلوها في الحب .

ويفترض كثير من الدارسين ان كلاهما في الحب الالهى يستمد اصوله من المسيحية ، وهناك نص خطير للسيد المسيح تداولته امهات كتب الصوفية يدور معناه حول المعنى الذى اوردته الابيات المنسوبة اليها في الحب الالهى ..

ولست ميالا لهذا الراى ، لان تشابه نظرة واحدة من الصوفية مع كلام السيد المسيح (لو افترضنا صحة نسبته اليه) تشابه النظرتين لا يعنى ان احدهما اخذ من الآخر ..

والاصح هنا ان يقال ان الاثنين يستمدان من مصدر اصيل ..

والمسيحية التى انزلت على عيسى عليه الصلاة والسلام هى الاسلام الذى انزل على محمد عليه الصلاة والسلام هى اليهودية التى انزلت على موسى عليه الصلاة والسلام .. (ان الدين عند الله الاسلام) بمعنى ان جوهر الاديان جميعا هو التوحيد ..

وفى هذا ليس هناك اى خلاف بين دين الهى وآخر ..

وفهم الانسان لدوره فى الحياة وضالته امام الكون والله يقودانه الى ادراك عظمة الخالق وضعف المخلوق ..

ولا يملك الضعف امام العظمة سوى الحب .. اذا اراد ان يتخلى عن الخوف والطمع ..

كان الحب هو الطريق الوحيد امام رابعة العدوية .. بسبب طبيعتها

الخاصة المتأججة ، وظروف حياتها القاسية ..

ولا اتصور انها تأثرت بالمسيحية لان الاسلام والمسيحية يتشابهان في اصل العقائد كما أنزلت من الله لا كما صارت اليه عند البشر ..

كل ما في الامر ان رابعة العدوية - بفطرة الفنان - ادركت ان الخوف من النار فقط أهانة لعظمة الانسان .. والطمع في الجنة فقط سوء تقدير لعظمة الخالق ..

هذه اشياء .. الجنة والنار شيئان ..

وهي لا تريد ان تتطلع الى الاشياء ..

انما هي تريد .. من « ليس كمثله شيء » ..

وهي لا تخاف ولا تطمع انما تحب ..

والحب هو المجال الوحيد الذي يدع لعظمة الانسان قدرها من التواضع ويدع لعظمة الله قدرها من السمو والتعالى ..

اثارت اربعة ابيات . منسوبة لرابعة العدوية ، كثيرا من الجدل والخلاف ، وراى فيها بعض المستشرقين نظرية جديدة في التصوف الاسلامى ..

وسوف نلتقى في بحار الصوفية بأبيات شعر عديدة ، وشعراء كثيرين ، وأدباء وكتاب ، ومن المدهش ، انه رغم مرور عشرة قرون أو أكثر على بدء الصوفية وتطورها ، لم ينظر أحد من الباحثين الى الصوفى بأعباره فنانا .

انما كانت النظرة الى الصوفى دائما تعتبره رجل دين فحسب ..

وفى تصورى ان هذا ظلم للصوفية ورجالها ..

وسوف اشرح تصورى هذا واقدم ادلتى عليه ..

ان الصوفى انسان .. والانسان هو المخلوق الوحيد الذى يروعه الفرق بين الاشياء كما هي ، والاشياء كما ينبغى أن تكون .. ومن هذا

الحنين للكمال يولد الفن .. والصوفي فنان بمعنى البحث عن الكمال ..

وليس فنانا بالمعنى المعتاد للفن ، او المعنى المبثذل للكلمة ، وبهذا المنطق يخرج الفن الذى يرتبط بالفرائز او يثيرها من أجل الكسب ، ويخرج اداء الاعمال الفنية ، ويخرج الامتاع والتسرية ، تخرج كل هذه الأنواع وامثالها من نطاق المعنى الذى اقصده ..

انما اقصد بالفن ابداع العقل الانسانى فى مجال الكتابة والشعر .. ونحن نعرف ان الكتابة والشعر تعبيران .. وكون الفن تعبيرا لا يعنى انه تعبير مبسط عن المشاعر والاحاسيس فقط ..

انما نقصد هنا كل ادب او شعر رفيع يثرى قارئه ويزيد من تجربته ويسمو بمشاعره ويطهره كما يقول ارسطو .

والفن امر بالغ التعقيد كالانسان .. والانسان هو اكثر مخلوقات الله تركيبا وتعقيدا ، وليس خلقه بهذا الشكل الا دليلا على عظمه خالقه وقدرته سبحانه ، والفن موهبة يمنحها الله تعالى للانسان .. لحكمة يدريها هو سبحانه ، ويشبه الفنان رجلا دخل حجرة مظلمة .. حجرة لا يبدو فيها شيء ولا يظهر منها شيء .. ثم استطاع هذا الرجل ان يدير مفتاح النور ..

حين تسبح الحجرة فى الضوء يتغير منظرها على الفور .. تظهر فيها اشياء لم تكن ظاهرة ، ويتضح فيها ما كان خافيا ..

يشبه الفن هذه القدرة على اضاءة النور .. سواء كان النور داخلنا او داخل الآخرين او فى الحياة او فى الكون ..

ان اضاءة النور تعنى اسدال الستار على الظلام ، تعنى اطلاق طاقة الكهرباء ، والكهرباء طاقة ، ولكنها مجهولة تماما ، يدرس العلماء آلاف الحقائق عن الضوء ، ولكن احدا من البشر لا يعرف سر الضوء .. ذلك العلم من شئون الخالق القوى العزيز الممتنع .

والفن سر يتوصل به الانسان الى الكشف عن مصدر الطاقة .. واطضاءة الحياة .. وحين نقرا ونعرف يتسع وعينا للتجربة ، ونرى

افضل مما كنا نرى ..

وهناك فرق بين الرؤية الفنية والرؤية العادية ..

هو نفس الفرق بين العصفور والدودة .. والعصفور والدودة كلاهما خلق من خلق الله تعالى .. ولكن الدودة تسير على الأرض ، أو تسير تحت سطح الأرض ، تصنع لنفسها انفاقا في طين الأرض وتسير .. اما العصفور فيملك القدرة على الطيران والتحليق .. ويملك القدرة على ان يرى مساحة أكبر مما تراه الدودة .. ولا فضل للعصفور على الدودة .. فلا الدودة هي التي خلقت نفسها ملتصقة بالأرض ، ولا العصفور خالق نفسه قادراً على الطيران ..

الفضل هنا أو هناك منسوب للحق .. عز وجل ..

والسر في خلق الدودة دودة ، وفي خلق العصفور عصفورا .. هذا السر من أسرار الحق عز وجل ..

والفرق بين الرؤية العادية والرؤية الفنية هو الفرق بين رؤية الدودة ورؤية العصفور ..

يعيش معظم النوع الانساني وذهنه مغموس في مشاكل اللحظة الحاضرة ، ومتاعب الحياة اليومية .. لا يرى الا حاجات جسده ومشاكل نفسه .. وتجيء لحظة حاسمة ..

فينسحب هذا الانسان من كهفه الطيني ويطير وينظر ..

ان الرؤية الصوفية تتم حين يزاول الانسان نظرة عصفورية على الحياة ، اى حين ينسحب منها ولو للحظة واحدة ، فيرى منها قدرا اكبر ، بدلا من بقاءه محصورا ضمن البؤرة الضيقة ، بؤرة نظره الدودية للاشياء ..

وهذه الرؤية هي نفسها الرؤية الشعرية او الادبية ..

وليس الفرق بين تراث الانسانية الادبي والفنى وتراثها المعتاد غير

الفرق بين النظرة العصفورية والنظرة الدودية ..
والصوفية هم الذين يملكون القدرة على الطيران والتحليق ورؤية
الحقيقة ..

والشاعر أو الكاتب العظيم يملك نفس القدرة على التحليق ، ورؤية
مساحة أكبر من الحقيقة ..

وليست مصادفة ان معظم الصوفية شعراء وكاتب ..
وميزة الكاتب العظيم حقا هي قدرة عقله على الوثوب من مستويات
الانسان العادي ، وادراك القيم الشاملة ..

وحين يختزن الكاتب تجربة ما .. ويثبتها في ذهنه أو روحه ، ويميد
خلقها من جديد بأسلوب وشكل وتعبير يختلف عن التجربة ، حين يقع
هذا للكاتب يقع مثله للصوفي ..

ان تجارب القرب من الله عز وجل تختزن .. ويحيى التعبير عنها في
الشعر الصوفي .. يحيى التعبير عنها ، أو عن المعادل الموضوعى لها ، فاذا
نحن أمام تجربة جديدة ، ليست هي الصورة الفوتوغرافية للتجربة
الاصلية ، انما امام اضافة جديدة كل الجدة ..

ولو سألنا عن هدف الأدب والفن .. فسوف نتلقى عشرات الاجوبة ،
ربما كان افضلها هو تأكيد الوعي الانساني ، واثراء تجاربه ، واطضافة
الجمال الى الحياة ، والبحث عن الحقيقة ..

وتختلف الحقيقة عند الكاتب والشعراء ، تبعا لاختلاف حظوظهم
من العظمة ، وكلما ارتقى الانسان أدرك ان الحقيقة هي الله .

وكلما زادت عظمة الانسان ادرك ان الله هو الخير المطلق والحق المطلق
والجمال اللانهائي وذلك هدف الآداب الرفيعة والشعر العظيم . .

ومن الصعب ان تجد مفكرا رفيعا أو كاتباً انسانيا أو شاعرا كبيرا
قد انصرف عن البحث عن الحقيقة ..

الادب العظيم يبحث عن الحقيقة ..
وكلما ارتقى الفنان الكاتب اقترب من الله عز وجل .. وكلما اقترب
تحرر وزادت دهشته وسجدت روحه ..
في الصوفية شعراء وفنانون يكابدون تجاربهم الروحية وهم يسعون
سعيًا إلى الله ..

كيف ننظر إلى تراثهم في الشعر ..
هل نعتبره فنا .. أم نعتبره دينًا ..

لكي نجيب على هذا السؤال سوف نضرب المثال التالي :
لنفترض أن شاعرا قرا القرآن ، وأعجبه أحد المعاني في إحدى
الآيات ، وصاغ هذا المعنى شعرا .. كيف ننظر إلى هذا الشعر .. هل
نعتبره قرآنا لأن فيه جزءا من معاني القرآن ، أم نعتبره فنا ونلحقه
بالشعر ونناقشه على هذا الأساس ..

**إن الإجابة على هذا السؤال هي التي ستحدد نظرنا إلى شعر
الصوفية وآدابهم والجواب بسيط رغم خطورة الآثار المترتبة عليه .**

من الصعب أن نعتبر أي شعر عن القرآن قرآنا .. لأن القرآن قرآن
والشعر شعر ، وليس القرآن شعرا كما قال مشركو مكة أو منافقو
المدينة ، ويجب أن نناقش هذا الشاعر الذي صاغ معنى من معاني آية
قرآنية ، يجب أن يناقش باعتباره شاعرا لا باعتباره رجل دين ، ولا يجوز
أن نستنبط من هذا الشعر حكما شرعيا ، إنما يستنبط الحكم الشرعي من
النص القرآني الأصيل ، كما أننا لا يمكن أن نتعبد بقراءة هذا الشعر ،
وإنما يجوز التعبد بقراءة الآيات القرآنية ذاتها ..

نمضي في مثالنا إلى مرحلة أبعد ..

لنفترض أن هذا الشاعر الذي قرا القرآن ، وأعجبه معنى من معاني
آياته . وقرر أن يصوغها شعرا ، لنفترض أنه لم يكتب المعنى القرآني
تماما . وإنما راد فيه قليلا ، وأضاف عليه من خياله ، وتحدث عن تجربة

سابقة له تؤكد ما يقوله ..

هل يناقش شعره على انه شعر رجل دين ، او يناقش على اساس
انه شعر متصل بمعنى ديني .. ولكنه في نهاية الامر شعر ..

.....

نريد ان ننظر في شعر الصوفية ونناقشه بهذا المنطق ..

انه شعر متصل بالدين .. وليس شعرا لرجال الدين ..

والفرق بين المعنيين خطير ..

والسر في كل المنازعات التي وقعت بين الصوفية انفسهم او بينهم
وبين غيرهم .. هو ان الناس اعتبروا شعراء الصوفية رجال دين يقولون
الشعر ، ولم يعتبروهم شعراء يتحدثون في الدين .. وبسبب هذه
النظرة الخاطئة قتل الناس شعراء صوفيين بتهمة الزندقة والالحاد ..
وكانت تهمتهم الحقيقية هي اتساع الخيال وغبائته وعمق التجربة
وتوهجها ..

كما انه بسبب هذه النظرة اتهم رجال بما يخالف حقيقتهم ، لان
الناس نظرت في شعرهم وادبهم واعتبرته ديناً وحاكمتهم على انه دين ،
امام قضاة من رجال الدين ، وكان المفروض ان يحاكموا على انه شعر ،
امام قضاة من النقاد والشعراء .

ان الدين معروف عند الله .. وهو الاسلام .. اسلام الانسان ذاته
له . ويدرك المسلمون ان دينهم يضمه كتاب هو القرآن .. والقرآن هو
الكتاب الوحيد الذي ينعالى على التفسير والتبديل والمحو والاضافة والنقد
والمناقشة .. اما غيره من الكتب فتخضع لما تخضع له الكتب من نقد
وتحليل واطافة وتبديل ومناقشة ..

وبهذا المنطق سننظر في الشعر الصوفي ..

ان الشعر الصوفي رؤية شعرية اولا .. وصوفية ثانيا ..

فن شكله الخارجي هو الشعر ..

• ومضمونه الداخلى هو الحب الالهى •

وهذا الفن ينبع من فنان هو الصوفى ، وتجربة الصوفى رؤية ، وهى حال تمريره ، ويصل اليها بالرياضات الروحية والاعتزال والتجارب والتحليق ، وثمة تجربة غنية تجرى فى دماء روحه ..

والتعبير عن هذه التجربة تم بالشعر ..

جوهر المعنى رؤية ، بينما الشكل الخارجى فنى ..

ثمة مساحة من الفن فى الرؤية وفى الشكل الخارجى ..

والصوفى فنان له رؤياه الدينية ..

وليس كل فنان صوفيا .. الا اذا بلغ درجة من الجدارة والتعمق الدينى .. واى رؤية صوفية ليست دينا ملزما ، ولا يجوز أن تكون ، ولا يصح أن تعامل معاملة الدين •

وسننظر فى الشعر الصوفى بهذا المنطق •

ما هو رأى نيكولسون فى الشعر الصوفى ؟

أن رايه كان فخا عقليا منصوبا دخله كثير من الدارسين فى التصوف .. وسنرى ان رأى نيكولسون هو رأى تقليدى اعتبر الصوفية رجال دين أولا ، وناقش شعرهم بعد فصله عن الشعر ، والحاقه بالدين ، ولست أنهم احدا بسوء الصويه ، ولكن الاسلام قد انكهه هذا الخلط الذى يضيف اليه ما ليس منه ، كما انهكته الحرب بين الصوفية والفقهاء ، كما انهكته الخلافات بين الصوفية ذاتهم .. والحرب والخلافات أصلا مفتعلة ، لأن الصوفية أنفسهم يقولون أنهم اصحاب احوال لا اصحاب اقوال .. وهذا يعنى أنهم اصحاب تجارب روحية ، ورؤى خاصة ، ولهم فنههم الخاص ، ومن الخطأ اضافة هذه الرؤى الخاصة للاسلام أو مناقشتها كجزء من الاسلام ، الاسلام واضح بين له كتابه ، وفى المسلمين فنانون كبار - عبروا عن أنفسهم شعرا ونثرا .. ومنهم من تاه وشطط ، واطافة كل مناهات الصوفيه وشطحاتهم الى الاسلام ، لا يمكن أن تكون صداقة للاسلام •

هذا عداء مستتر يختبئ في ظل بحث علمي رصين ..

يعترف نيكولسون في مقاله عن الشعر الصوفي « انه ليس بين الاشياء التي ابتدعها الصوفية لتحريك وجدانهم الديني ما هو اقوى من « السماع » اى الاستماع الى الموسيقى والفناء ، وفي اخبار الصوفية حكايات تربو على الحصر ، وتقص علينا كيف كانت تعترى الواحد منهم حالة الجذب عند سماع بضعة أبيات من الشعر تتغنى بها احدى الجوارى ، وقد كان ذلك الشعر عادة من شعر الغزل غير الصوفي ، وكثيرا مايتشابه النوعان في الظاهر ، الى حد اننا اذا لم نقف بطريقة ما على غرض الشاعر ، لا نستطيع التمييز بين قصيدتين احدهما يتغنى صاحبها بالحب الانساني والاخرى بالحب الالهى » .

يريد نيكولسون ان يقول هاتين الحقيقتين :

١ - ان الصوفية متصلون بأهل الفناء لانهم اهل سماع .. اى اثم متصلون بأهل فن الشعر والفناء والموسيقى .

٢ - ان الشعر الصوفي يتشابه مع الشعر غير الصوفي ، الى الحد الذى يصعب فيه على عقل ناضج مثل نيكولسون ان يفرق بينهما ..

بعد هاتين الحقيقتين ينكر نيكولسون ان يكون الشعر الصوفي وليدا لوعى فنى ادبى .. رغم ما فى قصائده من جمال النظم ورقة الأسلوب وأناقته ..

ونحسب ان هذا الحكم غير صحيح ..

ولو مضينا مع منطق الباحث نفسه فسوف ننتهى الى عكس النتيجة التى انتهى اليها ..

ان الصوفية يحبون السماع ، وهم متصلون بأهل الفناء والشعر ، وشعر الصوفيين الذى يمتلىء بالغزل يشبه شعر غير الصوفيين فى مجال الغزل .. ومن الصعب التفرقة بينهما ..

كيف لا يكون الشعر الصوفي وليدا لوعى فنى وادبى هو بالقطع وليد وعى فنى يقع فى مجال الرؤية الدينية ..

هو فن ديني .. فن نبع من تائر المسلم الشاعر بالدين ، ولكنه ليس ديناً وليس فيه وحى كما يقول نيكولسون .

يميل نيكولسون الى القول بان قصائد الصوفية « وضرب مثلاً بجلال الدين الرومى وابن الفارض وابن عربى » كانت نتيجة لوحى احوال الوجد الصوفى .. وانها تشابه في عرف . علم النفس الحديث ما يسمونه « الكتابة الآلية » ، ومن خصائص هذه القصائد الغريبة ان أوزانها وانغامها واساليبها الرمزية ، كل هذه عوامل تساعد على انتقال احوال الوجد التى يشعر بها الشاعر الصوفى الى سامعيه ، ويزداد اثرها فى السامع اذا انشدت ، كما تنشأ عادة ، فى حفلات الذكر مصحوباً بالموسيقى .. »

هذا رأى نيكولسون ، وهو رأى نعارضه لسببين :

١ - ان مسألة وحى احوال الوجد الصوفى هى نفسها حالات الالهام والاشتغال التى تعتري الكاتب او الشاعر حين يريد ان يعبر بالشعر او الكتابة .

٢ - ان تحديد خصائص القصائد الصوفية بانها تنقل احوال الوجد الى السامعين ، هو وصف ينطبق على الشعر عموماً ، والاصل فى الشعر ان ينقل حال الشاعر ووجدته واحتراقه الى السامعين .

وذلك اسلوب الفن وبغير هذه القدرة لا يكون الفن فناً ، او يكون ادعاء لصفة الفن دون حقيقته ..

اعلى طراز من الفنانين اذا هم الصوفية ..

وهم ارفع النماذج لان فنهم يتصل بالحقيقة المطلقة الخالدة .. فهم اهل بحث عن الله ..
اهل حب لله ..

وشأنهم شان اى فنان يعبر عن حبه ان شعرا او نثرا ..

.....

اذا اتفقنا ان الصوفى فنان يجهد البحث عن الكمال الاعلى ، اى الله

عز وجل وإذا اتفقنا أن الصوفي يعبر عن شوقه إلى الحق تعبيراً تدخل فيه الصور الأدبية كالنثر والشعر ، إذا اتفقنا على ذلك ، فما هو حظ الصوفية من الفلسفة ..

سنعثر في عالم التصوف على فلاسفة ، وسنعثر في بحار الصوفية على أعداء الداء للفلسفة ، رغم أن فيهم فلاسفة بمعنى البحث عن حقائق الأشياء وحكمتها .. وسنعثر في الصوفية على عقليات ناقدة استوفت حظها من معرفة أصول النقد ودقائقه . رغم هذا كله ..

فليس هناك قانون عام أو قاعدة عامة يمكن تطبيقها على جميع الصوفية .. حتى كلمة الفن — بمعناها الرفيع الذي احترناه — لا يمكن إطلاقها عليهم بشكل عام .. فكل واحد فيهم نسيج وحده ..

وكل واحد فيهم فنان بمعنى من المعاني غير المألوفة أو المتعارفة .. والفلاسفة فيهم ليسوا فلاسفة بالمعنى التقليدي للكلمة ، بالعكس .. أن فيهم من يرتدى ثياب الفلسفة ويمسك أسلحتها لضرب الفلسفة التقليدية وهزيمتها ..

ولو تأملنا ثلاثة نماذج للصوفية لأدركنا المعنى الذي تقصده ..

أن الغزالي .. وجلال الدين الرومي .. والحلاج ثلاثة نماذج من الصوفية .. وهب الله تبارك وتعالى كل واحد من الثلاثة موهبة البحث عن الحقيقة الإلهية .. ورغم أنهم جميعاً صوفيون ، إلا أن كل واحد فيهم يختلف عن الآخر بشكل محدود وواضح ..

عرف الغزالي باسم حجة الإسلام ، لأنه استخدم عقله الناقد الجبار في ضرب الفلاسفة وعلماء الكلام والانتصار للتصوف السني القائم على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أما جلال الدين الرومي فيسمونه شاعر الصوفية الأكبر لأن موهبته كشاعر قد استخدمت في التغنى بالحب الإلهي استخداماً بالغ الروعة .

أما الحلاج فقد قادته موهبته إلى شطحات انتهت حياته بالقتل .. وأسديت على اسمه أكثر من تهمة أقلها الزندقة ..

وللثلاثة انتاجهم من الكتابة والشعر ..

كان الفزالي عالما وكاتبا حمل لواء الدعوة لحقائق الاسلام ..
وكان الرومي والحلاج شاعرين تغنيا بالحب الالهى ، على اختلاف في
درجة الموهبة ومضمون الفن .
يقول الصوفية عن انفسهم انهم ارباب احوال وليسوا اصحاب
اقوال ..

ومعنى العبارة - طبقا لرؤيتهم - انهم لا يريدون ان يحاسبوا على
اقوالهم ، وانما على احوالهم .. من معانى العبارة ايضا - طبقا لرؤيتنا -
انهم يريدون تفى صفة الفن عنهم .. والايحاء بانهم لم يقصدوا بكلامهم ان
يتكلموا فحسب كما يفعل الفنانون ، وانما كان كلامهم تعبيرا عن احوال
وتجارب تدوقوها ..

وهذا كله مفهوم ومقبول ..

وربما كان الفرق الناعم الرفيع بين الصوفى والفنان ان الصوفى اذا
تكلم فانه يتكلم غير قاصد انتاج الفن ..
اما الفنان فيقصد انتاج الفن .

عدم اتجاه القصد الى انتاج الفن يبدع فنا لا مثيل له .. تماما مثلما
تفيض احدى ازهار الفل بعطرها دون ان تقصد او تريد ..
هذه القوة هي التي جعلت من تراث الصوفية الادبى والشعرى فنا
لا يقاوم به شعر او ادب آخر ..

واذا كان الفنان يرفض ان يستسلم وينجرف لمتطلبات الحياة اليومية ،
بغية اكتشاف حقيقة اعلى ، فان الصوفى يفعل اكثر من ذلك بهدف
اكتشاف نوع اكثف من التجربة الروحية ..

والانسان يعيش عادة في الحياة منسودا لاهداف معينة ، واهيانا
تسجن الاهداف المادية الانسان داخلها ، وهذا هو السر في الحياة على غير
هدى ، حتى لو كان الانسان يحقق اهدافه في الثراء او السلطان او السيطرة

.. هذا كله - رغم النجاح المادى - سير فى الحياة على غير هدى ..

وفى اللحظة التى يقنع الانسان وعيه بالتوقف عن السير على غير هدى .. فى اللحظة التى يدرك فيها الانسان أن الحياة ليست هى الانحصار فى الوجود المادى .. وليست هى ذاته ومتطلبات هذه الذات .. فى اللحظة التى يتخلى فيها الانسان عن نفسه ، ويوجه عقله نحو اوسع معنى ممكن لتجربة الحياة ..

فى هذه اللحظة يولد الفنان .. ويبدأ انتاج الفن ..

اذا ادرك الفنان انه ينتج الفن بهدف انتاج الفن .. فنحن لم نزل فى منطقة الفن ..

اما اذا تجاوز الوعى الفنى ذاته متجها الى الله تعالى .. فنحن ندخل بحار التصوف ..

وهى بحار تتجاوز فيها التجربة الفنية حدود الحياة المادية كما تتجاوز حدود التجربة الانسانية ، فى محاولة للاتصال بخالق الحياة والتجربة سبحانه وتعالى .

ولهذا السر .. سوف نجد فى الشعر الصوفى مذاقا ليس له وجود فى شعر الفزل ..

وليس صحيحا ما يقوله نيكولسون ان الشعر الصوفى والشعر الفزلى يتشابهان الى الحد الذى يجعل التمييز بينهما صعبا ، الا اذا وقفنا على غرض الشاعر .. ليس هذا صحيحا ..

الصحيح ان بينهما فروقا جوهرية .. وهى فروق يخفيها شكل القصيدة ولكن مضمونها يكشف عنها من القراءة الاولى ..

ان الشاعر الذى يتغزل فى امرأة او يصف صورة حلوة من صور الوجود الانسانى ، ينفصل عن المرأة او الصورة ليبر عنهما ، وانفصاله لازم لانتاج الفن ، اما الصوفى الذى يعبر بالشعر عن تجربة ما .. فانه يتصل بالأشياء اتصالا غامضا ، ويتخلص من اواصر نفسه بهذا الاتصال .

وعلى حين ينفصل الفنان عن ذاته ليؤكد ذاته .. ينفصل الصوفي عن ذاته لتأكيد حقيقة أكبر من ذاته ..

وهذا التجريد يجعل الشعر الصوفي صعبا وغامضا ورمزيا ..

وصحيح أن الشاعر والصوفي الشاعر يستخدمان أحيانا نفس المصطلحات .. كالخمر .. والشعلة .. والجمال .. والحسن .. والكأس .. والحبيب .. هذا صحيح ..

ولكن .. نحن نعرف أن اللغة الانسانية اشارة الى شيء ..

وعلى حين يشير الشاعر لشيء .. يشير الصوفي لمن ليس كمثلته شيء .. هذا الفرق يجعل شعر الصوفية فنا ليس له مثيل ..

يقول محمود شبستري ..

الخمر والشعلة والجمال كلها للحق مجال ..

هو الظاهر في جميع الصور ..

الخمر والشعلة للعارف جذبة ونور ..

فأشهد الجمال غير الخفي على أحد ..

يريد الشاعر الصوفي أن يقول أن كل ما في الوجود من جمال .. هو مجال لتجلي الحق بالجمال .. هو الظاهر في جميع الصور .. كل ألوان الحسن تستمد الجمال منه .. هو سبحانه وتعالى الذي يوصف بالكمال الأعلى ، وهو سبحانه الذي يضاف على الجمال حظه من الجمال :

الخمر والشعلة والجمال كلها حضور ..

فاحذر الإهمال في معانقة هذا الجمال ..

واشرب خمر الفناء لعلها في لحظة ..

تخلصك من أواصر النفس ..

اشرب الخمر فكاسها وجه الحبيب ..

يتحدث الشاعر الصوفي في هذه الأبيات عن حضور الخالق سبحانه وتعالى في كل مجالات الجمال ..

ويتجاوز الشاعر الصور الى المصور المبارىء ..

ويحاول ان يتصل بما لا يمكن الاتصال به ونحن احياء .. ولهذا يشرب الشاعر خمر الفناء والمحو .. اذا تخلص من اواصر نفسه فهذا معناه انه في الطريق الصحيح الى الله ..

وهذا الفناء عن الذات وتأكيد الحق .. هو جوهر التجربة الصوفية . وليس للشاعر الصوفي صلة مباشرة بالفلسفة وان بدا احيانا وهو يتدثر بثياب الفلسفة ، انما يدع الشاعر الصوفي قلبه يفيض بالمعاني المتعلقة بذلك الحب القاهر ، لأن الحب هو الأساس الحقيقي الذي قامت عليه الحياة وانسجم به ميزان الكون ..

.....

يقوم الفكر الصوفي على اساس فكرة الحب ..

حب الله تعالى للانسان .. وحب الانسان لله عز وجل .. وقديما طرح السؤال الأزلى ..

لماذا خلق الله العالم ، وهو سبحانه ليس محتاجا الى العالم ؟

اختلفت اجابات السؤال عند افراد النوع البشرى ، ولم يناقش السؤال كثير من الناس ، وان خطر على قلوبهم ، وظل السؤال يتنقل من عقل الى عقل .. حتى وصل الى الصوفية .

واحال الصوفية السؤال الى القلوب قالوا ان ادراك سر خلق العالم ، وهو شيء كلى ، ادراك ذلك بعقل الانسان الجزئى امر مستحيل ..

هذا السؤال ليس في قدرة العقل او تخصصه ان يجيب عليه ، هذا اختصاص القلوب ..

ان الله تبارك وتعالى ليس محتاجا الى العالم ، ورغم ذلك خلق العالم

لماذا خلقه ان لم يكن هذا الخلق فيضا من فيوض الحب الالهي والرحمه ..

يورد القرآن الكريم نصاً فيه اجابة على سؤال خلق العالم ..

يقول تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما اريد منهم من رزق

وما اريد ان يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

تحدد الآية الكريمة هدف الخليقة بالعبادة ..

عبادة الله تعالى ..

ليس شرفا ان يأذن الله لمخلوقات من تراب او نار بان تعبد سبحانه ،

ليس تشريفا لتراب ان يرتفع لمقام الحب ..

ان عبادة الله تعالى تعنى الحب والطاعة ، اذا نظرنا اليها من جانب

الانسان ، فاذا نظرنا اليها من جانب آخر ، كانت مجدا حقيقيا للانسان .

او بعبارة اصح .. هى المجد الحقيقى الوحيد .. وما عداه وهم

وصور .. مثلما ان الله هو الموجود الحق ، وما عداه صور تظهر ثم

تموت ..

يدرك الصوفى ان الله تعالى خلق الانسان لانه يحب الانسان ولهذا يبدأ

سباحته فى بحار الحب الالهي على الفور ..

يقول جلال الدين الرومى ..

ها هو .. قد طلع بدرا لم تر السماء له نظيراً فى حلم او يقظة وحوله

هالة من النار الابدية لا يقوى اى طوفان على اخمادها يا رب .. لقد

اسكرتنى خمر حبك وتهدم كل شئ فى بيت جسمى الطينى لقد عمل الحب

بيده القوية فى هدم بيوت الظلام من سقفها الى ارضها .. فلا يتسرب اليها

الا بصيص من الاشعة الذهبية خلال الشقوق ..

وحين لاحت لقلبي لجة الحب .. القى قلبي بنفسه فيها .. وسمعت

« لن ترانى » .

لا اريد ان اعقب بشيء على أبيات شاعر الصوفية الأكبر .. اى تعليق عليها يفسدها .. نحن أمام عطر يتصاعد أريجته من زهور الحب .. وهو عطر لا يمكن تفسيره الا اذا اعترفنا أن الحب هو سر الوجود وعلته الأولى عند الصوفية ..

يقول عبد الرحمن جامى ..

« فى الوحدة » ، حيث الوجود الموحش ، وحيث العالم سر فى باطن الحق محتجب باستار العدم ، كان « الوجود المطلق » المنزه عن « أنا » و « أنت » وعن كل اثنيانية ، لم يكن ذلك الجمال معروفا الا لذاته ، تجلى لنفسه فى نفسه بنوره الأزلى ، وفيه من القوى ما يبهر العقول جميعا .

ولكن الجمال يأبى البقاء مختفيا ، لا تراه عين ولا يسعد به قلب .
لذلك فك عقاله وانطلق يفيض على الكون .. بصورة كل جميل .
تلك طبيعة الجمال ، وذلك أصله ..

فاض على الوجود من عالم الطهر والصفاء ..

سطعت شمسها على الأكوان ومالت ما فيها من النفوس ..
كل ذرة فى الوجود مرآة تعكس صورته ..

تفتتح عنه الأزهار .. وتشدو به الطيور ، ويستمد النور من ناره
الضوء الذى يجذب الفراش الى اقداره ..

حذار ان نقول هو الجميل ونحن عشاقه .. فلست الا المرأة التى
تنعكس عليها صورته ويرى فيها وجهه .

هو وحده الظاهر وانت الباطن ..

والحب المحض — كالجمال المحض — ليس الا منه ، وهو يتجلى لك
فيك ، فإذا لم تستطع ان تنظر الى المرأة ، فاعلم انه هو المرأة ايضا ،
هو الكنز وهو الخزانة .

اما « أنا » و « وانت » فليس لهما محل هنالك ..

تلك اوهام خادعة لا حظ لها من الوجود .. »

يريد الشاعر الصوفي أن يقول أن كلمة « أنا » و « أنت » ليس لهما محل هناك أو يريد أن يقول أن كلمة « أنا » و « أنت » أو هام خادمة ولا حظ لها من الوجود .. أو يريد أن يقول أن الوجود الحقيقي هو الله ..

ويشير معظم شعر الصوفية في مضمونه لهذه الحقيقة الكبرى .. ورغم اتحاد الشعراء في المضمون إلا أن اختلافات الأحوال التي تتعاقب عليهم ، واختلاف حفظهم من الحب والشوق والفناء والصحو وموهبة التعبير ذاتها يجعل شعرهم يختلف من حيث الشكل .

ومهما يكن من أمر فإن شعر الصوفية هو سر عظمة الآداب التي ينتمي إليها الصوفيون ..

يرى الباحثون أن الشعر الصوفي الفارسي هو سر عظمة الأدب الفارسي .. ويرون أن أجمل ما في الشعر العربي هو الشعر الصوفي ، أو يرون أن أرفع ما فيه هو الشعر الصوفي ..

ويدرس النقاد أشعار الصوفيين الفارسيين مثل أبي سعيد بن أبي الخير ، وأشعار فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وعبد الرحمن جامي ، وفي اللغة العربية يرون أن قصائد ابن الفارض ترد في الطبقة الأولى منه ، وهناك قصائد ابن عربي التي يرى نيكولسون أنها تمتلئ بالجمال رغم امتلائها بالفموض .. أما الشعر التركي فأجمل ما فيه شعر النسيمي الذي كان من المعجبين بالحلاج ..

وأهم خصائص الشعر الصوفي هي أهم الفروق بين شعر الصوفية والشعر البحت ، أن مشكلة القضاء والقدر ، ومشكلة معنى الوجود ، ومشكلة الشر ، من المشاكل العويصة التي حار فيها الشعراء ، وهي في ذات الوقت من الأمور المحلولة عند الصوفية ..

يرى الحيام بعد سياحته في الكون أنه قد عاد بجربا يمتلئ بالسخط . من الذي يخبره لماذا جاء إلى الحياة ، ومن أجل ماذا يفارقها ، من الذي يخبره من أين جاء وإلى أين سيذهب ، وما هي حال الداهيين يا ترى ، وأنت أيها الروح .. من أجل أي شيء سكنت في هذا البدن ، ما دمت تنوي

الرحيل على اية حال .. وماذا كان قصد من خلقتى وأحسن صورتي ثم
القاني على المسرح الترابي ، لماذا يهلكنى بعد ذلك ويفيننى ، كانه الخزاف
يتأنق في صنع القوارير ثم يضرب بها الأرض ..

وهذا الكون الشاسع ما بدؤه وما نهايته ، كيف شرع الفلك يدور
كانه الطاس الذهبى ، وكيف سيندثر وينهار كانه البناء الشامخ .. الغاز
وراء الغاز تحير فيها الخيام وطففت حيرته في رباعياته ..

جاء بى في البدء مضطرا الى دنيا التراب

حائرا ما ازددت فيها غير جهل واضطراب

ثم وليت برغمى .. غير دار في اياي

لم قد كان مجيئى .. ومقامى .. وذهابى

نحن إمام شاعر يسأل عن حكمة الوجود وسبب الخليقة .. ويتجاوز
السؤال الى الشك في فائدة كل شيء ..

ما افاد الفلك الدوار ربعا من حياتى

لا ولا زاد جمالا او جلالا بوفاتى

انا لم اسمع مدى عمرى في دار الشتات

ما هو المقصود فيها من حياتى ومماتى

لا يدرك عمر الخيام سر حياته ولا يعرف سرا لماته .. وهذه الحيرة
تسلمه الى الخمر والشراب .. ويحتسى الخمر فيرى الدنيا من خلال كأسه
.. فاذا بلغته انباء الدين الذى يأمر بالمسندل وينهى عن غياب العقل ،
صاح الخيام ..

ليست الدنيا مقاما لك او دار مثاب

فلبيب من غدا فيها ولوعا بالشراب

صب من ماء ابنة الكرم على نار الاسى

قبل ان تلقى وفي كفك ربح فى التراب

هذه المشكلة التى يحلها شاعر كعمر الخيام بالشراب والشك والاحساس بأنه مجبور جاء رغم انفه ، مجبور سيمضى رغم انفه ، هذه المشكلة تأخذ شكلا آخر فى أشعار الصوفية ..

ان الحيرة عند الشعراء .. تتحول الى سلام عند الشعراء الصوفيين .. ليست هناك حيرة وتنافر ، ثمة انسجام و يقين ، فالصوفى يعلم أنه لم يأت مضطرا الى دنيا التراب ، انما جاء لحكمة عليا هى العبادة ، والعبادة حب لا يرى فيه المحبوب غير وجه الحبيب ..

والعبادة مجرد لا يناله الا كبار العاشقين للحق ..

ومشكلة القضاء والقدر التى فتت فيها الخيام ذهنة محولة تماما عند شاعر كجلال الدين الرومى .. وأسرار القدر المجهولة عند الشعراء معروفة عند الشعراء الصوفيين .. فبمقدار حب المرء لربه يكون علمه بأسرار القدر ، لأن الحب اسطراب يكشف أسرار السماء ، وهو الكحل الذى تكتحل به عين القلب فينجلى بصرها كما يقول جلال الدين الرومى .

والحب عند الشعراء الصوفيين هو الذى يرينا الشر خيرا ، او على الأقل يرينا الشر شرطا أساسيا لظهور الخير ، كما يبين لنا أن الشر لا وجود له على الإطلاق فى نظر الله .. او بتحديد أدق .. ليس الشر أمرا بغير حكمة ، وليس ظلما يعيب الكون ، انما وجوده سر لظهور الخير ، فمن طريق هزيمة الشر نصل الى الخير ..

الشر عند الصوفية طريق تسير فوقه نعالهم احتقارا له .. من أجل الوصول الى الخير ومن كمال الحب أن تتحدد ارادة المحب والمحبوب ، وبهذا يدوب الفرق بين الجبر والاختيار ، وهذا هو معنى القدر عندهم ..

يقول جلال الدين الرومى ..

« من اجل الحب كرهت كلمة الجبر .. فان المجبور لا حب له .. »

والحب الذي هو غاية القرب من الحق لا جبر فيه ..

هو ضوء شمس ساطع لا ظل سحابة قائم ..

ليس معنى هذا أن قلق الشعراء وحيرتهم أمر يفتقر اليه الشعراء الصوفيون .. وليس معنى هذا أن نظرتهم الى الحياة وغرضها ليست معقدة ولا مركبة وليس فيها هذا التركيب الفنى ..

هناك بناء بالغ التعقيد فى شعر الصوفية ، وهناك قلق وحيرة ، ولكن هذا كله يقود الى سلام نفسى عظيم .. يقود الى خمر الحقيقة المعنوية ..

يقول جلال الدين الرومى ..

مجهول انا عند نفسى .. بربك خبرنى ما العمل

لا الهلال ولا الصليب معبودى .. ولا انا كافر ولا يهودى

ولا فى الشرق ولا فى الغرب موطنى .. ولا لى قريب من ملاك ولا جن

ولا طينتى من تراب ولا طل .. ولا صورتى من ماء ولا زبد

ولا بالصين ولا بسقسين ولا ببلقار مولدى

ولا بالعراق ولا خراسان ولا الهند ذات الانهار الخمسة منبتى

ولا طردت من عدن ولا يزدان .. ولا من آدم اخذت نسبتي

بل من مقام رفيع المقام .. وطريق خفى المعالم

تجردت عن بلبنى وروحى .. فمن جديد احيا فى روح محبوبى

ينكر الشاعر الصوفى ان ينسب نفسه الى الاماكن او الاشخاص او الصور او الاديان او العقائد او البلدان او الاتهار ويثبت نسبه متصلا بشئ واحد .. انه حيا فى روح محبوبه ..

انه يحب الله تبارك وتعالى .. هذا نسبه الوحيد .. ولان الصوفى ينسب الى الحب الالهى ، ترى مشكلة الموت تأخذ حجمين مختلفين عند

الشعراء والشعراء الصوفيين ..

كان احساس الخيام بالموت يختلف كل الاختلاف عن احساس جلال الدين الرومي بالموت ..

وقف الخيام وسط حيرة قانطة وقلق قاتل ، واذا الظلمة الموحشة تتكشف عن شبح هائل مروع ، ينعقد لرؤيته لسان الخيام ، ويسد عليه مسالك الحيلة ويتعطل التفكير .. شيء لا كالأشياء ، جبار مخوف يلتهم كل شيء .. هو الموت ..

يقول الأستاذ عبد الحق فاضل في دراسته الممتعة عن الخيام أن شبح الموت كان يتمثل لعينى الخيام حيثما التفت .. فهذا جسدك كان طينا لأجساد الغابرين ، وسيصير طينا لأجساد الآتين ، وهذه حياتك ليست إلا موتا ، ففي كل ليلة يموت منها يوم .. وسوف تأكلك الأرض فيما بعد كما تأكلها اليوم ، فان كان غرك انها لم تأكلك بعد فاصطبر ، فما فات الأوان ..

صار عبق الموت يفوح أمام الخيام في كل مكان وكل زمان وكل شيء .. أصبح الخيام يرى الأجساد في كل جماد ، يمشى على الأرض فيشفق ان يطا. العيون الناعسة والثغور اللعساء ، ويضع شفته على كأس الخمر الخزفية فيتوهم انه يقبل ترابا كان في الأصل شفة كاعب حسناء ، تكلمه وتذكره أنها كانت مثله ، ويرفع الخيام رأسه الى شرفات القصور فيرى في لبناتها كف مليك أو رأس وزير ..

اذا وقعت عيناه على كوز خزفي قال انه انسان باعتباره ما كان ، واذا أبصر انسانا قال انه كوز باعتبار ما سيكون ، واذا شاهد الوجه الجميل تذكر انه سيدفن في التراب فتتو منه الزهور ، واذا نظر الى الزهور قال انها نبتت من الوجه الجميل . ورب طين يركله الانسان بقدمه فيسمعه الخيام يقول مستعظما « لقد كنت مثلك فارعنى وارفق بى » ، أو يسمع الطين يهدد الانسان قائلا « لا تركلنى فغدا تدوق الركل مثلى » ..

فيا ويح الخزافين يصفعون الطين ويلكمونه غافلين ، وما يدرون أنه
تراب الادميين انظر الى هذه الوردة الرائعة ، تستيقظ مع الفجر وتقص
حكاية لنسيم الصبا ، فما تكاد تتم حكايتها حتى تنتفض انتفاضة الموت
وتهوى ، أفهكذا في عشرة أيام فحسب ، تنبثق برعما صغيرا حيا كالطفل
الوليد ، ثم تنمو كما تنمو الصبية الكاعب ، ثم تكتمل كما تكتمل الغادة
الناهد ، ثم تموت .. يا لغدر الدهر ..

هذا موقف الشاعر من الموت ..

ما كره الخيام شيئا كما كره الموت ، ولا هاب شيئا كما هاب الموت
ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت ..

يقول الخيام ..

حلت مشكلات الكون كلها

ووثبت من كل احوالة نصبها الخداع لاقتناصي

وفضحت كل الأسرار ..

الاسر الموت ..

وبسبب هذا الموقف من الموت ، وربما بسبب الموقف من الحياة ،
تساءل الخيام عن جدوى الوجود بعد أن ذهب الشباب ، وحلت الأحزان .
ويرى أنه لم يبق الا الأسف على العمر الذي مضى عبثا كما تمضى ليله
السكر ، ويصل الخيام الى أننا لعبة بيد الفلك ، لعب بنا برهة على مسرح
الدهر ، في حياة كلها خيبة آمال وفنوط ، ثم جمعتنا يده الجبارة واحدا
واحدا والقتنا في صندوق العدم ..

ليت الانسان يعود بعد دهور الى الحياة ، ولكن هيهات ..

.....

إذا كان الشعر البحث يقول عن الموت انه غدر الدهر .. فان الشعر
الصوفي يرى في الموت رايأ آخر .. ربما لأنه يرى في الحياة رايأ آخر ..

لا ينظر الشعراء الصوفي الى الموت هذه النظرة المتشائمة التي ينظر بها عامة الناس او عامة الشعراء ..

ليس الموت عند الشعراء الصوفيين نهاية حياة سعيدة ، وانما هو مقدمة حياة خالدة .. وبداية انطلاق اكبر في سلم الخليقة .. والعمران لا يكون الا بعد خراب .. والكنز الثمين لا يستخرج الا بعد حفر الأرض واثارتها ، فاذا رايت بيتا يهدم ويخرب ، فاعلم ان هناك بناء جديدا ، واذا رايت أرضا تحفر فاعلم ان هناك كنزا وراء هذا النقص ، والشجرة لا تعطي الثمار الا حين تتفتح وتسقط الأزهار .. وحين تسقط الأزهار وتموت تبدأ حياة الثمار الجديدة ، وكذلك الروح لا تقوى ولا تلبس كسوة جديدة حتى يتهدم الجسد الفاني ، ويخلق العمر البالي .. والله تعالى هو الجواد المطلق ، وهو لا يسلب نعمة الا ويعطي نعمة اكبر منها فاذا سلب الحق تعالى الحياة الضعيفة السقيمة ، اعطى بدلا منها حياة اوسع وأبقى وأجمل وأرقى ..

يقول جلال الدين الرومي ..

« لماذا هذا الاشفاق من الموت ، ولماذا هذا الفرار من الأجل ، انك لم تزل في انتقال من مرحلة الى مرحلة ، ومن عدم الى وجود ، ثم من وجود الى عدم ، ولم تزل تخلع لباسا وتلبس لباسا حتى وصلت من العناصر الأربعة الى القلب الانساني ، فاذا تشبثت بحالة وتمسكت بها ورفضت الانتقال منها الى حالة أخرى ، بقيت على بدايتك ، ولم تصل الى قمة الانسانية وذروة الكمالات الروحية والعلمية ..

ان الانسان لم ينل البقاء الا عن طريق الفناء ، فلماذا تفر يا هذا من الفناء الجديد الذي هو مقدمة للبقاء الخالد .. ولماذا تتمسك بهذه الحياة وتلتصق بها مع انها تخلف حياة لا زوال لها ولا خوف فيها ولا احزان بها ولا متاعب ..

ان هناك فرقا بين موت وموت .. فالعارفون لا يقاس موتهم على موت الجهلاء والعامة .. ان العارف لا يتوجع لفارقة هذه الحياة ولا يحزن ..

ان الموت عند العارفين نفحة حياة ..

.....

اذا كان الموت يخيف الانسان لانه محو لذاته او فناء لها .. فان الصوفي يسمى خلال حياته لمحو ذاته وفنائه .. وهكذا يهرب الانسان من الموت ، ويهرع الصوفي الى الموت .. وهسكدا يقول الصوفيون في كلماتهم الغامضة الموحية .. « موتوا قبل أن تموتوا » ..

فمن هذا الموت تولد الحياة الحقيقية

ويقصد الصوفيون بالموت هنا .. موت الرغبة في الدنيا .. وفي الخلائق والملائق .. وفي كل السوى .. أى كل ما سوى الله عز وجل .. وفي هذه المرحلة ترد على الصوفي الكرامة ..

.....

والكرامة من المسائل التي تثير الخلاف عند خصوم الصوفيين وعند بعض أنصارهم ، يجحدها الخصوم وينكرها بعض الصوفيين أنفسهم والافضل أن ننظر في موضوع الكرامات قبل ان نخوض في بحار القوم .. ها هو ابراهيم بن ادهم ..

صوفي كان يعيش كالمملوك قبل ان ينطلق في الصحراء بحثا عن الحقيقة . تقدم الفقر واستولى على ملابسه وسيفه الذهب وعباءته المرصعة بالجواهر .. ولم يترك له الفقر غير رداء واحد من الصوف الخشن الممزق .. ابراهيم بن ادهم جالس على شاطئ النهر وقد أخرج الابرة والخيط ليخيط ثوبه الممزق ..

ها هي الابرة تنزلق من يده الى النهر ..

ضاعت وضاعت معها فرصته في رتق ثوبه .. أى فقر بعد هذا ..

في المشهد رجل يتأمل ما يجري امامه .. كان هذا الرجل يعرف ابراهيم حين كان بالغ الثراء .. ويقول الرجل في نفسه .

- سبحانه معير الأحوال .. كان إبراهيم غنيا وصار فقيرا يتير الشفقة .. حين انتهى الرجل من الاعتراض في قلبه على حال ابراهيم بن ادهم .. نظر ابراهيم بن ادهم الى مياه النهر وقال ..
- اين الابرة .

وعلى الفور خرجت من النهر الف سمكة ، كل سمكة في فمها ابرة من الذهب ..

قال ابراهيم : اريد ابرتي ..

وخرجت من النهر سمكة تمسك الابرة ..

وادرك الرجل الذي اعترض على فقر ابراهيم بن ادهم ، انه لم يكن يدرك الى اى حد بلغه ثراء ابراهيم بن ادهم .

هذه كرامة من كرامات ابراهيم بن ادهم ، وربما عثرت عليها منسوبة لصوفي غيره ..

وهذا الامر كثير الحدوث في الحياة الصوفية ، اعنى نسبة الكرامة الواحدة لاكثر من صوفي ، او ادعاء صدور الكلمة الواحدة من اكثر من صوفي ، ونحن نحسن الظن بأهل التصوف ، ونعتقد ان تلاميذهم هم المسئولون عن اضافة هذه الهالة عليهم .. سواء كانت الاضافة بحق او غير حق ..

وموضوع الكرامات هو الخطوة الثانية بعد موضوع المعجزات ..

والمعجزات تصدر من الانبياء ، اما الكرامات فتصدر من الاولياء ..

وموضوع المعجزات واضح ، والاصل في المعجزة انها امر خارق يامر الله تعالى بوقوعه على يدى نبي من الانبياء او رسول من الرسل ، لتصديقه واقامة الحججة على قومه .

وتختلف معجزات الانبياء من حيث نسبة الخوارق فيها ، في الانبياء من كانت معجزته طوفانا اغرق الكافرين ، وفي الانبياء من شق الله تعالى له البحر او احيا له الموتى ، وفي الانبياء من كانت معجزته ناقه ، وتشارك

جميع معجزات الانبياء السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها مؤقتة بزمان معين ..

فشق البحر او احياء الموتى امران خارقان لم يعاصرها غير اهل هذا الزمان البعيد .. على حين تنفرد معجزة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدوام .. فقد شاء الله تعالى ان تكون هذه المعجزة كتابا حفظه الله عز وجل من التدخل البشرى سواء بالاضافة او المحو او التبديل او التحريف ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الانبياء ..

وكان عصره ايلانا بانتهاء المعجزات المادية المبهرة المخارقة ، وبدء لون جديد من عصور الرشد العقلى ..

وليست مصادفة ان تكون معجزة خاتم الانبياء كتابا يرفع قيم العقل والنظر العلمى ويسخر من المقلدين لما كان عليه آباؤهم ..

.....

موقف الاسلام من المعجزات واضح ..

اقر كتاب المسلمين الذى انزله الله كل معجزات الانبياء السابقين ..
وصحح حقائقها واوردها كما وقعت بحق ..

بل ان هناك معجزات تسكت عنها الاناجيل والتوراة .. ولم يسكت عنها القرآن الكريم ..

ان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام تكلم فى المهد ..

تكلم بعد ولادته خرقا للقوانين الطبيعية التى تجعل الاطفال المولودين لا يستطيعون الكلام قبل سنتين تقريبا ..

لم تورد الاناجيل هذه المعجزة ..

سكتت تماما عنها واوردها القرآن فى سورة مريم .. فى موقف يؤكد ان اتهاما سخيفا مد وجه الى مريم فرد عيسى على الفور ..

وكان الرد معجزة من عيسى .. بوصفه نبيا وكرامة لمريم بوصفها من اولياء الله ..

يقول تعالى في سورة مريم ..

« فانت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا اخت هرون ما كان ابوك امرا سوء وما كانت امك بغيا . فاشارت اليه قالوا كيف تكلم من كان في المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اين ما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا .. »

قال عيسى ابن مريم ٣٢ كلمة وهو مولود ..

واثبت بكلماته اكثر من حقيقة ..

نسف اتهام مريم الظالم بانها بغى ..

واكد انه عبد الله الذى آتاه الكتاب وجعله نبيا مباركا واوصاه باقامة الشعائر ..

واشار الى ان الله تبارك وتعالى قد جعل ميلاده وموته وبعثه سلاما عليه ..

هذه المعجزة تؤيد عيسى فى دعوته الى الله ..

وهى معجزة علنية شهدها الدين اتهموا مريم وشهداها الدين تجمعوا فى هذا الموقف من الفضوليين وما اكثرهم ، وحكاها هؤلاء بعد ذلك ، وربما يكون هؤلاء قد اسدلوا عليها ستارا متعمدا من الصمت ، فلم يذكروها تحفيقا لمصالحهم الخاصة فى انفرادهم بالشريعة وكجزء من خطتهم فى حرب هذا النبى الجديد ..

ولقد ذكر القرآن معجزات الانبياء ، كما اشار الى معجزات الاولياء وذكرها ..

ومن الاولياء الذين تحدث القرآن الكريم عن كراماتهم مريم ابنة عمران

التي أحصنت فرجها فنقح الله تبارك وتعالى فيها من روحه .. وكان من كراماتها ما يحكيه القرآن عنها ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً » ..

قال العلماء كان يجد فاكهة الشتاء عندها في الصيف ..

ومن الأولياء الذين يورد القرآن قصص ولايتهم هذا العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً .. وهو العبد الذي يعتقد بعض العلماء أنه الخضر ، ويختلف العلماء على درجته فمن قائل أنه نبي ومن قائل أنه عبد صالح من الأولياء ..

وقد سار هذا العبد مع موسى وعلمه من علمه ولم يصبر عليه موسى . من الأولياء الذين ورد ذكرهم في القرآن بغير إشارة لأسمائهم .. هذا الذي عنده علم من الكتاب ..

قال تعالى في سورة النمل ..

« قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم » ..

نحن في مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام ..

يطلب سليمان احضار عرش ملكة سبأ .. عفريت من الجن يتقدم لاحضاره ويحدد فترة من الوقت هي الفترة التي يستغرقها سليمان في مجلسه ..

« قبل أن تقوم من مقامك » ..

الفترة ساعة أو شيء بين الساعات ..

لم يرض سليمان عن هذه الفترة .. ربما أشاح بيده أو بدا من ملامح وجهه أن فترة احضار العرش طويلة ..

عندئذ تقدم واحد كان يحضر المجلس ..
واحد لم يحدثنا القرآن الكريم عن اسمه ..
أشار اليه القرآن اشارة تزيده غموضاً على غموض ..
« قال الذى عنده علم من الكتاب » ..

من الذى قال ؟

ما هو هذا العلم ؟

ما هو هذا الكتاب ؟

ثلاثة أسئلة لم يجب عليها القرآن .. تخطاها عمداً .. ولحكمة الهية ..
فالامر يتعلق بأمر خارق .. والجن قد عرض خدماته وسيحضر العرش
فى ساعة من مسافة تبعد خمسة آلاف كيلو متر « من فلسطين الى مملكة
اليمن » .. ورفض سليمان هذه الخدمة رغم انها أمر خارق ..

المطلوب شئ فوق طاقة الجن ..

من الذى يملك قدرات فوق قدرات الجن المسخر لسليمان .. لم يقل
لنا الله تعالى ..

وسوف نلاحظ ان اولياء الله تعالى الذين اشار اليهم القرآن ، قد
أشار اليهم دون ذكر اسمائهم ..

أخفى اسماءهم تماماً ..

وأخفى امكنة وجودهم ..

ودثرهم بسر خفى غامض ..

وليست هذه مصادفة ..

.....

اولياء الله الذين ورد ذكرهم في القرآن قليلون .. منهم ولى ورد ذكره في سورة الكهف ..

« فوجدا عبدا من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معي صبرا » ..

يعتقد بعض العلماء ان هذا العبد هو الخضر ..

ولو التصقنا بالقرآن الكريم كمدا ومنهاج .. فسوف نلاحظ ان الآيات قد اغفلت ذكر الاسم ..

وما يورده القرآن يورده لحكمة .. وما يسكت عنه يسكت عنه أيضا لحكمة « وسبحان الله عز وجل » ، والقرآن كنز من كنوز الحكمة ، ومعنى سكوت القرآن الكريم عن ذكر الاسم ، ان الله تعالى لا يريد أن يحدثنا عن اسم هذا العبد . جمل الله تعالى اسم العبد سرا كعلم هذا العبد ..

وترك الفضول في هذا المجال من آداب العارفين بالله ..

ومن كمال السر الا نسال من هو هذا العبد الصالح ..

.....

أيضا يرد ذكر ولى آخر من اولياء الله في سورة النمل ..

« قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » ..

يعتقد بعض العلماء ان هذا العبد هو آصف بن برخيا .. وقد استغلت الاساطير الدينية موضوع الخضر فجعلته يعيئ الى «م الساعة» ، وجعلته يقابل كثيرا من الصوفية ويجرى معهم احاديث ويحدثهم ويحدثونه ، ولم تهمل الاساطير الدينية موضوع آصف بن برخيا . فجعلته طرفا في مسائل عديدة ، رغم أنه كان موجودا في زمن سليمان .. ونحن نأبى الدخول فيما لم يرد فيه نص ، كما نأبى ان نفحم فضولنا على قرآن الله ..

لمد تعمد القرآن الكريم ان يورد اشاره لهذا العبد الصالح دون ان

بذكر اسمه .. سكت القرآن عن ذكر الاسم لنفس السبب الذى سكت فيه عن ذكر اسم العبد الذى صاحبه موسى ..

اتصلت قدرة العبد الذى يحضر مجلس سليمان مع علم العبد الذى صاحبه موسى ..

إحدهما يملك قدرة تعجز عنها قدوة الجن ، والآخر يملك علما يعجز عنه صبر نبي من أولى العزم .

صاحب سليمان اوتى قدرة تتصل بأسرار الله عز وجل ..

وصاحب موسى يملك علما يتصل بأسرار الله عز وجل ..

نحن اذا نبحر فى منطقة اسرار ..

ولهذا تختفى الوجوه وراء اقنعة واستار ..

ولهذا لا يورد القرآن أسماء الاولياء ..

اذا كنا لا نصدق فلنمض مما فى رحلتنا مع الاولياء الذين يورد القرآن لمحات من فصصهم ، سنلاحظ انهم يظهرون بغير اسماء ، احيانا يصفهم المولى بصفات .. ولكن اسماءهم تظل سرا ..

اهل الكهف ..

اليسوا من اولياء الله الصالحين ..

انهم باتفاق العلماء ليسوا انبياء .. فهم فنية آمنوا بربهم .. وهم من آيات الله المعجب . وكرامتهم من الكرامات المدهشة فى التاريخ البشرى .

« ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا . اذ اوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيب لنا من امرنا رشدا » ..

لا يذكر القرآن أسماء هؤلاء الاولياء ..

وهو يتجاوز عمدا عن ذكر اسمائهم لاتصال امرهم بآية من آيات الله العجيبة .. وهو لا يحدثنا فى بداية القصة عن السبب الذى جعلهم ياوون

الى الكهف ، انما يبدأ قصتهم بدعائهم عند دخول الكهف ..

« ربنا آتنا من لذك رحمة وهيء لنا من امرنا رشدا » ..

واضح انهم يسألون الله ان يفيض عليهم من رحمته .. وان يهيء لهم من امرهم رشدا .. نفهم انهم مقدمون على عمل خطير ويخشون مطاردة شيء بالغ القسوة ، وربما امتدت يد هذا الشيء اليهم وعثرت عليهم في مكانهم .. لم يكذبوا دعاءهم ينتهي حتى ضرب الله على آذانهم فناموا ..

ضرب الله على آذانهم ..

تأمل هذا التعبير بأعجازه وأسراره .. نعلم الآن ان صلة النائم بالحياة واليقظة هي الأذن .. أي صوت يصل الى المخ من الأذن يوقظ النائم .. وأي ضوء يسقط على العين يترجم ويصل الى المخ فيوقظ النائم .. فاذا كنا امام قوم ضرب الله على آذانهم فنحن امام ناس لن تستيقظ الا اذا ارتفع الحجاب المضروب على الأذن ..

« فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزين أحصى لما لبثوا امدا » ..

اسمر الحجاب على آذانهم سنين عددا . سمعوا فيما بعد من السياق القرآني انها كانت ٣٠٩ سنوات ..

هل ينام ناس اكثر من ثلاثمائة عام .. لو نام الانسان اباما متتاليه هلك من الجوع ..

لكن هؤلاء ناموا اكثر من ثلاثمائة عام واستيقظوا جائعين ..

ما هذا السر ..

كيف وقع ما وقع ..

نحن امام سر هائل .. حياه ولا حياه .. موت ولا موت .. ناس نائمون ولبسوا نائمين ..

كيف دمت، فلوبهم ٣٠٩ سنوات ، كيف تنفسوا طوال هذا الوقت ..

كيف اطاعت أجهزة أجسامهم هذه الفترة الطويلة واستمرت في العمل
كان الثلاثمائة سنة ليل عادى واحد ..

نحن امام عمل الهى خارق .. امام كرامة من كرامات الاولياء .. ولم
يحدثنا الله تعالى كيف ناموا هذه الفترة ثم استيقظوا بشكل عادى ..
يتصل هذا الامر بمشيئة الله ..

لقد امر الله تعالى .. وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن
فيكون ..

ما هى قصة اهل الكهف بالحق ؟

« نحن نقص عليك نباهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم
هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن
ندعوا من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة
لولا ياتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن اظلم من الله كذبا . واذا
اعتزلتموهما وما يعبدون الا الله فالووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته
ويهيىء لكم من امركم مرفقا » ..

هذه قصتهم بالتفصيل ..

بحكيها القرآن بالتفصيل ..

انهم فتية يعيشون وسط مجتمع كافر يعبد من دون الله عز وجل
آلهة متعددة ، ولا شك ان هذا المجتمع يريد ان يقهر هؤلاء الفتية على عبادة
الأوثان والاصنام .. وربما اهتمهم المجتمع بالخروج على نظامه لانهم يعبدون
الله ، لا حل امامهم غير الخروج والهجرة .. ولكنهم لا يعرفون اين يذهبون
.. واحساسهم بانهم مطاردون امر واضح .. ويلجأون الى الكهف
للاستتار والاختباء ريثما يفكرون .. دخلوا الكهف فناموا ..

نرب الله على آذانهم فناموا .. ولعبت الشمس دورا فى المعجزة ..

« ونرى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت
نقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله » ..

تحدثنا الآيات أن الضوء لم يكن يصل اليهم .. فقد كانت اشعة الشمس تتجنب الكهف وتميل عنهم في الشروق والغروب .. ولكي يبدد النص القرآني الغرابة التي يمكن أن تنشأ في النفس من هذا الامر الخارق .. يضيف قوله : « ذلك من آيات الله .. »

لا غرابة اذا ما دام الامر معلقا بآية من آيات الله ..

« من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا » ..

يريد النص أن يقول أن هؤلاء الفتية من أوليائه المهتدين .. ولهذا وقعت لهم الكرامة .. بعد أن أزال النص كل سبب للدهشة ، ببيانه أن الامر آية تقع لمن هداه الله وتولاه .. عاد النص يورد ما هو ادعى الى المعجب ..

« وتحسبهم ايقاظا وهم رقود .. »

نظن أنهم احياء والحقيقة أنهم موتى ..

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ..

رغم أنهم موتى الا أنهم يتقلبون .. وهم ليسوا موتى لانهم يتقلبون .. وليسوا احياء لانهم لا يقومون .. وليسوا وحدهم في الكرامة الخارقة التي وقعت لهم فمعهم كلب ..

« وكتبهم باسط ذراعيه بالوصيد » ..

ان الكرامة التي وقعت للبشر .. وقعت لكلبهم الذي أحبهم وتبعهم الى الكهف .. وبهذا الحب للأولياء دخل الكلب تاريخ الكرامات كما دخلت نملة سليمان وناقة صالح وحوث يونس تاريخ المعجزات ..

ورغم أنهم رقود .. رغم أنهم لا يقومون كماوتى ويتقلبون كالأحياء ، رغم ذلك تطول لحامهم وأظافرهم بشكل مستمر .. ويتحول منظرهم الى شيء يخيف ..

« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملت منهم رعبا » ..
ومر الوقت ..

مرت ٣٠٩ سنوات ..

ثم بعثهم الله من هذا الموت العجيب الذى تعمل فيه اجهزة الجسم
ويطول الشعر واللحية والأظافر ..

بعثهم الله ليعلموا أن وعد الله حق .. يستخدم النص القرآنى لفظ
« وكذلك بعثناهم » إشارة الى أنهم كانوا موتى ..

ولقد تساءلوا حين بعثوا كم من الوقت مر عليهم وهم نيام ..
« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم كم لبثتم . قالوا لبثنا
يوما او بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم » ..

اتفقت الآراء انهم لبثوا يوما او جزءا من يوم .. ثم اختلفوا فى تحديد
الوقت فأرجعوا الأمر الى الله .. وقالوا ان الله أعلم بما لبثوه .. أحسوا
بالجوع فقرروا ارسال أحدهم ليشتري لهم طعاما ، وأوصوه أن يتخفى
حتى لا يقع فى قبضة السلطة الحاكمة الكافرة التى تهددهم بالقتل ..

« فابعثوا أحدهم يورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها اذكى طعاما
فليأتكم برزقى منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . أنهم ان يظهروا عليكم
يرجموكم او يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا ! » ..

حتى الآن يخفى الله تعالى عن الفتية المطاردين حقيقة الوقت الذى لبثوه
نائمين ..

كانوا يتصورون حتى هذه اللحظة أنهم قضوا يوما او بعض يوم ..
وكانوا يتصورون أن نقودهم وأوراقهم المالية تصلح لشراء طعام ، كانوا
بجهلون مرور أكثر من ثلاثمائة سنة على نومهم ، وكانوا يجهلون أن نقودهم
قد تحولت الى عملة أثرية ..

هذه العملة الأثرية هى التى قادت الى اكتشافهم ..

عثر الناس عليهم وعرفوا أنهم ناموا هذه الفترة ..

« وكذلك اعثرنا عليهم » ..

المفاجأة هنا مزدوجة ..

فوجيء الناس أن هناك من نخرج عليهم من وراء ثلاثمائة سنة ليشتري طعاما بنقوده الاثرية ..

وفوجيء الفتية الاولياء أنهم ناموا اكثر من ثلاثة قرون ..

وكانت هذه المفاجأة المزدوجة سبيلا لاكتشاف حقيقة كونية يجهلها كثير من الخلق ..

هذه الحقيقة ان وعد الله حق ..

وعد الله أن ينصر اوليائه ..

وعد الله أن ينصر الخير على الشر .. مهما نفش الشر اسلحته واستعلى وظن أنه الاقوى والاغنى والابت ..

« وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » ..

لم تكن كرامة هؤلاء الاولياء فد اثمرت ثمرة واحدة فقط .. كانت هناك ثمار كثيرة في الشجرة ..

عرف الناس أن هناك من نام منذ ثلاثمائة عام وتسع سنوات ثم استيقظ ..

وعرف الاولياء أن تطورا خطيرا قد حدث في مدينتهم الكافرة ، ان السلطة التي طاردتهم بتهمة الخروج على قوانين عبادة الاوثان ، وكانت تعد لهم القتل رجما بالحجارة ، هذه السلطة قد سقطت منهزمة امام المؤمنين بالله .. اسفرت المعركة عن انتصار الخير في النهاية .. لم يشهد اهل الكهف هذا الانتصار لعقيدتهم .. ولكن الاجيال التالية شهدت ..

كان هروبهم الى الكهف هو المقاومة الوحيدة الممكنة في زمنهم لكثرة الكافرين وقلة عددهم .. كانت هذه السلبية هي الحل الوحيد المتاح لهم ، ثم مرت الايام ، وزاد عدد المؤمنين وحاربوا الكافرين وانهمزت دولة الاوثان وحلت سلطة تؤمن بالله .. واذا فان الممارك بين الخير والشر

محسومة مقدما ومعروفة النتائج مقدما ..

ينتصر الخير وان طال الوقت واستحكم اليأس وراود العقل التفكير
في الهرب ..

ويتحقق وعد الله بانتصار الخير كما وعد ..

ويعرف الناس ان الحياة والموت والبعث أمور من أمور الله عز وجل ،
والموت ليس نهاية للحياة .. وليس عدما محضا كما يتوهم الواهمون ،
انما هو نوم تليه يقظة .. ورقود يعقبه بعث .. وها هي كرامة أهل
الكهف تثبت فيما تثبته حقيقة البعث والنشور ..

فما هو الفرق بين نوم يستمر ثلاثة قرون او نوم يستمر عددا
أكبر من القرون .. ان القدرة القادرة هنا او هناك هي نفسها قدرة الله
عز وجل .

.....

حين تتعلق قدرة الله تعالى بشيء ، تخرج قوانين هذا الشيء عن
طبيعته المعتادة التي خلقها الله ، وتخضع بخروجها لمشيئة الله الطليقة ..
هو اذاً خروج من الله الى الله ..

حين انشق البحر امام موسى ، وليس من طبيعة البحر أن ينشق ،
كان هذا الأمر الخارق خروجاً من قوانين البحار الى مشيئة الله .. وهذه
المشيئة ذاتها هي التي قضت في الأزل أن يكون البحر بحراً فلا ينشق موجه
الا بمعجزة ..

وحين احيا عيسى الموتى امام أعين الناس ، خرج هؤلاء الموتى من
طبيعة الموت التي تقضى بعدم القيام الا يوم البعث ، وكان خروجهم خاضعا
لمشيئة الله عز وجل ..

وحين نام أهل الكهف اكثر من ثلاثة قرون ، واستيقظوا من نومهم ،
وليس في الطبيعة البشرية نوم كهذا او يقظة كهذه ، حين وقع هذا خضع
أهل الكهف لقانون الخوارق .. وهو قانون غامض يتبع مشيئة الخالق

تبارك وتعالى ..

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد بسط امام اعين الناس قوانينه في الكون المخلوق ، وامرهم بتتبع دقائقها واكتشاف حقائقها ودعا الى النظر والبياحة والتأمل والاكتشاف ، فانه سبحانه قد اخفى قوانينه التي تتصل بالخوارق وحجبها وراء ستائر السر واقنعة الخفاء العظيم ..

وحكمة ذلك واضحة ، فالخوارق تتصل بمشيئة الله ، وليست مشيئة الله تعالى شيئا مخلوقا كالكون وعلاقاته ، انما هي امر يتصل بالذات الالهى ويصدر عنها .. والاسئلة هنا ليست جائزة ..

ولهذا السبب لا نعرف كيف وقعت المعجزات .. لا نعرف كيف انشق البحر لموسى ورفع الجبل له ، ولا ندرى كيف نهض الموتى حين امرهم عيسى ولا نفهم كيف اهلك الله الكافرين القدامى بالصيحة او الصرخة ، ولا نستطيع ان نصل الى القوانين التي حكمت بتدمير اصحاب الفيل الذين هجموا بجيشهم على الكعبة ..

ايضا لن نفهم طبيعة القوانين التي جعلت قوما ينامون اكثر من ثلاثمائة عام ثم يستيقظون وهم يحسون بالجوع ..
هذه كلها امور خارقة ..

هي اسرار من اسرار الله ..

شاء الله ان تقع لحكمة ارادها سبحانه فوقعت كما شاء .. وليس من حق احد ان يسأل كيف وقعت .. لان السؤال عن كيفية وقوع المعجزة ، يشبه سؤال الله ان نراه ..

ان ابراهيم هو خليل الله تعالى .. « واتخذ الله ابراهيم خليلا »
وموسى هو كلم الله تعالى .. « وكلم الله موسى تكليما » رغم مقام النبيين
سأل ابراهيم ربه ان يريه معجزة احياء الموتى فسأله الله : اولم تؤمن ؟

وسأل موسى ربه الرؤية فقال : لن ترانى وامتناع رؤيته معجزة احياء الموتى كامتناع رؤية الله عز وجل ، لان المعجزة هنا هي مشيئة الله ..

ورؤية الله تعنى رؤية الذات ..

وكل ما تعلق بالذات والمشيئة والأسرار أمور لا يقوى عليها الوعاء
البشرى ..

« واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال اولم تؤمن قال
بلى ولكن ليظمنن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل
على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سمعا واعلم ان الله عزيز
حكيم » ..

اراد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو خليل الله عز وجل ، ان
يتلج قلبه برؤية يد القدرة الخالقة وهى تدع امرأ خارقا كاحياء
الموتى ..

وسأله الله : اولم تؤمن ..

كان الله تبارك وتعالى يعلم ان ابراهيم مؤمن محب ، ولكن الحق يريد
اقرار حقيقة تتصل بذاته ومشيئته ومعجزاته سبحانه ...

هذه الحقيقة هى استحالة رؤية هذا او شئ من هذا لانه ليس شيئا
وليس كمثله شئ ..

وقد انبعث طلب ابراهيم كما انبعث طلب موسى من حب كبير لله ،
وعبودية كاملة ، واخلاص عظيم ..

ولكن الامر كان يتصل بذات الله عز وجل او اسراره ولهذا لم ير
احدهما ما اراد رؤيته ..

امر الله ابراهيم ان يقطع أربعة من الطير ويفرق اجزاءها على الجبال
ثم ادعوها اليه .. فتاتيهم مستيقظة من الموت والذبح .. لو افترضنا ان
ابراهيم نفل ما امره الله به .. فما الذى سيراه ..

هل يرى السر ؟

هل يرى سر بعث الموتى من الموت .. ويعرف القانون الخارق الذى
سيطر على هذه المنطقة الغامضة ؟

لم ير شيئا ، لان اقبال الطيور نحوه مستيقظة من الموت لا يضع عقله

على اسرار معجزة البعث ..

ايضا كان جواب الله عز وجل لموسى مماثلا .. طلب موسى الرؤية ..
وطلبها في موقف حب عظيم ..

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك قال لن
تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى
ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال سبحانك تبت اليك
وانا اول المؤمنين » ..

افهم الله تعالى موسى ان طلبه الرؤية مستحيل ، ولكي يفرق بحبه
الذي دفعه للتجاوز وطلب الرؤية ، امره ان ينظر الى الجبل ، ثم تجلى الله
على الجبل .. واندك الجبل واستحال ترابا ، وخر موسى صعقا ومات
.. مثلما خر سليمان ميتا ، استخدم النص القرآني تعبير « خر » للدلالة
على الموت ، وكانت اول كلمات رددتها شفتى موسى حين بعث من الموت
قوله : « سبحانك .. تبت اليك » ..

أدرك موسى ان الانسان المخلوق من تراب لا يقوى على الصمود لنور
الله ..

وتاب موسى من طلبه الرؤية ..

كان يتوب من تصويره ان انسانا - كائنا من كان - يستطيع وهو ابن
الفناء المخلوق من تراب ، ان يعاين انوار الجلال الاقدس ..

تتصل مشيئة الله تعالى بذاته ..

وتظل اسرار الله تعالى اسراراً ، سواء منها ما تعلق بمعجزة احياء
الموتى او شق البحر او نوم يمتد ثلاثة قرون ..

.....

كانت الخارقة التي وقعت لاهل الكهف كرامة للفتية الذين هجروا
مجتمعهم ، وكانت في نفس الوقت معجزة عاينها الناس بعد ثلاثة قرون

وتسع سنوات ..

وأدرك هؤلاء وأولئك أن وعد الله حق ..

أدركوا أن نصر الله تعالى لعباده حق ..

وذهبت دهشة المفاجأة وغرابة الصدمة ..

وعاد أهل الكهف الى الكهف ..

تسللوا الى الموت بهدوء كما تسلل احدهم الى القرية ليشتروا طعاما
بهدوء ..

لم يعد لحياة أهل الكهف معنى ..

كانت حياتهم حتى الآن معجزة شاهدها الناس ، انتهى الوقت المحدد
لحياتهم في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض ..

ومات الفتية الذين آمنوا بربهم وزدناهم هدى ..

هجروا مجتمعهم بكل ما فيه من علاقات وأصدقاء وأقارب وأعداء ،
وعادوا الى مجتمع لا علاقة لهم به ولا قرابة لهم فيه ولا أصدقاء ولا
أعداء .. عادوا كأبطال الأساطير ..

خرجوا في السر خائفين على دينهم ، ودلفوا الى السكف في صمت
خشية أن يراهم أحد ، كانوا يخشون سرا دون أن يعرفوا ، أو كانوا هم
أنفسهم السر المختبى- الذي سيظهر بعد ثلاثة قرون وتسع سنوات ..

بعد أن ظهر السر واكتشفه الناس عاد للاختفاء ..

يعبر السياق القرآنى على نهايتهم ، ويضع القارئ أمام موتهم ..

نمرف أنهم ماتوا من اختلاف الناس فى أمرهم ..

((اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ،
قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا)) ..

انتهى الأمر الخارق وبدأت ثروة الناس فيما لا قيمة له ..

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا » ..

اختلف الناس في عددهم ..

واختلف اهل الكتاب في عددهم ..

وقيلت اشياء كثيرة .. كانت كلها رجما بالغيب ولا تستند على اساس صحيح .. وليس لعددهم اى قيمة .. الا قيمة الفضول البحث ، وذلك امر لا يعبا به عقل جاد ..

ما قيمة عددهم ..

ان المعجزة قد تحققت بوقوع ما وقع لهم ..

ولن يزيد العدد فى كمال المعجزة شيئا ولن ينقص العدد من كمالها شيئا ..

تجاوز القرآن الكريم عن عددهم وأمر بعدم المراء والجدل والسؤال .. سؤال اهل الكتاب ..

وفى هذا المجال .. حيث لا زال الجو نديا بأصداء الكرامة المعجزة .. احوال النص القرآنى كل تصرفات الانسان على مشيئة الله .. حتى ما يريد الانسان فعله غدا ، ذلك شىء لا يقع الا بعد مشيئة الله .. هذه الاحالة على طلاقة المشيئة الالهية هى العمق الذى يكشف عنه البعد النهائى للقصة .

ولا قيمة لشيء بعد ذلك كالعدد او الاسماء او التفاصيل ..

« ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا » ..

بعد بيان حقيقة التسليم والدعاء .. ذكر القرآن الكريم عدد السنوات التى قضاها اهل الكهف فى كهفهم ، لان العدد هنا جزء له دلالتة فى المعجزة التى وقعت .. بل هو لب المعجزة ذاتها ..

« ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله اعلم بما
لبثوا له غيب السماوات والأرض ابصر به واسمع ما لهم من دونه من ولي
ولا يشرك في حكمه احدا » ..

انتهت قصة اهل الكهف ..

انتهت بالتوحيد ..

توحيد من له غيب السماوات والأرض من له أسرار السماوات
والأرض ..

.....

ليست مصادفة أن القرآن لا يحدثنا عن أسمائهم وعددهم ..
كانوا جزءا من سر الله ، وعلى السر أن يدثر نفسه جيدا فلا يكشف
الا عبرته ..

ليس اهل الكهف هم وحدهم أولياء الله الذين يذكرهم القرآن بغير
أسماء ..

في القرآن آيات تتحدث عن أحد أولياء الله ..

لا تذكر الآيات له اسما ، وانما تذكره بصفته ..

« ذو القرنين » ..

والصفة تزيده غموضا وسرا ..

وهو صورة مقابلة لصورة اهل الكهف .. كان اهل الكهف مغلوبين
على أمرهم فاردين بدينهم .. اما ذو القرنين فهو حاكم يقضى بين الناس
وحكمه بلا استئناف ..

ورد ذكر ذى القرنين في سورة الكهف بعد قصة موسى والعبد الرباني
الصالح الذي لم يستطع موسى أن يصبر عليه ..

« ويسالونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . انا مكنا له
في الأرض وأتيناه من كل شيء سببا . فاتبع سببا » ..

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، ويبدو أن السؤال صدر ممن سمع عنه من أهل الكتاب . ويبدو أن قصته كانت معروفة لأصحاب الكعب القديمة ، ويبدو أن الاساطير كانت قد لعبت دورها في القصة ، وأورد الله تبارك وتعالى قصة ذى القرنين في ١٦ آية من سورة الكهف ، وبدأت الآيات ببيان أن الله مكن له أسباب الحكم والولاية .. وسنرى أنه منح حرية مطلقة ليعذب أو يعفو ، ولكنه اختار العدل الذى قامت عليه السماوات والأرض ..

« حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا » ..

يمنحه الله تعالى الحكم المطلق .. ويكل الى مشيئة ذى القرنين ان يختار ما يريد .. ما الذى اختاره ذو القرنين ؟ ماهو القانون الذى اختاره ولى مطلق الحرية وحاكم لا رد لقوته أو حكمه ..

« قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا »

اختار ذو القرنين قانون الشريعة .. من ظلم فسوف يعذب .. ومن آمن وعمل صالحا فله الثواب والطمأنينة .

هذا حكم الشريعة .. واجمل ما فى الحكم أنه يتفق مع حكم الحقيقة .. فحين يموت من يموت ويبعث الموتى ويردون الى الله ، فسوف يعذب الله من ظلم ويشيب من آمن ..

حكم ذو القرنين بحكم الله عز وجل ..

رغم حريته فى أن يحكم فيهم بما يشاء ..

كان مطلق المشيئة . ولكنه قيدها بمشيئة الله عز وجل وعدله .

وهذه هى الولاية ..

وتمضى قصة ذى القرنين ..

« ثم اتبع سببا . حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم

لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا . ثم اتبع
سببا »

وصل ذو القرنين الى مكان مجهول يرجحه العلماء بأنه خط الاستواء
حيث تشتد حرارة الشمس ويعيش الناس وسط غابات حارة فلا يطيقون
ارتداء الملابس (لم نجعل لهم من دونها سترا .. اشارة الى عريهم) .

وحكم ذو القرنين هذا المكان كما حكم المكان الاول .. ويؤكد النص
القرآنى ان الله قد احاط بما لديه خبرا ..

بمعنى ان الله تعالى كان محيطا بأخباره علما بأسباب قوته مددا له
بهذه الأسباب ممكنا له من الملك على كل حال ..

لم تزل رحلة ذى القرنين مستمرة ..

وصل بين السدين ..

» حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون
قولا » .

من أغرب العبارات التى ترد فى قصة ذى القرنين هذه العبارة ..
ما الذى تعنيه ؟

حدثهم ذو القرنين عن الحق والباطل ، فوجدهم لا يستمعون اليه ..
او يستمعون اليه ولا يفهمون حديثه .. او يستمعون اليه وهم مسجونون
وسط خوف يمنعهم من الاستماع اليه او تأمل كلماته .. كانوا يتعرضون
لفزو دائم من جيرانهم . وهم يأجوج ومأجوج .. لا احد يعرف اين وقعت
احداث القصة ..

ولا احد يعرف من هم يأجوج ومأجوج ..

يتجاوز القرآن عن الاسماء والاماكن والمعلومات التى لا تقدم ولا تؤخر
الى عمق القصة وغرضها الاصلى .

» قالوا ياذا القرنين ان يا جوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل
نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربي

خير فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » .

لجأوا الى ذى القرنين بموضوع واحد .

طلبهم للحماية من ياجوج وماجوج .. واجابهم ذو القرنين الى
ماسأله ..

وافهمهم انه سيجعل بين الجبلين حاجزا يمنع ياجوج وماجوج من
الهجوم عليهم او اختراقه . .

واستجابة ذى القرنين لهؤلاء الذين لا يكادون يفقهون قولا ، بمعنى ان
الرفق كان جزءا مرادفا من حملة ذى القرنين ، العدل والرفق . كما اراد
الله ان يكشف على يدى ذى القرنين ان الحماية من الله وان الطمأنينة منه ،
وان الاسباب كلها منه « قال ما مكنى فيه ربى خير » .

يرد ذو القرنين القوة الى الله . .

ويشير فى نفس الوقت الى قانون الأخذ بالاسباب . وهو قانون لازم
للحياة على الارض ..

« فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » ..

وبدا تنفيذ السد . . قال ذو القرنين : « آتوني زبر الحديد حتى اذا
ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني افرغ عليه
قطرا فما استطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

استخدم فى صنع السد قطعا من الحديد الكبيرة ، واسمطت النار
تحتها حتى تحول الحديد الى نار واحمر مثلها ، وافرغوا عليه النحاس
المصهور فصار قطعة واحدة يستحيل اختراقها .

وانبت ذو القرنين لهؤلاء القوم ان السد قد انتهى .. ولن ينقبه احد
او يخترقه احد او ينفذ منه احد ..

حين انتهى ذو القرنين من بناء السد . . قال كلمته فى الولاية .. واحال
الامر كله الى مشيئة الله الطليقة ووعده الحق .

« قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقا » هذا عمق القصة البعيد ..

ان وعد الله حق ..

ترد هذه العبارة الموحية في قصة اهل الكهف .

« وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق » .

وترد العبارة في قصة ذى القرنين « وكان وعد ربي حقا » ..

ووعد الله تعالى هو عمق الولاية البعيد .

شيء مؤكد ان الولى انسان موصول القلب بوعد الله ..

انه يصدق هذا الوعد ابتداء .. ويسمى في تحقيقه انتهاء ، ومن تولاه الله جعله سببا من اسباب تحقيق وعده ، وأجرى على يديه أسراره .. واذا فان الانسان حين يختار لنفسه ما شاءه الحق عز وجل .. يتحول الى الولاية ..

هذا قانون الولاية الحاكم ، اما عمقها البعيد فيتمثل في التوحيد .. وقد اورد القرآن الكريم اكثر من قصة لاكثر من ولى من اولياء الله ، وراينا هؤلاء الاولياء يختلفون في كثير من التفاصيل والسمات كما يختلفون في حظهم من الفنى والفقر ، ولكنهم جميعا صدروا من نبع واحد .. هو توحيد الله جل شأنه ، والسعى في تحقيق وعده .

كان استاذ موسى عالما بأسرار الحق .. ولم تكن تعرف هل هو غنى ام فقير ، واغلب الظن ان مركزه المالى كان غامضا كتصرفاته وان بات مع موسى بغير عشاء حين ابت القرية ان تضيفهما .

وكان اهل الكهف فتية من الشباب المؤمن ، واغلب الظن انهم كانوا متوسطى الحال ، او كان معهم ما يكفى لاطعامهم حين نهضوا من نومهم في الكهف .. لانهم ارسلوا احدهم بورقهم ليشتري طعاما .

وكان ذو القرنين ملكا حاكما في الأرض . وأغلب الظن انه كان غنيا ،
فسياحته في الأرض وقدرته على الفتح والحرب تعنى قدرته على الانفاق .

ولقد مر السياق القرآني في القصص السابقة مروراً عابراً على حظ
هؤلاء الأولياء من الغنى والفقر . . لأن هذا الموضوع لم يكن له دور بارز
في القصة أو اثرها الموحى .

ثم ها هو السياق القرآني ينقلنا في قلب قضية الفقراء والأغنياء بقصة
رجلين . .

أحدهما فقير فقير . .

وثانيهما عظيم الثراء . .

القصة في سورة اهل الكهف . . ومعظم قصص الأولياء في هذه السورة
. . والقصة تصور لنا حواراً بين عقليتين ، عقلية رجل فقير ولكنه من أولياء
الله ، وعقلية رجل نظر في ثرائه فاستكبر وظن ان البعث وهم والحساب
أسطورة . .

« واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما
بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلنا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً
وفجرتا خلالهما نهراً » .

أحد الرجلين فقير . .

والثاني غنى يملك حديقين بديعيتين ، فيهما زرع وأعناب ونخيل وبهر
. . يرسم الله تعالى صورة لثراء قد استغنى بنفسه عن غيره : ان الماء
موجود : فالنهر يجري خلال الجنتين . والشمس كائنة ، والتربة خصبة
. . وكل سىء يؤكد دوام هانين الحديقين الى الأبد .

« وكان له ثمر » . .

كان شديد الثراء . . يرمر الثمر هنا الى وفرة الثراء ، ويرمز الى
ار الحديسين ثابته من حدائق الفاكهة . ولم يرل حدائق الفاكهة اغلى

الحقائق في العالم ، ولم يزل كسبها أعلى كسب في الأرض الزراعية ..

كيف يفكر صاحب الجنتين ..

وكيف يفكر الرجل الذي لا يملك شيئاً .

« وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره انا أكثر منك مالا واعز نفراً » .

المتكلم هو الفنى ، والعبارة التى يقولها تكشف عن شخصيته من اللحظات الأولى .. فهو رجل شديد الكبرياء ..

— انا أكثر منك مالا واعز نفراً .

يريد أن يقول لصاحبه المؤمن أنه أفضل منه . أو يرى أنه أفضل منه .. لقد نظر في ثرائه وحكم لنفسه بالافضلية .

الكبرياء هو الخطيئة الأولى لصاحب الجنتين ..

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبديد هذه أبداً »

دخل الحديقة ونظر في خضرتها وثمارها وأحس بالزهو .. وادلى بأول تصريح من تصريحاته الحمقاء ..

قال : ما أظن أن تبديد هذه أبداً ..

ظن أن هذا الثراء لن يزول أبداً ، تصور أنه سيبقى الى الابد ثرياً ، نسى أن أسباب الثراء والفقر بيد الله عز وجل .. توهم أن أسباب الثراء بيده هو ..

حين وصل الى هذه النتيجة ، لم يعد مؤمناً ..

خرج من الايمان ودخل خيمة الكفر ، ومن المنطقى اذاً أن ينكر البعث والساعة والحساب وكل أصول الايمان ..

« وما أظن الساعة قائمة »

مسألة الساعة والبعث مسألة يظن أنها وهم ..

« ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا »

حتى لو افترضنا جدلا أن هناك بعثا ، فعندما يبعث صاحب الجنتين .
فسوف يراعى وضعه كرجل غنى ، وسوف يجد جنتين أفضل من جنته
هناك . .

نحس بأثر السخرية في كلمته . . ونحس بكبريائه العظيم أمام ثرائه
الابدى .

استمع صاحبه الفقير الى كلماته واقشعر بدنه . . ان ما يقوله صاحب
الجنيتين كفر . . وبدا صاحبه يحاوره .

« قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من
نطفة ثم سواك رجلا » .

افهم الرجل الفقير صاحبه الفنى ان ما يقوله كفر . . ولفت نظره
برفق الى معجزة خلقه من تراب ثم من نطفة ، وقام بتأنيبه في كلمته الاخيرة
« ثم سواك رجلا » ، وكأنما أراد ان يقول له ان الرجل لا يقول ما تقول . .

ان الرجولة التى تنسى أصلها الترابى ، أو تنسى انها نطفة ، أو تتعالى
على خالقها . . ليست رجولة . .

« لكن هو الله ربى ولا اشرك بربى احدا » . .

اعترف الفقير بعبوديته لله . . وتوحيده له . وفراره من الشرك . .
اى شرك . .

هل كان الفنى مشركا .

توحى الآيات القرآنية ان الفنى كان مشركا ، فهل كان يعبد آلهة وثنية
يعتقد انها هى التى حمت جنتيه ؟ أم كان مشركا حين نسب الفنى الى
نفسه وتصور انه باق الى الابد ربما تحقق السببان فى حقه ، وربما اكنفى
بأحدهما ، وكلاهما شرك عميق .

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله » . .

يعلمه الفقير هنا أصول الايمان وآداب استقبال النعمة .. حين تدخل
حديثك او منزلك او عملك او كل ما هو مصدر رزق لك .. فعليك ان
تقول :

ما شاء الله لا قوة الا بالله ..

بمعنى ان هذه مشيئة الله ، ولا قوة الا بالله ..

تنبع القوة من الله .

هو سبحانه مصدرها ..

وهو سبحانه القادر على سلبها ..

هذه هي حقيقة القوة ..

بعد هذه الاشارة العميقة الى خالق القوة والغنى والضعف والفقر ..
عاد الفقير يحاور صاحبه فافهمه ان عليه الا يفتخر بدوام النعمة ، ولئن كان
الفقير اقل منه في المال والولد ، فعسى الله ان يغيثه ، ولا ينبغي ان يأمس
الغنى من عاصفة تحيل جنتيه الى خرائب ..

« ان ترن انا اقل منك مالا وولدا فعسى ربى ان يؤتىن خيرا من جنتك
ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا » او يصبح ماؤها
غورا فلن تستطيع له طلبا » .

لا شيء فى الدنيا ابدى ..

لا شيء على الارض يدوم ..

لا الغنى يدوم ولا الفقر يستمر .. يقلب الله الناس فى صور شتى من
صور الابتلاء .. وليس الفقر والغنى غير صورتين من صور الابتلاء ..

فى نفس الوقت الذى كان العبد المؤمن يحدث الغنى الكافر .. اشار
العبد المؤمن الى نبوءة قاسية تتصل بصاحبه ..

مثل ريح غامض تنبأ المؤمن للكافر بان جنتيه ستصيران الى الخراب
.. سوف ينزل عليهما من السماء ريح مشئوم يحيل ارض الجنتين الى

صحراء قاسية ، وسيجف ماء النهر ويغيب في شقوق الأرض وتموت حياة النبات ..

بعد هذه النبوءة ، ينقلنا السياق القرآني نقله مفاجئة الى صورة الجنين بعد ان تحققت النبوءة ..

« واحيط بشمره »

يستخدم التعبير القرآني لفظا له جرسه العسكرى ، يقول العرب حين يهزمون « احيط بالجيش » اى حوصر الجيش واحاطه العدو وتحققت الهزيمة ..

استخدم القرآن الكريم هذا اللفظ لبيان هزيمة الرجل الذى اشرك بربه ..

انتهى الثمر تماما وأبيد .. وتغير حال الكبرياء فصار ذهولا حائرا متخبطا يبعث على الضحك .

« فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها »

المشهد ارض خراب .. نبتت من نفس خراب .. ثمة رجل يمشى وسط الخراب وهو يخطب كفا على كف ، ويقلب يديه ذهولا وحيرة .. ويكلم نفسه مثل مجنون « ويقول : ياليتنى لم اشرك بربى احدا » ..

اكتشف — والندم يعتصره ويجففه — انه كان مشركا ، وتمنى لو كان مؤمنا .. ادرك ان الشراء الفاحش مع الشرك ينتهى الى الهزيمة والفقر .. وعرف ان لا شئ فى الدنيا يعيش الى الابد ، كل شئ تطحنه دورة الميلاد والموت حتى الأرض .. احيانا تدب فيها الحياة وأحيانا تموت .. ادرك انه فصل نفسه عن قوة الله ومشيتته ، واتصل بما بطن انه قوته الدائمة ومشيتته ، وحين فعل ذلك كان قد انهزم .

هزيمة ساحقة كاملة ..

هزيمة لا ينفع فيها نصر احد او رثاء احد او عون احد ..

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا » ..

بهذه الحقيقة الحاسمة انتهت قصة الرجلين .. الفنى والفقر ..
انهزم الفنى حين فصل بين غناه وقدرة الله الفنى .. وانتصر الفقر حين
شاءت ارادته ما شاءه الله تعالى لعباده من توحيده والايمان به وعبادته
.. سبحانه ..

« هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ..

نريد ان نتوقف بالتأمل والاستغراق فى هذه الآية ..

هنالك الولاية لله الحق ..

هذه هى الولاية ..

هى التوحيد ..

وما وقع من تحقق نبوءة العبد الموحد ، كان سرا من اسراره كشفه له
فراه بعين البصيرة ..

يرى بعض العلماء ان هذا الفقير الذى وردت قصته فى اصحاب
الجنين كان وليا من اولياء الله ، ويدللون على ولايته بأنه رأى امرا لم يقع
بعد من امور المستقبل ، وهذا هو الدليل على ولايته ونحن نعتقد انه ولى ،
ولكننا نسند رأينا فى ولايته الى امر اخطر من نبوءته بما لم يقع بعد فى
المستقبل .

هذا الامر هو التوحيد

وصول هذا العبد الى عمق التوحيد وادراكه المثل فى قوله « لكن
هو الله ربى ولا اشرك بربى احدا » .

هذا معنى الولاية الحق ..

والدليل على قولنا قول الله تبارك وتعالى فى نهاية القصة .. « هنالك
الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ..

يشير النص القرآنى الى ان الولاية الحقيقية هى التوحيد .

ويسند استقراء القرآن هذا الفهم .. ايضا تؤكد السنة .. كما

يهدى اليه فقه اللغة العربية ..

كل آيات القرآن تؤكد أن الولاية هي الوجه الآخر لوحيد الاسلام
وعبودية الله .

قال تعالى : « **إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ..

ونفى الخوف والحزن عن أولياء الله يعني أنهم قد تحصنوا بقلعة
التوحيد والعبودية الحققة ، وهى قلعة من دخلها أمن كل شيء .. يؤكد
هذا الراى قوله تعالى : « **فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا
وعلمناه من لدنا علما** » .

هذا العبد ولى من أولياء الله — قيل انه الخضر — وهو ولى لم يذكر
النص القرآنى له صفة تقدمه للقارىء أكثر من كونه « **عبدا من عبادنا** »
ذكر هذه الصفة وحدها والاقتصار عليها ليس مصادفة ، انما هو أمر
مقصود ، فاصل الولاية الحقيقى هو العبودية لله ..

يقول تعالى « **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** تتنزل عليهم الملائكة
الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم
فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

ويقول تعالى : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** »

وحين يربط القرآن قول من قالوا ربنا الله ثم استقاموا .. بالولاية .
حين يربط القرآن الذين آمنوا بأن الله هو وليهم ..

حين يفعل القرآن الكريم هذا يضع قاعدة الولاية وقانونها .
الولاية هي الايمان .. والاستقامة ..

ليست الولاية اذا هي الاتيان بالخوارق .. ليس هذا صفة الولاية
وليس هذا من خصائصها ..

صفة الولاية هي الايمان بالله ..

اما الخوارق فامور قد تقع وقد لا تقع .. وليس وقوعها لازما للدلالة على الولاية ، كما ان عدم وقوعها ليس دليلا على عدم الولاية ..

بهذا الفهم السليم للاسلام تستطيع ان تنفض عن ثياب الصوفية ما علق بها من مبالغات في نسبة الخوارق اليهم ..

اذا كان الايمان والعبودية والعلم بالله من صفات الولاية ، فما هو معناها .

يدق كثيرا معنى الولاية ..

اذا ذكرت عن الله عز وجل اتصرف معناها الى الربوبية والحراسة ان عبارة « **الله ولي الذين آمنوا** .. » تعنى الله رب الذين آمنوا وحارسهم واذا ذكرت الولاية عن الانسان اتصرف معناها الى العبودية والتوكل فاذا التفت مشيئة العبد بمشيئة الله عز وجل صار العبد وليا من اولياء الله ..

والطريق الى معنى الولاية يمر بطاعة الله عز وجل .. او بمعنى اصح يبدأ بطاعة الله تعالى .

ورك في الحديث القدسي الكريم قوله « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدى بشيء احب الى مما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه ، فاذا احبته كنت سمعته الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها » الى آخر الحديث

من معانى الحديث ان اولياء الله محروسون برعايته ، فمن عادى وليا لله حاربه الله ، ومن معانى الحديث ايضا ان الولاية تعنى القرب من الله ، وقد حدد نص الحديث القدسي أسلوب القرب من الله بانه اداء النوافل ، وفي الاسلام لا تؤدي النوافل الا بعد الفرائض ، فمن أدى الفرائض والنوافل فقد تقرب الى الله ، بعد هذا القرب تجيء درجة الحب .. يجب الله تبارك وتعالى هذا الولي ..

فاذا احب الله عبدا صار يسمع بالله ويبصر بالله ويطش بالله وسير

بالله ويعيش حياتها كلها لله وبالله .

وفي السنة النبوية قصة توضح معنى الولاية .

وردت القصة في البخارى في كتاب بدء الخلق في فصل حديث الغار .

حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ثلاثة اشخاص ممن كان قبلنا كانوا يسيرون فسقطت الأمطار فهرعوا الى كهف فسقطت صخرة ضخمة من الجبل فسدت عليهم الكهف ..

وادركوا انهم حوصروا فقال بعضهم لبعض :

((انه والله يا هؤلاء لا ينجيكم الا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم انه قد صدق فيه)) .

نريد ان نلاحظ تصوير الصدق كمعيار للنجاة في الحياة . بعد هذه العبارة بدأ كل واحد من الثلاثة يحكى حادثا صدق فيه ايمانه بالله . وحكم نصراته هذا الايمان بالله .

قال أحدهم انه كان يستأجر رجلا للعمل عنده . فذهب هذا الرجل بعد ان تركه عنده نصف كيلة من الأرز ، فزرع المالك الأرز وجمع المحصول وباعه واشترى بثمره ابقارا ، وأناه الرجل الأجير يطلب أجره فلم يعطه نصف كيلة من الأرز ، وإنما اعطاه ابقاره . وقد فعل ذلك حساسية وخشية من الله ان يظلم احدا من خلقه .

((فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساحت عنهم الصخرة)) ..

وحكى الثانى انه كان له ابوان شيخان كبيران فكان ياتيها كل ليلة بلبن غنم له ، فأبطأ عليهما ذات ليلة فجاء فوجدهما قد ناما ، ووقف باناء اللبن حتى استيفظ أبواه فى الفجر وشربا ، وكان له عيال جوعى اسنفاثوا به نرفض ان سعى ابنائه الا بعد ان يشرب والداه ..

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساحت
عنهم الصخرة » ..

وحكى الثالث انه كان يحب ابنة عمه ، وراودها عن نفسها ، فابت الا
ان يعطيها مائة دينار ، فاحضر اليها النقود ودفعا اليها ، ثم هم بها
فذكرته بتقوى الله فانصرف بغير ان يعتدى عليها ناسيا نقوده .

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج الله
عنهم فخرجوا » ..

.....

يحكى هذا الحديث النبوى قصة الامر الخارق الذى وقع لثلاثة لجأوا
الى غار فسقطت صخرة سدت عليهم باب الغار ..

ومن المدعى ان بعض المسلمين قرأوا هذا الحديث من نهايته ، او
قراوه ولم يفهموا الا السطر الأخير فيه .

السطر الذى يتحدث عن انسياع الصخرة ودحرجتها ونجاتهم .

وهذه القراءة الناقصة للحديث النبوية هى السر المسئول عن عدم
فهمنا لمعنى الولاية ، او عن خلطنا بين الولاية والخوارق ..

نحن امام عمل ادى الى نتيجة ..

كيف نلتبس النتيجة بغير اداء العمل .

ان الفعة الاولى فى الحديث النبوى تعطى صورة للأمانة الانسانية
المطلقة ، وهى امانة تتصل بالشئون المالية ، حيث يميل الانسان عادة مع
هواه ويؤثر ان يظلم غيره ، ولو ان صاحب المال اعطى العامل ما كان له
من الارز لما كان ظالما ، ولكنه اراد ان يكون صادقا فاعطاه ما صار اليه الارز
الذى كان له ..

اما القصة الثانية فتقدم صوره للبر بالوالدين ، وهى صورة تبلغ اللدوة فى احسان البر بالوالدين ، ولو ان هذا الرجل الذى وقف بالبن حتى جاء الصباح فى انتظار ان يترب والداه . لو انه سقى اولاده الجائعين قبل ابويه لما كان ظالما ، ولكنه اراد ان يكون صادقا فى البر بوالديه فسقاها اولاً .

اما القصة الثالثة فتقدم صورة للعفة الانسانية ، فى البدء نحن امام خطيئة تتهيا للوقوع ، ولكن كلمة واحدة عن تقوى الله توقف المخطيء وترده الى الصواب وتذكره بالله فينصرف بغير ان يرتكب خطيئته .

لو تجاوزنا سطح المعنى فى القصة فسنرى انها رمز للامانة والبر بالوالدين والعفة .. وهى ثلاثة اضلاع لمثلث لا يكون الايمان ايمانا بغيره ، ولا يكون الاحسان احسانا بغيره ..

ولقد وقعت الامانة والبر والعفة .. خشية من الله تعالى ومراقبة له وجبا فيه سبحانه .. « فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا » ولم يكن انسياح الصخرة ونجاتهم الا لانهم صدقوا فى خشية الله .. هذا هو مضمون الولاية الحقيقى ..

خشية الله عز وجل ..

وهذه الخشية ثمرة العلم .. قال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

هذا المستوى هو الجدير بان نتوقف عنده وننامله ..

المستوى الذى يظهر فيه سلوك الانسان المؤمن ..

اما مستوى العجائب والخوارق فنتيجة تترتب على السبب ، ومن الظلم للعقل ان تسقط السبب ونتوقع النتيجة ، او ننظر فى النتيجة ولا ننظر فى السبب ..

ولقد رأينا كيف حرص القرآن الكريم وهو يقص أخبار الأولياء على إخفاء أسمائهم وإخفاء أمكنة وجودهم وتدثيرهم بسر الخفاء ..
ونفهم من هذا ان العبرة بمضمون الولاية لا بأسماء الأولياء .. كما ان المهم هو خشية الأولياء لله لا الخوارق التي يجريها الله على أيديهم ..
والحق ان أهم معنى للولاية هو الصدق مع الله ..
ومن المدهش أن يمتد الضباب لهذا المعنى فلا يبقى من الولاية في عصرنا - بين عامة المسلمين - الا معنى الكرامة الممثل في الخوارق والعجائب ..

.....

ما هي الكرامة التي تقع لأولياء الله ؟
وما الفرق بينها وبين المعجزة ؟
وكيف ينظر كثير من المسلمين اليوم لكرامات الأولياء ؟

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيراً عن المحب .. هل هو الولع بالأسرار
الكامنة في مياح البحر .. أليس الماء أصل كل شيء ..

قبل أن يبدأ البدء أو يكون الكون ..
قبل أن تصفع الشمس ظلالها على الأرض ..
قبل أن تخلق الأرض من انفجار كوني أو إبتسامة كونية نتيجة أمر
يتألف من صفرين ..
قبل أي قبل ..
كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..

Bibliotheca Alexandrina



0408059

المقبل بالفعال والإكسندر
والمؤسسة لمعارف ببيروت